باولو فريري

نظرات في تربية المعذبين في الأرض

ترجمة

مازن الحسيني

ياعمال العالم اتحدوا

المكتبة التقدمية



2003


mohamed khatab

ترجمة

مازن الحسيني

دار التنوير للنشر و الترجمة و التوزيع

بالتعاون مع

المركز الفلسطيني لقضايا السلام و الديمقراطية

اسم الكتاب : نظرات في تربية المعذبين في الأرض

Pedagogy of the Oppressed

اسم المؤلف : باولو فريري – **Paulo Freire**

اسم المترجم : مازن الحسيني – **Mazen Husseini**

تاريخ النشر :2002

اسم الناشر : دار التنوير للنشر و الترجمة و التوزيع



دار التنوير للنشر و الترجمة و التوزيع

المركز الفلسطيني لقضايا السلام و الديمقراطية

رام الله - فلسطين

الإهداء

إلى المضطهدين ، و إلى أولئك الذين يعانون معهم

و يناضلون إلى جانبهم

باولو فريري

كلمة من المترجم

اسم باولو فيريري ليس من الأسماء المألوفة التي يجري تداولها كل يوم في العالم العربي ، ولعله ليس معروفاً على الإطلاق خارج نطاق حلقة ضيقة للغاية من المتخصصين بفلسفة التربية والتعليم ، فأفكاره ونظرياته ، لا سيما في مجال محو الأمية بين الكبار ، لا يمكن أن تكون محل اهتمام أنظمة تعمل جاهدة على تعميق الجهل والاغتراب وتغييب المواطنين عن تشكيل واقعهم ، أو مصدر الهام لمؤسسات " تعليمية " جل همها " إثبات شرعية " الأنظمة القائمة وتوفير الغطاء الفكري والنظري لممارستها تلك .

كرس فيريري حياته ، منذ مطلع شبابه ، إلى تحويل العمل إلى سلاح فعال يخدم المضطهدين ويعمل بشكل فعال على تحريرهم من خوفهم وصمتهم وما يتعرضون له من اضطهاد واستغلال ، لم ينظر إليه بالمنظور التقليدي المادي السائد الذي يسير آليات السوق (العلم يفتح آفاق عمل جديدة ويتيح الفرصة لتحسين الأوضاع المادية) ، بل أراد أن يكون الأداة التي تحفز " المعذبين في الأرض " على الانعتاق من " ثقافة الصمت" والتصدي لمواجهة العالم ومسائلته ، لا بل تحديه و استعداده لتغييره .

نظر إلى العلم ، وبالتحديد إلى عملية محو الأمية بين الكبار ، على أنها " عملية حوارية " أداة حيوية وفعالة من أدوات التنمية الاجتماعية ، ليس لأنها تعلم الأميين " فك الحروف " والقراءة والكتابة فحسب ، بل لأنها يجب ، بالدرجة الأولى ، أن ترتبط ارتباطاً عضوياً بادراك الواقع وفهمه وبإخراج " الأميين " من " صمتهم " و " خوفهم " و " استسلامهم " ودفعهم إلى إدراك الواقع وفهمه وتحديه وتحويره ، فقد آمن إيماناً راسخاً بأن الإنسان ، مهما كان" جاهلاً " أو "مطموراً تحت ثقل الصمت " يملك

القدرة على النظر إلى " عالمه "نظرة انتقادية وبسائله ويحاوره ويتحداه ، وفي النهاية يحوره ، كل ما يحتاجه هو الأدوات الملائمة التي تمكنه من هذه المواجهة ، ولعل من شأن التعليم أن يوفرها .

وصفه أحد جنرالات الحكم العسكري الأسود ، الذي خيم على وطنه البرازيل ، في منتصف الستينات من القرن العشرين (بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية إياها التي تصدر الأوامر إلى حكام العرب وتوجههم) بأنه " حول التعليم إلى أداة هدامة " .

ولد فيريري عام 1921 في رسيفه ، التي تعتبر من أفقر المناطق في البرازيل ، ومن اكثر المناطق تخلفاً فيما يعرف بالعالم الثالث ، خبر العوز والحاجة وعرف الجوع والتسول وغياب البيت المستقر الذي يوفر السقف الآمن ، واضطر في فترات مختلفة إلى الانقطاع عن الدراسة والدخول إلى سوق العمل ، فكان لكل ذلك تأثيره العميق الذي لا يمحى على نفسيته ووعيه وما اسماه " الادراك بأن الجهل والخمول واللامبالاة هي نتاج مباشر لمجمل الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية " فتوصل إلى استنتاج شكل عماد نظرياته اللاحقة ، وهو أن نظام التعليم يشكل أحد الأدوات الأساسية التي تستخدم للإبقاء على الطبقات الدنيا " في الأسر " ، و لنشر " ثقافة الخوف والخنوع والصمت " .

دفعه إصراره وعناده وإدراكه لواقعه وتصميمه على تغييره إلى الدراسة والتخصص في التربية والتعليم، بهدف مساعدة أبناء جلدته على التمرد و " كسر الطوق " وتشكيل الواقع الذي يليق بهم كآدميين ، وعمل بعد تخرجه في عام 1959 أستاذاً لتاريخ وفلسفة التربية في جامعة رسيفه ، حيث توصل إلى منهج لتعليم الأميين يحولهم من مجرد " متلقين " إلى مشاركين " ، قامت مؤسسات عديدة ، منها جمعيات كاثوليكية ،

بتطبيقه في شمال شرقي البرازيل ، وعند وقوع انقلاب الجنرالات توقف العمل بالتجربة تلك والقي القبض على فيريري بتهمة " النشاط الهدام وتشكيل خطر على أمن البلاد " (رغم انه لم ينتم في يوم من الأيام إلى حزب سياسي ، بل من المرجح أنه كان أقرب إلى ما يعرف بـ " اللاهوت التحرري " منه إلى الأحزاب السياسية) مكث في السجن سبعين يوماً تعرض فيها للتعذيب والإهانة ، ثم طرد من وطنه ، فذهب إلى تـشيلي ، حيث عمل لخمس سنوات في منظمة الأمم المتحـدة للعلـوم والثقافـة والتربيـة (اليونسكو)، ومع المعهد التشيلي للإصلاح الزراعي ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، فتلقفته جامعة هارفرد التي عمل فيها لفترة كمستشار لكلية التربيـة ، ثم انتقل إلى جنيف بسويسرا ليعمل مستشاراً خاصاً لمكتب التعليم التابع لمجلس الكنائس العالمي .

كتب فيريري العديد من المقالات في فلسفة التربية ومحو الأمية والتنميـة الاجتماعيـة باللغتين البرتغالية والأسبانية وله العديد من المؤلفات ، آخرها " بيداغوجيا المضطهديين " الذي قمنا بنقله إلى اللغة العربية ، أيماناً منا بأن لنظام التعليم في بلادنا - كما في بقية بلدان العالم - دور أساسي في عملية تحرير المواطن من خوفه وصمته ومن القيود التي تفرضها عليه أنظمة الحكم والتبعية المتزايدة لقوى ودول خارج حدودنا ، فكما يقول فيريري: " لا يوجد شيء اسمه عملية تعليم محايدة ، فالتعليم أمـا أن يلعـب دور أداة تسهل عملية اندماج الأجيال الصغيرة في منطق النظام الحالي وتؤدي إلى الانصياع له، أو يصبح " ممارسة للحرية " ، تلك الوسيلة التي من خلالها يتمكن الرجال والنساء من التعامل بشكل انتقادي وخلاق مع الواقع، ويكتشفون كيف بوسعهم المـساهمة في تحوير عالمهم " .

ونحن إذ نضع هذا الكتاب بين أيدي قراء العربية ، يحدونا الأمل بأن يجدوا فيه ما يفيد معركة تحررنا على كافة الأصعدة ، وما يلهمنا في عملية البناء الشاقة .

تمهيد

هذه الصفحات التي أقدم فيها "نظرات في تربية المعذبين في الأرض" أو "بيـداجوجيا المضطهدين" ، هي حصيلة ملاحظاتي في السنوات الست الأخيرة من وجودي في المنفى الذي فرضته ظروف سياسية . و هي ملاحظات أغنت سابقتها التي قمت بجمعها خلال نشاطي التربوي في البرازيل .

لقد واجهت خلال دورات التدريب الخاصة بتحليل دور "الـوعي" (1) ، و خـلال التجارب الواقعية المتعلقة بالتعليم الذي يحقق التحرر الحقيقي ، واجهت "الخوف مـن الحرية" الذي نناقشه في الفصل الأول من هذا الكتاب . فغالبا ما كان المـشاركون في دورات التدريب يلفتون الأنظار إلى "خطر الوعي" بطريقة تنم عن خوفهم من الحرية. كانوا يقولون ان "الوعي الانتقادي" أمر فوضوي، و يـضيف آخـرون ان "الـوعي الانتقادي" قد يؤدي إلى الإخلال بالنظام . و لكن البعض كان يعترف: لماذا الإنكار ؟ كنت خائفا ، و لكن لم أعد خائفا الآن .

و خلال إحدى هذه المناقشات ، كان الجميع يناقش إن كان "إدراك الناس" لحالة ظلم معين قد تؤدي م إلى "تعصب مدمر" أو "الشعور با يار عالمهم ا يارا تامـا" . و في خضم النقاش قال أحد الأشخاص ، و الذي كان عاملا لـسنوات عديـدة في أحـد المصانع : "لعلي الوحيد هنا الذي ينحدر من أصول عمالية . لا أستطيع القول إنـني فهمت كل ما قلته الآن ، و لكن بوسعي قول شيء واحد- عندما بدأت [في الدورة] كنت ساذجا ، و عندما أدركت أنني ساذج أصبحت ناقدا ، و لكن هذا الاكتشاف لم يجعلني متعصبا ، كما أنني لا أشعر با يار أي شيء."

الشك في النتائج المحتملة لـ "الوعي" ينم عن وجود فرضية لا يصرح بها دائما من يعتريه الشك و هي : من الأفضل لضحايا الظلم ألاّ يعرفوا أنفسهم على هذا النحو . في الواقع ، لا يؤدي "الوعي" بالناس إلى "تعصب مدمر" ، بل على العكس ، يقوم "الوعي" ، من خلال تمكينهم من "دخول" العملية التاريخية كـ "فاعلين"(2) يتحلون بالمسؤولية ، بدفعهم إلى السعي لاثبات أنفسهم ، و يتفادى بذلك التعصب .

(1)يعني مصطلح "الوعي" ، بالبرتغالية (conscientizacao) ، التعلم على ادراك التناقضات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و القيام بعمل ضد عناصر الاضطهاد الموجودة في الواقع . راجع الفصل الثالث – المترجم

(2)يعني مصطلح "فاعلون" ، بالإنجليزية (Subjects) ، أولئك الذين يعرفون و يعملون مقابل أولئك الذين هم "أهدافا" (Objects) معروفة و محددة و محط العمل – المترجم.

إن يقظة الوعي الانتقادي تقود إلى التعبير عن مشاعر السخط الاجتماعي ، و ذلك بالتحديد لأن مشاعر السخط هي مكونات حقيقية لوضع قمعي وجائر .

و الخوف من الحرية ، الذي قد لا يدركه، بالضرورة، من يملكه ، يجعله يرى أشباحا .

و يلجأ شخص كهذا ، في الواقع ، إلى محاولة تحقيق أمن ، يفضله على مغامرة الحرية . و كما قال هيجل : "بالمجازفة بالحياة فقط يتم نيل الحرية ...و المرء الذي لم يجازف بحياته قد يحصل ، بلا شك ، على الاعتراف به كشخص ، و لكنه لن يحصل على صدق هذا الاعتراف كوعي مستقل بالذات ."

نادرا ما يعترف الناس صراحة بخوفهم من الحرية ، بل يحاولون إخفاءه – في بعض

الأحيان دون وعي - بالتظاهر بأ م حماة الحرية ؛ و يضفون على شكوكهم و تخوفهم جوا من الوقار العميق الذي يليق بحماة الحرية . و لكنهم يخلطون بين الحرية و الحفاظ على الوضع القائم ، بحيث أنه إذا كان "الوعي" يهدد الوضع القائم المعني ، سيبدو عندئذ أنه يشكل ديدا للحرية ذا ا .

إن الفكر و الدراسة لم يؤديا إلى مولد [كتاب] "بيداجوجيا المضطهدين" . فجذوره تكمن في أوضاع ملموسة ، كما أنه يصف ردود فعل العمال (الفلاحين و الحضريين) و أفراد من الطبقة الوسطى ، قمت بمراقبتهم مباشرة أو بشكل غير مباشر خلال مسيرة عملي التعليمي . و سيوفر لي استمرار المراقبة الفرصة لتصحيح أو إثبات - في دراسات لاحقة - النقاط التي أقترحها في هذا العمل الذي هو بمثابة مقدمة .

ربما سيثير هذا الكتاب ردودا سلبية من عدد من القراء . فالبعض سيعتبر موقفي من موضوع التحرر الإنساني مجرد موقف مثالي خالص ، أو حتى يعتبر مناقشة المهمة الأنطولوجية، الحب ، الحوار، الأمل ، التواضع و العطف ، كضرب من الهراء الرجعي . و لن يقبل آخرون (أو لا يرغبون في قبول) شجبي لحالة الاضطهاد التي تكافئ المضطهدين . و بالتالي فإن هذا العمل التمهيدي موجه إلى الراديكاليين . و إنني متأكد بأن المسيحيين و الماركسيين – الذين قد يختلفون معي حول جزء من العمل أو كله – سيستمرون في قراءته حتى النهاية . أما القارئ الذي سيتخذ بشكل متعسف مواقف مغلقة "لا عقلانية" فسيرفض الحوار الذي آمل أن يبدأه هذا الكتاب .

إن ضيق الأفق و الانعزالية (Sectarianism) ، اللذين يتغذيان على التعصب ، يؤديان إلى العجز دائما ، بينما الراديكالية ، التي تغذيها الروحية الانتقادية ، خلاَّقة على الدوام . الانعزالية تضفي الخرافات و تؤدي ، بالتالي ، إلى "الاغتراب" (1) ،

بينما الراديكالية تنتقد و بالتالي تحرر . الراديكالية

(1)الاغتراب (Alienation) : مقولة فلسفية ، تعبر عن تحول نتـائج النـشاط إلى شيء غير متوقف على الإنسان و غير مسيطر عليه،و عن تشوه طابع النشاط البشري، بحيث يفقد مضمونه الخلاق و يتجرد الإنسان من شخصيته، إذ تكتسب العلاقـات الاجتماعية بين الناس صورة علاقات بين الأشياء . كان ماركس أول مـن بـين أن الاغتراب في المجتمع الطبقي التناحري يأتي حصيلة التقسيم العام للعمل، و ينعكس في سيطرة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج =

تحتوي على مزيد من الالتزام بالموقف الذي اختاره المرء ، و بالتالي انغماسا أكـبر في الجهد لتغيير الواقع الملموس الموضوعي . و بالعكس ، فـإن الانعزاليـة ، لكونهـا لا عقلانية و تولّد خرافات ، تحول الواقع إلى "واقع" زائف (و بالتالي غير قابل للتغيير) .

تشكل الانعزالية ، في أي موقع ، عقبة في انعتاق الإنـسان . و لـسوء الحـظ ، لا تستحضر الصيغة اليمينية دائما نظيرها الطبيعي : راديكالية الثوريين . فليس من النادر أن يصبح الثوريون أنفسهم رجعيين بوقوعهم في الانعزالية خلال الرد علـى انعزاليـة اليمين . و لكن يجب ألاّ يؤدي هذا الاحتمال بالراديكالي لأن يصبح بيـدقا طيعـا في أيدي النخب . فليس بوسعه ، و هو المنغمس في عملية التحرير ، أن يبقى سلبيا أمـام عنف المضطهد .

من الناحية الأخرى ، لا يمكن أن يكون الراديكالي ذاتيا . فبالنسبة له ، يوجد الجانب الذاتي فقط في العلاقة مع الجانب الموضوعي (الواقع الملموس الذي هو هدف و محـط تحليله) .

و هكذا تجتمع الذاتية و الموضوعية في وحدة جدلية تنتج معرفة بالتضامن مع العمل ، و بالعكس .

إن الانعزالي ، من جانبه ، و مهما كانت قناعته ، لا يدرك (أو لا يستطيع أن يدرك) ، و قد أعمته لا عقلانيته ، ديناميكية الواقع – أو أنه يصورها بشكل خاطئ . و إذا فكر بشكل جدلي ، فإنه يفعل ذلك بـ "جدلية مدجنة". و الانعزالي اليميني (الذي سبق و أن أطلقت عليه صفة "انعزالي بالمولد") يريد إبطاء العمليـة التاريخيـة ، و "تـدجين" الزمن، و بالتالي تدجين الناس . أما اليساري الذي تحول إلى انعزالي فهو يضل الطريق كلية عندما يحاول تفسير الواقع و التاريخ جدليا ، و يقع أساسا في مواقف جبرية (1).

و يختلف الانعزالي اليميني عن نظيره اليساري في أن الأول يحاول تدجين الحاضر بحيث يقوم المستقبل (هكذا يأمل) بإعادة إنتاج الحاضر المدجن ، بينما الثاني يعتبر المـستقبل مقررا مسبقا – نوعا من القدر المحتوم ، الحظ أو المصير . إن "اليوم" المرتبط بالماضـي هو ، بالنسبة للانعزالي اليميني ، شيء مفروض لا يتغير . أما بالنسبة للانعزالي اليساري فإن "الغد" هو مقرر سلفا ، قدر لا راد له . و هذان الموقفان ، اليميني و اليـساري ، هما موقفان رجعيان ، لأ نهما يتوصلان ، انطلاقا من نظرتيهما الخاطئتين للتـاريخ ، إلى أشكال عمل و نشاط تنكر الحرية .و كون أحدهما يتصور "حاضرا" حسن

=و استغلال الإنسان للإنسان .ان الناس يقيمون العلاقات في ما بينهم بشكل عفوي ، و ليس بوسعهم التحكم بها. لذا فان النشاط الاجتماعي المشترك و نتائجه و روابـط الناس الاجتماعية تتبدى بالنسبة لكل فرد و لمختلف الفئات الاجتماعية شيئا غريبـا عنهم ، و يغدو العالم الاجتماعي الذي صنعه الإنسان عالما معاديا له و مسيطرا عليه ، فيضطر إلى التلاؤم مع هذا العالم على نحو أو آخر –المترجم.

(1) الجبرية (Fatalism) : نظرة إلى التاريخ وحياة الإنسان كشيء محدد مسبقا من قبل الإله أو المصير أو القانون الموضوعي للتطور ، و ما ينبع عن ذلك من تصورات حول تعذر تغييرهما بالجهود البشرية أيا كانت – المترجم.

السلوك ، و الآخر يتصور "مستقبلا" محتوما لا راد له ، لا يعني أنهما يقفان مكتوفي الأيدي

و يتحولان إلى متفرجين: – الأول يتوقع استمرار "الحاضر" ، و الثاني ينتظر أن يتحقق "المستقبل" المعروف . بل على العكس ، يقوم هؤلاء الأشخاص ، الذين سجنوا أنفسهم في "دوائر من اليقين" لا يستطيعون الفرار منها ، بخلق "حقائقهم" الخاصة . إنها ليست "حقائق" أشخاص يناضلون لبناء المستقبل ، و يتعرضون لما في عملية البناء تلك من أخطار . كما أنها ليست حقائق أشخاص يناضلون جنبا إلى جنب و يتعلمون معا كيف يبنون هذا المستقبل – الذي هو ليس شيئا مقررا على الناس تلقيه، بل على العكس شيء يتعين على الناس خلقه . إن كلا النوعين من الانعزاليين ، اللذين يتعاملان مع التاريخ بطريقة التملك ، ينتهيان إلى الابتعاد عن الناس – وهو أسلوب آخر لاتخاذ موقف ضد الناس.

في الوقت الذي يقوم فيه الانعزالي اليميني بإغلاق نفسه في "حقيقته" ولا يفعل أكثر من إنجاز دوره الطبيعي ، يقوم اليساري الذي يصبح انعزاليا و متصلبا بإنكار طبيعته نفسها . إلا أن كل واحد منهما ، و هو يدور حول "حقيقته"، يشعر بالخطر إذا جرى التشكيك في تلك "الحقيقة" . و هكذا ، يعتبر كل واحد منهما أي شيء غير "حقيقته" كذبة . و كما قال لي في يوم من الأيام الصحفي مارسيو موريرا الفيس : "كلاهما يعاني من غياب الشك".

إن الراديكالي الملتزم بالتحرر الإنساني ، لا يصبح سجين "حلقة يقين" يقـوم أيـضا بسجن الواقع فيها ، بل على العكس ، كلما ازداد راديكالية ، كلما أخذ يلج بشكل أتم في الواقع ، بحيث يستطيع تغييره بشكل أفضل ، و قد تعرف عليه معرفة أفـضل . إنه لا يخاف مواجهة العالم و قد تكشف ، و لا يخاف الاستماع إليه و رؤيته . إنـه لا يخاف الاجتماع إلى الناس أو الدخول في حوار معهم (1) ، و هو لا يعتبر نفسه مالكا للتاريخ أو للناس ، أو محررا للمضطهدين ، و لكنه يلتزم ، في إطار التاريخ ، بالنضال إلى جانبهم .

إن بيداجوجيا (Pedagogy) المضطهدين ، التي نقدم عناصرها الأولية في الصفحات التالية ، هي مهمة للراديكاليين ، و لا يمكن أن يضطلع بها الانعزاليون .

سأشعر بالارتياح لو وجد بين قراء هذا الكتاب من يتحلون بنقد كاف ليصححوا مـا أكون قد وقعت فيه من أخطاء و سوء فهم ، و ليعمقوا ما فيه من تأكيدات و يشيروا إلى جوانب لم أدركها . و من المحتمل أن البعض قد يشكك في حقي في مناقشة العمل الثقافي الثوري ، و هو

" (1)طالما بقيت المعرفة النظرية من امتيازات حفنة من 'الأكاديميين' في الحـزب ، فا م سيتعرضون لخطر أن يضلّوا" ، راجـع : روزا لكـسمبورج ، Reform or Revolution ، أوردهـا C.Wright Mills في كتابـه The Marxists ، (نيويورك ، 1963)

موضوع ليست لي فيه تجربة ملموسة . و لكن كوني لم أشارك شخصيا في عمل ثوري لا ينفي إمكانية تفكيري في الأمر . بالإضافة إلى ذلك ، لقد قمت خلال تجربتي كمرب

مع الشعب ، يستخدم التعليم "الحواري" (1) الذي يطرح المشاكل و القضايا ، بجمع ثروة نسبية من المواد حفزتني على المجازفة بتأكيد ما أكدته في هذا العمل .

و آمل ، على الأقل ، أن تدوم ، من خلال هذه الصفحات ، ثقتي بالشعب ، و إيماني بالناس و بخلق عالم تكون المحبة فيه أسهل .

باولو فريري

(1)نسبة إلى "حوار" (Dialogue) - - المترجم

الفصل الأول

أصبحت قضية "الأنسنة" (1) (Humanization) ،التي كانت على الدوام ، من وجهة نظر القيم ، هي القضية المركزية بالنسبة للإنسان ، تكتسب طابع اهتمام لا مفر منه .(2) الاهتمام بـ "الأنسنة" يؤدي على الفور إلى الإقرار بـ عة "التجريـد مـن الإنسانية" ، ليس فقط كإمكانية تتعلق بعلم الكائنات ، بل كواقع تـاريخي . و مـع إدراك المرء لمدى التجرد من الإنسانية يأخذ بسؤال نفسه إن كانت "الأنسنة" احتمالا ممكنا قويا قابلا للحياة . ففي إطار التاريخ ، وفي سياق موضوعي ملموس، تـشكل "الأنسنة" و "التجريد من الإنسانية" احتمالين بالنسبة للإنسان بوصـفه كائنـا غـير مكتمل ، واعيا لعدم اكتماله .

و لكن مع وجود "الأنسنة" و التجريد من الإنسانية كخيارين حقيقيين ، فإن الخيـار الأول وحده هو عمل الإنسان و مهنته . و يجري باستمرار نفي هذا العمل ، و مـع ذلك يتأكد بفعل النفي ذاته . و يتم إحباطه بالظلم و الاستغلال و الاضطهاد و عنف المضطهدين ، و يجري تأكيده بحنين

و توق المضطهدين للحرية و العدالة ، و بنضالهم لاستعادة إنسانيتهم الضائعة .

أما التجريد من الإنسانية ، الذي يترك بصماته ليس فقط على أولئك الذين سـلبت إنسانيتهم، بل أيضا (ولكن بطريقة أخرى) على أولئك الذين سلبوا تلك الإنـسانية ، فهو تشويه لمهنة جعل المرء أكثر اكتمالا إنسانيا . يحدث هذا التشويه في إطار التاريخ ، و لكنه ليس مهمة تاريخية . في الواقع ، إن الاعتراف بأن التجريد من الإنسانية هـو مهمة تاريخية سيؤدي إما إلى الاستخفاف أو إلى

(1) الأنسنة : كلمة منحوتة من "الإنسانية" و تعني عملية إضفاء الـ عة الإنسانية ، و هي من الناحية الفلسفية نظرة ترى في الإنسان أرفع القيم ، و تدافع عـن حريتـه و تطوره من كل الجوانب . و يستخدمها المؤلف في هذا الكتاب ـذا المعنى - المترجم.

(1)حركات التمرد الراهنة ، لا سيما حركات الشباب ، مع أ ا تعكس بالـضرورة خصائص الأماكن التي تجري فيها ، فإ ا تبدي في جوهرها هذا الانشغال بالإنـسان و بالناس ككائنات في هذا العالم ، و كذلك في كو م مع العالم – انشغال بـ "مـاذا" و "كيف" هم يعيشون . و في الوقت الذي يحـاكمون فيهـا حـضارة الاسـتهلاك ، ويشجبون البيروقراطيات بشتى أنواعها و يطالبون بتحويل الجامعات (تغـيير الطـابع الجامد لعلاقة الأستاذ و الطالب وضع تلك العلاقة في سياق الواقع) يقترحون تغـيير الواقع نفسه حتى يمكن تجديد الجامعات و مهاجمة الأنظمة القديمة و إقامة مؤسسات في محاولة لتثبيت الناس كـ "فاعلين" للقرارات . ان جميع هذه الحركات تعكس أسلوب عصرنا الذي هو أنثروبولوجي، أكثر من كون الإنسان قطب الرحى في كل شيء ، و أنه الغرض الأسمى في هذا الكون .

اليأس التام . فالنضال من أجل "الأنسنة"، من أجل تحرير العمـال و التغلـب علـى "الاغتراب" و تأكيد مكانة الناس كأشخاص سيكون غير ذي معنى [ا ـو تم الإقـرار

بالتجرد من الإنسانية كمهمة تاريخية] . و النضال ممكن فقط لأن التجرد من الإنسانية ، على الرغم من كونه حقيقة تاريخية ملموسة ، ليس مصيرا محتوما، لكن نتاجا لنظـام غير عادل يولد العنف في المُضطهدين ، و يجرد ، بدوره ، المضطهدين من إنسانيتهم .

وضع المضطهدين "الأقل إنسانية" ، سيدفع إن عاجلا أم آجلا ، إلى النضال ضد مـن جعلوهم كذلك ، لأن هذا الوضع هو تشويه [للزعم] بأ م أكثر إنسانية . و يـتعين على المضطهدين– كي يكون لنضالهم معنى – ألاّ يتحولـوا بـدورهم ، في سـعيهم لاستعادة إنسانيتهم (وهي طريقة أخرى لاعادة خلقها) إلى مضطهدين للمضطهدين ، بل أن يستردوا آدمية الطرفين [المضطهدين و المضطهدين].

هذه ، إذاً ، هي المهمة الإنسانية العظمى و التاريخية للمضطهدين : تحرير أنفـسهم و تحرير مضطهديهم أيضا . فالمضطهدون الـذين يمارسـون القمـع و الاسـتغلال و الاغتصاب بحكم ما يملكون من سلطة ، لا يستطيعون إيجاد القوة في هـذه الـسلطة لتحرير المضطهدين أو تحرير أنفسهم ؛ إذ أن السلطة التي تنبع من ضعف المـضطهدين ستكون قوية بما فيه الكفاية لتحرير الطرفين . و أيـة محاولـة "لتخفيـف" سـلطة المضطهدين ، مراعاة لضعف المضطهدين ، تتجلى تقريبا على الدوام في شكل كـرم و سخاء زائفين . و في الواقع ، لا تتعدى المحاولة ذلك أبدا . و يتحتم على المضطهدين ، من أجل أن تتوفر لهم الفرصة للتعبير عن "كرمهم و سخائهم" ، أن يكرسوا الظلـم أيضا . فوجود نظام اجتماعي جائر هو الينبوع الدائم لهذا "السخاء" ، الذي يتغـذى على الموت و اليأس و الفقر . لهذا السبب يتهور الذين "يوزعون" هذا الكرم الزائـف لدى أبسط ـديد لمصدره .

يتكون الكرم الحقيقي بالتحديد من الكفاح للقضاء على الأسباب التي تغذّي و تنمي

الإحسان الزائف . فالإحسان الزائف يقّيد الخائفين و المقهورين و "الـذين لفظتـهم الحياة" من مد أيديهم المرتعشة . أما الكرم الحقيقي فيكمن في السعي لجعل هذه الأيدي – أيدي أفراد أو أيادي شعوب بأكملها – تمتد أقل فأقل في إبتهال و تضرع ، حـتى تصبح أكثر إنسانية تعمل لتغيير العالم .

إلاّ أن هذا الدرس و التدريب يجب أن يأتي من المضطهدين أنفسهم و من أولئك الذين يتضامنون حقا معهم . سيقومون كأشخاص أو كشعوب ، من خلال نضالهم لاستعادة إنسانيتهم ، بمحاولة استعادة الكرم الحقيقي . فمن هـم الأفـضل اسـتعدادا مـن المضطهدين لفهم المعنى الفظيع لمجتمع جائر و قمعي ؟ من هم الذين يعانون أكثر مـن المضطهدين من آثار الاضطهاد ؟ من يستطيع فهم ضـرورة التحـرر أفـضل [مـن المضطهدين] ؟ إنهم لن ينالوا هذا التحرر بالصدفة ، بل عبر ممارسة سعيهم له ، عـبر إدراكهم لضرورة النضال من أجله . و سيشكل هذا النضال ، في الواقع – بـسبب الهدف الذي يحدده له المضطهدين – عملية محبة مقابل انتفاء المحبة التي تكمن في قلب العنف الذي يمارسه المضطهدون – إنتفاء المحبة حتى و إن غُلفّت بكرم زائف .

و لكن غالبا ما يجنح المضطهدون ، في المرحلـة الأولى للنـضال ، إلى أن يـصبحوا مضطهدين أنفسهم أو "مضطهدين فرعيين" ، بدلا من الـسعي إلى التحـرر . فبنيـة تفكيرهم ذاتها قد تطبعت بتناقضات الوضع الوجودي الملموس الذي شكلهم . مثلهم الأعلى أن يكونوا رجالا ، و لكن كي يكون المرء رجلا لا بد له ، بالنسبة لهـم ، أن يكون مضطهدا . هذا هو نموذج الإنسانية بالنسبة لهم . و تنبع هذه الظاهرة من حقيقة أن المضطهدين يتبنون ، في لحظة معينة من تجربتهم الوجودية ، موقـف "الإلتـصاق" بالمضطهد .لا يستطيعون ، في ظل تلك الظروف ، "التفكير" به بوضوح كاف يمكنهم

من جعل وجوده شيء فعلي خارج الذهن – أي اكتشافه "خارج" ذاتهم . هذا لا يعني بالضرورة أن المضطهدين لا يدركون أنهم مسحوقون . و لكن إدراكهم لأنفسهم بأنهم مضطهدون يشوبه خلل بفعل "انغماسهم" في واقع الاضطهاد . و عند هذا الحد من إدراكهم لأنفسهم بأنهم نقيض المضطهدين فإن ذلك لا يعني إنهم منغمسون في النضال للتغلب على التناقض (1) . إنهم قطب لا يتطلع إلى التحرر ، بل إلى الاقتران بالقطب المضاد .

في هذا الوضع لا يرى المضطهدون "الإنسان الجديد" على أنه الإنسان الذي سيولد من حل هذا التناقض عندما يتراجع الاضطهاد أمام التحرر . إن الإنسان الجديد ، بالنسبة لهم ، هو أنفسهم وقد أصبحوا مضطهدين . فرؤيتهم إلى الإنسان الجديد هي رؤية فردية ، و لا يتوفر لهم – بسبب اقترانهم بالمضطهد – الإدراك و الوعي بأنهم أشخاص أو أعضاء في طبقة مضطهدة . و هم لا يريدون إصلاحا زراعيا كي يصبحوا أحرارا ، بل من أجل أن يحصلوا على أراض و من ثم يصبحون ملاّك أراضي – أو بكلام أدق أسيادا على عمال آخرين . إن من النادر أن تجد عاملا تتم "ترقيته" إلى ملاحظ عمال و لا يصبح أكثر تسلطا و جورا من المالك نفسه على رفاقه السابقين ؛ و ذلك لأن سياق وضع الفلاح ، أي الاضطهاد ، يظل دون تغيير . فملاحظ العمال ، في هذا المثال ، يضطر كي يحافظ على وظيفته أن يكون شديدا بمستوى صاحب الأرض – لا بل أكثر . و هكذا تتضح فرضيتنا السابقة التي تقول إن المضطهدين يجدون في المضطهد ، خلال المرحلة الأولى من نضالهم ، نموذجهم لـ "الرجولة" .

لا بد حتى للثورة ، التي تقوم بتغيير وضع اضطهاد ملموس بإرسائها عملية تحرر ، من مواجهة هذه الظاهرة . إن العديد من المضطهدين الذين يشاركون بشكل مباشر أو

غير مباشر بالثورة يريدون – و قد تطبعوا بخرافات النظام القديم – أن يجعلــوا منــها ثور م الخاصة .

(1)تعبير "التناقض"،كما هو مستخدم في هذا الكتاب، يعني النــزاع الجدلي بين قوى اجتماعية متعارضة المترجم

لا بد من دراسة و تفحص "الخوف من الحرية" الذي يصيب المضطهدين (1) ، ذلــك الخوف الذي قد يقودهم أيضا إلى الرغبة في لعب دور المضطهد أو يــشدهم إلى دور المضطهدين . و أحد العناصر الرئيسية للعلاقة بين المضطهد و المضطهد هــو الإيعــاز (Prescription) .و يمثل كل إيعاز قيام شخص بفرض "اختياره" على شخص آخر ، و تحويل وعي الشخص الموعز إليه إلى وعي يتماشى ويتطابق مع وعي الشخص الذي يقوم بالإيعاز . و هكذا ، يكون سلوك المضطهد سلوكا موعزا به ، يتبع ، كما هــو الحال ، توجيهات المضطهد .

و يصبح المضطهدون ، و قد استلهموا صورة المضطهد و تبنوا توجيهاتــه ، يخــافون الحرية . فالحرية تتطلب منهم التخلص من هذه الصورة و الاستعاضة عنها بالاستقلال الذاتي و المسؤولية . والحرية يتم الحصول عليها بالغزو ، و ليس كهبة أو هديــة ، و يجب السعي إليها باستمرار و بشكل مسؤول . و الحرية ليست مثلا أعلــى يوجــد خارج الإنسان ، كما أ ا ليست فكرة تحولت إلى خرافة. إ ا الحالة التي لا غنى عنــها في السعي لاستكمال الإنسان .

يتطلب من الناس للتغلب على حالة الاضطهاد أن يتعرفوا بشكل انتقادي أولاً علــى أسبا ا ، حتى يتمكنوا – بالعمل الهادف إلى التغيير – من خلق وضع جديد ، يجعل من

الممكن السعي إلى تحقيق إنسانية أكثر اكتمالا . إلاّ أن النضال من أجل إنسانية أكثـر اكتمالا يبدأ بالفعل من خلال النضال الحقيقي لتغيير الوضع . و على الرغم مـن أن حالة الاضطهاد ، و هي "كلية" مجردة من الإنسانية و تجرد من الإنسانية ، و تـؤثر على كل من المضطهدين و أولئك الذين يضطهدونهم ، فإن المضطهدين هم من يجـب أن يخوض النضال بإنسانيتهم المقموعة نيابة عن الطرفين من أجل تحقيق إنسانية أكثـر اكتمالا . فالمضطهد الذي هو مجرد من الإنسانية ؛ لأنه يجرد الآخرين من إنسانيتهم ، عاجز عن قيادة هذا النضال .

الاّ أن المضطهدين ، الذين تكيفوا مع بنية السيطرة التي غرقوا فيها و استسلموا لهـا ، سيتحرجون من خوض النضال من أجل الحرية ما داموا يشعرون بعدم القدرة علـى الإقدام على المخاطرة التي يتطلبها ذلك النضال . بالإضافة إلى ذلك ، فإن نضالهم من أجل الحرية لا يهدد المضطهدين فقط ، بل أيضا رفاقهم الذين يخـافون مـن وقـوع اضطهاد أشد . و عندما يكتشفون في داخلهم الحنين و التطلع إلى التحرر ، يـدركون أن بالإمكان تحويل هذا الحنين إلى واقع فقط عندما يستيقظ الحنين ذاتـه في نفـوس رفاقهم . و لكنهم سيرفضون - ما دام الخوف من الحرية يسيطر علـيهم- مناشـدة الآخرين أو الاستماع إلى نداءات الآخرين ، أو حتى نداءات ضمائرهم .

(1)يمكن العثور أيضا على هذا الخوف من الحرية في المضطهدين ، و لكن ، كما هـو واضح ، بشكل آخر . فالمضطهدون يخافون من تبني الحرية ، أما المضطهدون فيخافون من خسارة "حرية" ممارسة الاضطهاد .

انهم يفضلون العصبوية على الرفاقية الحقيقية ، و يفضلون أمان التكيف مع وضـعهم "غير الحر" ، على الشراكة الخلاقة وليدة الحرية ، و حتى على السعي لتحقيق الحريـة

ذا ا .

يعاني المضطهدون من ازدواجية تقبع في دواخلهم . فهم يكتشفون أ م لا يستطيعون العيش بشكل حقيقي بدون حرية ، و مع ذلك فإ م يخافو ا ، رغم رغبتهم في الوجود الحقيقي . إ م يجمعون في الوقت ذاته بين أنفسهم و المضطهد الذي استلهموا وعيه . و الصراع يكمن في الاختيار بين أن يكونوا أنفسهم كلية ، أو أن يكونوا منقسمين مجزأين ؛ بين أن يلفظوا المضطهد القابع في داخلهم أو ألاّ يلفظوه ؛ بين التضامن الإنساني و الاغتراب ؛ بين اتباع الأوامر و الايعازات أو التمتع بالاختيار ؛ بين أن يكونوا متفرجين أو "لاعبين" ؛ بين العمل أو الوهم بأ م يعملون من خلال عمل من يضطهدو م ؛ بين الجهر بالقول أو الصمت ، مشلولة قدر م على الخلق و إعادة الخلق ، و"مخصية" قدر م على تغيير العالم . هذه هي معضلة المضطهدين المأساوية التي يجب على التعليم أن يأخذها في الحسبان .

يقدم هذا الكتاب بعض الجوانب التي أطلق عليها المؤلف اسم "بيداجوجيا المضطهدين"،

وهي بيداجوجيا يجب أن تتشكل و تتكامل مع، و ليس من أجل المضطهدين (أفرادا أو شعوبا) في نضالهم المستديم لاسترداد إنسانيتهم . و هي بيداجوجيا تجعل الاضطهاد و أسبابه موضع تفكير المضطهدين ، و سينجم عن ذلك التفكير انغماسهم الضروري في النضال من أجل تحررهم ، وستصنع هذه البيداجوجيا و تعاد صناعتها خلال النضال .

المشكلة المركزية في هذا هي : كيف يمكن للمضطهدين ، ككائنات مجزأة و غير

حقيقية ، المشاركة في إعداد بيداجوجيا تحررهم ؟ إن بوسعهم المساهمة في أن يكونـوا "قابلة" لتوليد البيداجوجيا التي تؤدي إلى تحـررهم فقـط لـدى اكتـشافهم أ ـم "يستضيفون" المضطهد في أنفسهم . و لكن ستستحيل هذه المساهمة ما داموا يعيشون في ازدواجية يتعادل فيها "ان تكون" مع "أن تكون مثل" ، و يتعادل "أن تكون مثـل" مع "أن تكون مثل المضطهد" . إن بيداغوجيا المضطهدين هـي أداة لتمكينـهم مـن اكتشاف - بشكل انتقادي- أ م و من يضطهدهم مظاهر للتجرد من الإنسانية .

و هكذا ، فإن التحرر مثله مثل عملية الولادة ، و هو عملية ولادة مؤلمة . الإنـسان الذي يتمخض عنها هو إنسان جديد ، قابل للحياة فقط في حالة استبدال التناقض بين المضطهد و المضطهد بـ "أنسنة" كل الناس . بكلام آخر إن حل هذا التناقض يتم من خلال المخاض الذي يجلب إلى هذا العالم الإنسان الجديد الذي لم يعد لا مضطهدا ولا مضطهدا ، بل إنسانا يسعى إلى تحقيق حريته .

لا يمكن تحقيق هذا الحل بشكل مثالي ؛ بل يجب على المضطهدين ، كي يتمكنوا مـن خوض النضال من أجل تحررهم ، أن يدركوا واقع الاضطهاد ليس كعالم مغلق لا مخرج منه ، بل كوضع يقيد بإمكا م تغييره . هذا الإدراك ضروري ، و لكنه ليس شـرطا كافيا للتحرر ، إذ يجب أن يصبح قوة محركة للعمـل التحـرري . كمـا أن قيـام المضطهدين باكتشاف أ م يتواجدون في علاقة جدلية مع المضطهدين ، كنقيض لهم – أي أن المضطهدين لا يمكن أن يوجدوا بدو م – يشكل ، بحد ذاتـه، تحـررا . (1) فالمضطهدون يستطيعون التغلب على التناقض الواقعين فيه فقط، عندما يحملهم هـذا الإدراك على المشاركة في النضال من أجل تحرير أنفسهم .

و ينطبق القول ذاته على المضطهد الفردي كشخص . فقد يسبب اكتـشافه لنفـسه

كمضطهد الكثير من الآلام و المعاناة ، و لكنه لا يؤدي بالضرورة إلى التضامن مع المضطهدين . و لن يفيد تسويغ شعوره بالذنب و تبريره من خلال معاملة أبوية للمضطهدين ، مع إبقائهم طيلة الوقت في حالة تبعية . إن التضامن يتطلب أن يلج المرء إلى وضع أولئك الذين يتضامن معهم . إنه موقف جذري . و كما يؤكد هيجل (2) إذا كان ما يميز المضطهدين هو خضوعهم إلى وعي السيد ، فإن التضامن الحقيقي مع المضطهدين يعني القتال إلى جانبهم لتغيير الواقع الموضوعي الذي جعل منهم "كائنات من أجل الغير" . يتضامن المضطهد مع المضطهدين فقط عندما يتوقف عن النظر إليهم كفئة مجردة ، و يراهم كأشخاص جرى التعامل معهم بشكل ظالم ، حرموا من صوتهم ، و جرى خداعهم خلال عملية بيعهم لعملهم ، عندما يتوقف عن القيام بحركات فردية عاطفية تدعي الصلاح، و يقوم بالمجازفة بعمل يعبر عن المحبة . يوجد التضامن الحقيقي فقط في وفرة عملية المحبة هذه ، في طابعها الوجودي ، في ممارستها . و إنه لمهزلة أن يؤكد المرء أن الناس أشخاص ،أنه يجب أن يكونوا كأشخاص أحرارا ، و مع ذلك ألاّ يفعل شيئا ملموسا ليجعل هذا التأكيد واقعا .

بما أن التناقض بين المضطهد و المضطهد ينشأ في وضع محدد ، فإن حله لا بد أن يكون قابلاً للتحقق منه بشكل موضوعي . و بالتالي ، فإن المطلب الجذري – بالنسبة للشخص الذي يكتشف أنه مضطهد وكذلك للمضطهدين – هو ضرورة تغيير الوضع المحدد الذي يولّد الاضطهاد .

إن التقدم بهذا المطلب الجذري الخاص بتغيير الوضع موضوعيا ، و محاربة عدم الحركة الذاتية، الأمر الذي سيحرف الإقرار بالاضطهاد إلى انتظار صبور لاختفاء الاضطهاد من تلقاء نفسه ، لا يعني نبذ دور الذاتية في النضال من أجل تغيير الهياكل . بل على

العكس ، إن المرء لا يستطيع تصور و إدراك "الموضوعية" من غير "الذاتية" (3) . فلا يمكن لواحدة أن توجد دون الأخرى ، كما لا

(1) راجع جورج هيجـل ، The Phenomenology of Mind (نيويـورك ، 1967) ص 236-237 .

(2) في تحليله للعلاقة الجدلية بين وعي السيد و وعي المـضطهد يقـول هيجـل: "الأول، مستقل و طبيعته الأساسية أن يكون لذاته ، والآخر ، تابع و جوهره هو الحياة أو الوجود لصالح الآخر. الأول هو السيد أو اللورد ، و الأخير هو العبد" . المـصدر ذاته ، ص 234 .

(3) الموضوعية و الذاتية : مقولتان فلسفيتان ، تستخدمان لتفسير نـشاط النـاس العملي و المعرفي . فالإنسان يتميز عن الحيوان بأنه لا يستأثر فقط بأشياء الطبيعـة،بل يحورها أيضا و يتفاعل معها.و في هذا التفاعل يمكن فصلهما عن بعضهما البعض . إن فصل الموضوعية عن الذاتية ، و إنكار الأخيرة عند تحليل الواقع أو التعامل معه ، ممـا يسفر عن ذاتية تؤدي إلى مواقف تؤكد بأن لا وجود للأشياء خارج الذهن ، بل توجد في الذهن كما يراها المرء ، يؤدي إلى إنكار العمل نفـسه و ذلـك بإنكـار الواقـع الموضوعي . المطروح هنا ليس الموضوعية أو الذاتية ، و ليس أيضا أهمية علم الـنفس لفهم الحوادث والظواهر الطبيعية و العلمية ، بل الذاتية و الموضوعية في علاقة جدلية دائمة .

إنكار أهمية "الذاتية" في عملية تغيير العالم و التاريخ هو عمل ساذج و تبسيطي . إنـه إقرار بالمستحيل : عالم بلا ناس . و هذا الموقف الذي يؤمن بوجود الأشـياء خـارج

الذهن و تكون صورها التي في الذهن مطابقة، هو موقف ساذج بقدر سذاجة الموقف "الحسي" الذي يقول بأن المعرفة أو الخبرة مفيدة بحسب ما تعتبره النفس في توهمهـا و حسبا ا وأن "لا حق في الحقيقة" ، و الذي يفترض وجود ناس بلا عـالم . فالعـالم و الناس لا يوجدون بمعزل عن بعضهم البعض ، بل يوجدون في تفاعل دائـم .لم يؤيـد ماركس مثل هذا الفصل ، كما لم يؤيده أي مفكر انتقادي واقعي آخر . إن ما أنتقده ماركس و دمره بشكل علمي لم يكن "الذاتية" ، بل المبدأ القائل بأن المعرفة أو الخـبرة مفيدة بحسب ما تعتبره النفس في توهمها و حسبا ا و أن "لا حـق في الحقيقـة" ، و كذلك المناداة بضرورة علم النفس لفهم الظواهر الطبيعية و العلمية (لزوميـة علـم النفس) . و كما أن الواقع الاجتماعي الموضوعي موجود ليس بالصدفة ، كـذلك لا يتم تغييره بالصدفة . و إذا كان الناس هم من يصنع الواقع الاجتماعي (الذي في حالة "عكس الممارسة" يرتد إليهم و يكيفهم) فإن تغيير ذلك الواقع هو مهمة تاريخية ، مهمة الناس .

الواقع الذي يصبح واقعا قمعيا يسفر عن التمييز المتعارض بـين النـاس:مـضطهدين ومضطهدين. و لا بد للمجموعة الثانية ، التي مهمتها النضال لتحريرهم معا بالاشتراك مع من يظهرون تضامنا يكون الإنسان – لا الأشياء الطبيعية – هو الجانب النشيط و الفعال . و هذه الفاعلية هي التي تجعل الإنسان ذاتا، تؤثر عبر أدوا ـا الطبيعيـة و الاصطناعية على الظاهر و الأشياء و العمليات الطبيعية التي تغدو موضوعا لنشاطها . وقد أكدت المثالية ، بما في ذلك هيجل ، على فاعلية الذات ، و لكنـها ردت هـذه الفاعلية إلى نشاط الوعي ، وجعلت الموضوع تابعا له . و لكن الإنسان ليس موجودا متعاليا على الحس ، و إنما هو كائن واقعي مادي . وهو يؤثر في الموضوع تأثيرا عمليا

ماديا حسيا ، فيغيره و يحوره . كما أن نشاط الذات مشروط بالعـالم الموضـوعي ، بالقوانين التي أدركها الإنسان . و تشكل عملية المعرفة جانبا ضروريا من التفاعل بين الذات و الموضوع ، فليس بوسع الإنسان أن يغير الموضوع إذا لم تكن لديـه معرفـة عنه. و لكن لا يمكن للفرد المنعزل أن يكون ذاتا للنشاط الهادف إلى معرفة العـالم و تحويره . فالإنسان يغدو ذاتا بمقدار استخدامه لما خلقه المجتمع من أدوات عمل و لغـة ومعارف متكدسة . (لمزيد من المعلومات راجع : Dictionary of Philosophy – دار التقدم ، موسكو) 1967 المترجم

حقيقيا ، من اكتساب وعي انتقادي بالاضطهاد عبر ممارسة هذا النضال . و إحـدى أخطر العقبات في طريق تحقيق التحرر هي أن الواقع القمعي "يمتص" أولئك الـذين في داخله و من ثم يعمل على طمس ضمائر الناس . (1) فالإضطهاد يعمل ، من الناحية الوظيفية ، على "التدجين" . و يتعين على المرء كي يفلت من الوقوع ضحية لسلطته ، أن يخرج منه و يرتد عليه . و يمكن أن يتم ذلك فقط بإسلوب الممارسة : الـتفكير و التعامل مع العالم من أجل تغييره يقول كارل ماركس و فريدريك انجلز إن "مواجهـة الاضطهاد دائما بمزيد من الاضطهاد إضافة إلى هيمنة وعي قمعي يـؤدي إلى انتـشار الأكاذيب ، و حتى بشكل فظيع لدى إعلا نا على نطاق واسع ." (2)

و يتطابق جعل "الاضطهاد أكثر قمعية و جورا بإضافة المزيد من إدراك الاضطهاد" مع العلاقة الجدلية بين الذاتي و الموضوعي . ففي إطار هذا الاعتماد المتبادل فقط تـصبح الممارسة الحقيقية ممكنة ، و التي من المستحيل بدو نا حل التناقض بـين المـضطهد و المضطهد . و يتعين على المضطهد ، كي يحقق هذا الهدف ، أن يواجه الواقع بـشكل انتقادي ، و جعله ، في الوقت ذاته ، محسوسا خارج الذهن و التعامـل معـه ، إذ أن

مجرد إدراك الواقع و عدم اتباع ذلك بهذا التدخل الانتقادي لن يؤدي إلى تغيير الواقع الموضوعي –بالضبط لأنه ليس إدراكا حقيقيا . هذه حالة إدراك ذاتي محض من قبـل امرىء يتخلى عن الواقع الموضوعي و يقوم بخلق بديل زائف .

و يحدث نوع مختلف من الإدراك الزائف، عندما يكون تغيير في الواقـع الموضـوعي سيهدد المصالح الفردية أو الطبقية لمن يتوصل إلى هذا الإدراك . في الحالـة الأولى ، لا يحدث تدخل انتقادي في الواقع لأن ذلك الواقع هو واقع وهمي . و في الحالة الثانية لا يوجد تدخل لأن التدخل يتعارض مع المصالح الطبقية لمن يتوصل إلى ذلك الإدراك . و في هذه الحالة يجنح من يتوصل إلى هذا الإدراك إلى التصرف بـ "اضطراب و عصبية" . إلا أن الحقيقة قائمة موجودة ، و لكن كلا من الحقيقة و ما قد ينجم عنها قد يكون مجحفا له . و من ثم يصبح من الضروري ليس بالضبط إنكار الحقيقة ، بـل "رؤيتـها بشكل مختلف" . و يتطابق هذا التسويغ و التبرير في النهاية ، كأداة دفاعيـة ، مـع المقولة بأن

"(1) يشمل النشاط التحرري بالضرورة لحظة إدراك و إحساس و إرادة و عزم . و هذا العمل يسبق تلك اللحظة و يعقبها ، فهي تعمل بالنسبة له كمقدمة ، في البداية ، ثم تعمل على حدوثه و استمراره في التاريخ . إلا أن نشاط السيطرة لا يعني بالضرورة هذا البعد ، ذلك لأن بنية السيطرة تتم المحافظة عليها من خلال وظيفتها الميكانيكية و غير الواعية ." – نقلا عن دراسة غير منشورة من تأليف خوزيه لويز فيوري ، الـذي تكرم بالسماح لنا بالنقل عنها .

(2) راجع : كارل ماركس و فريدريك انجلـز La Sagrada Familia y otros Escritos (العائلة المقدسة و كتابات أخرى) (المكسيك ، 1962) ص 6 .

المعرفة أو الخبرة مقيدة بحسب ما تعتبره النفس في توهمها و حسبا لها ، وأن "لا حق في الحقيقة" .

والحقيقة التي لا يجري إنكارها و لكن يتم تسويغ صدقها و حقيقتها تفقد أساسها الموضوعي . فهي تكف عن كونها محددة و تصبح خرافة تم اختلاقها للدفاع عن طبقة من توصل إلى ذلك الإدراك .

هنا يكمن أحد أسباب"الممنوعات"و المصاعب (التي ستناقش بإسهاب في الفصل الرابع) التي صممت لاقناع الناس بعدم التدخل في الواقع بشكل انتقادي.فالمضطهد يعرف تمام المعرفة أن هذا التدخل لن يكون لصالحه.إن ما هو في صالحه هو أن يستمر الشعب في حالة خنوع وعجز في مواجهة الواقع الاضطهادي.و ثمة أهمية هنا لتحذير لوكاش إلى الحزب الثوري:"...يجب عليه[الحزب الثوري]،كما قال ماركس، أن يفسر للجماهير أفعالها ، ليس فقط من أجل ضمان استمرار التجارب الثورية للبروليتاريا ، بل أيضا من أجل تنشيط - عن وعي - المزيد من تطور هذه التجارب."(1)

يطرح لوكاش ، بلا شك ، في تأكيده على هذه الضرورة ، قضية التدخل الانتقادي . إن "تفسير للجماهير أفعالها" هو توضيح و تبصير بذلك العمل ، فيما يتعلق بصلته بالحقائق الموضوعية التي حفّزته ، و أيضا بما يتعلق بأهدافه . فكلما كشف الناس عن هذا الواقع الذي كله تحد و الذي سيكون هدف نشاطهم الرامي إلى التغيير ، كلما دخلوا أكثر بشكل انتقادي في ذلك الواقع . و بهذه الطريقة يقومون "عن وعي بتنشيط التطور اللاحق لتجاربهم" . فلن يكون هناك أي نشاط إنساني إذا لم يكن هناك واقع موضوعي ، ولا عالم يكون "اللاأنا" للإنسان و يتحداه ، تماما كما لن يكون

هناك نشاط إنساني لو لم يكن الإنسان "مشروعا" ، لو لم يكن قادرا على تجاوز ذاته و يدرك واقعه و يفهمه من أجل أن يغيره .

تعتمد "الكلمة" و "العمل" في الفكر الجدلي إعتماداً وثيقاً على بعضهما البعض . و لكن "العمل" هو عمل إنساني فقط عندما لا يكون مجرد شغل ، بل الشغل الشاغل ، أي ، عندما لا يكون مفصولا عن الفكر . فالفكر ، الذي هو ضروري و أساسي بالنسبة للعمل ، وارد ضمنيا في المقتضيات التي أوردها لوكاش الخاصة بـ "تفسير للجماهير أفعالها" ، كما أنه وارد في الهدف الذي يعزوه إلى هذا التفسير : "من أجل التنشيط الواعي للتطور اللاحق لتلك التجارب."

إلا أننا لا ننظر إلى هذه الحاجة على أنها تفسير ، بل حوار مع الشعب بشأن عمله و نشاطه. على كل حال ، ليس ثمة واقع يغير نفسه (2)، و الواجب الذي يلقيه لوكاش على عاتق الحزب (راجع : جورج لوكاش ، Lenine (باريس ، 1965) ، ص 62.

(2) يغيب عن المبدأ المادي القائل بأن الأشخاص هم نتاج الظروف و التربية ، و بالتالي فالأشخاص الذين طرأ عليهم تغيير هم نتاج ظروف أخرى و تربية تغيرت ، يغيب عنه أن الأشخاص هم من يغير الظروف ، و أن المربي يحتاج إلى تعليم ." كارل ماركس و فريدريك أنجلز ، Selected Works (الأعمال المختارة) (نيويورك 1968) ، ص 28

الثوري ، "تفسير للجماهير أفعالها" ، يتطابق في الواقع مع تأكيدنا على الحاجة إلى تدخل انتقادي من قبل الشعب ،في الواقع ، عبر الممارسة . و هنا تكمن جذور بيداغوجيا المضطهدين ، التي هي بيداغوجيا الناس المنهمكين في النضال من أجل

تحررهم . و لا بد أن يكون أولئك الذين يـدركون ، أو بـدأوا يـدركون ، بـأ م مضطهدين ، من بين من يصوغون هذه البيداجوجيا و يطورو ا . فـلا يمكـن لأيـة بيداجوجيا تؤدي إلى تحرر حقيقي أن تظل بعيدة عن المضطهدين وذلك بمعاملتهم على أ م مساكين تعساء ، و تقدم لهم نماذج من المضطهدين للاحتذاء ـا و تقليـدها . فالمضطهدون يجب أن يأخذوا من أنفسهم مثالا في النضال من أجل خلاصهم .

إن بيداجوجيا المضطهدين ، التي يحركها كرم إنساني (ليس خيريا) حقيقـي ، تقـدم نفسها على أ ا بيداجوجيا الإنسان . فالبيداغوجيا التي تنطلق من مصالح المـضطهدين الأنانية (أنانية تتخفى وراء كرم الأبوية الزائف) و تحيل المضطهدين إلى محط لأعمالهـا "الإنسانية"و "لإحسا ا" ، هي نفسها تحافظ على الاضطهاد و تجسده.إ ا أداة تجريـد من الإنسانية. لذا ، و كما سبق و أكدنا ، لا يمكن أن تصاغ بيداجوجيا المضطهدين أو تمارس من قبل المضطهدين . قيام المضطهدين بالدفاع عن تعليم يؤدي إلى التحرر ، بل أيضا تطبيقه فعليا سيشكل ليس فقط تنافضا بحد ذاته في التعبير و الأعمال .

و لكن كيف بالإمكان تطبيق بيداجوجيا المضطهدين قبل الثورة إذا كان تطبيق تعلـيم تحرري يتطلب وجود سلطة سياسية و المضطهدون لا يملكون أية سلطة ؟ هذا سؤال في غاية الأهمية ، وجوابه يرد باختصار في الفصل الرابع . و يتوفر جانب من جوانبـه في التمييز بين التعليم النظامي (Systematic Education) الذي يمكن تغييره من قبل السلطة السياسية فقط ، و المشاريع التعليمية (Educational Projects) التي يجب تنفيذها مع المضطهدين خلال عملية تنظيمهم .

هنالك مرحلتان متميزتان لبيداجوجيا المضطهدين بوصفها بيداجوجيا إنسانية تحررية : في المرحلة الأولى يقوم المضطهدون بالكشف عن عالم الاضطهاد و يلتزمون من خلال

الممارسة بتحوير هذا العالم و في المرحلة الثانية ، التي يتم فيها تحول واقع الاضطهاد ، تكف هذه البيداجوجيا عن كونها ملكا للمضطهدين ، و تصبح بيداجوجيا لجميع الناس الذين هم في عملية تحرر دائم . و في كلتي المرحلتين تجري دائما – عبر العمل بعمق – مواجهة ثقافة السيطرة ثقافيا . (1) تحدث هذه المواجهة في المرحلة الأولى ، من خلال التغيير الذي يطرأ على الطريقة التي يدرك فيها المضطهدون عالم الاضطهاد . و في المرحلة الثانية عبر نبذ الخرافات التي تخلق و تتطور في كنف النظام القديم ، والتي تنتاب كالأشباح البنية الجديدة التي يتمخض عنها التحول الثوري .

يتعين على بيداجوجيا المرحلة الأولى أن تعالج مشكلة وعي المضطهد و وعي المضطهد ، يبدو أن هذا هو الجانب الجوهري في الثورة الثقافية التي نادى بها ماو .

مشكلة الأشخاص الذين يمارسون الاضطهاد و الناس الذين يعانون من الاضطهاد . و يجب عليها أن تأخذ في الحسبان سلوكهم ، و نظرتهم إلى العالم و أخلاقياتهم . و ثمة مشكلة خاصة هي إزدواجية المضطهدين : إنهم متناقضون ، كائنات منفصمة ، تشكلت في وضع اضطهاد و عنف ملموس وتعيش فيه .

إن أي وضع يقوم فيه "أ" من الناس موضوعيا باستغلال "ب" من الناس ، أو يعيق سعيه لاثبات نفسه كشخص مسؤول ، هو وضع اضطهاد و قمع . و وضع كهذا يشكل بحد ذاته حالة عنف ، حتى و إن تم "تجميله" بكرم زائف ، و ذلك لأنه يتدخل في وظيفة الإنسان المتعلقة بالوجود والتاريخية التي تسعى لأن يكون إنسانا أكثر اكتمالا . يبدأ العنف مع إقامة علاقة اضطهاد .ولم يحدث في التاريخ على الإطلاق أن بادر المضطهدون بالعنف . كيف لهم أن يكونوا المبادرين ، و هم أنفسهم نتاج للعنف ؟

كيف يمكن لهم أن يناصروا شيئا كان نشوؤه الموضوعي سببا في وجودهم كمضطهدين ؟ فلن يكون هناك مضطهدون لو لم توجد مسبقا حالة عنـف تفـرض اسـتعبادهم وقهرهم.

الذين يمارسون الاضطهاد و الاستغلال و يرفضون الاعتراف بالآخرين، هم من يبادر بالعنف- و ليس أولئك الذين يتعرضون للاضطهاد و الاستغلال و رفض الاعتـراف م . فليس من لا يتمتعون بالمحبة هم من يبادرون بالسخط و ا افاة ، بل هم أولئـك الذين لا يستطيعون حب الآخرين لأ م يحبون أنفسهم فقط . و لـيس العـاجزون ، ضحايا الإرهاب ، هم من يبادر بالإرهاب ، بل من يبطشون، الذين يخلفون بقو م و سلطا م الوضع الملموس الذي يولد "من تلفظهم الحياة" . و ليس ضحايا الاسـتبداد هم من يبادر بالاستبداد و التعسف ، بل هم المستبدون . و ليس المحتقرون هـم مـن يبادر بالكراهية ، بل أولئك الذين يحتقرون الآخرين . و ليس أولئك الذين حرموا من إنسانيتهم هم من ينكر الإنسان،بل هم أولئك الذين حرمـوهم تلـك الإنـسانية (و أنكروا بذلك إنسانيتهم أنفسهم) .

و لا يستخدم القوة من أصبحوا ضعفاء في ظل حكم الأقوياء ، بل الأقويـاء الـذين جردوا [الآخرين] من قو م و فرضوا العجز عليهم .

إلاّ أن المضطهدين يعتبرون على الدوام المضطهدين (من الواضح أ م لا يطلقون عليهم اسم "المضطهدين و لكن يطلقون عليهم – حسب وضعهم إن كانوا من مواطنيهم أم لا – "أولئك الناس" أو "الجماهير الحسودة المـصابة بـالعمى" أو "المتوحـشون" أو "السكان الأصليون" أو "الهدامون") بأ م دائمـو التـذمر و العنـف و "البربريـة" و"التوحش" و"الخبث" عندما يردون على عنف المضطهدين.

و مع ذلك – قد يبدو ذلك غريبا – من الممكن إيجاد لفتة محبة بالتحديد في رد المضطهدين على عنف المضطهدين . فعملية تمرد المضطهدين (و هي عملية فيها من العنف على الدوام قدر العنف الذي يمارسه المضطهدين في البداية) قد تبادر ، عن وعي أو غير وعي ، بالحب . فبينما يحول عنف المضطهدين بين المضطهدين و بين أن يكونوا آدميين كاملين ، فإن رد المضطهدين على هذا العنف يكمن في رغبتهم في السعي لممارسة حقهم في أن يكونوا آدميين . و مثلما يقوم المضطهدون بتجريد الآخرين من إنسانيتهم و يعتدون على حقوقهم يصبحون أنفسهم متجردين من إنسانيتهم . ومع قيام المضطهدين ، الذين يناضلون من أجل أن يصبحوا آدميين ، بالاستيلاء على سلطة المضطهدين المتعلقة بالسيطرة و القمع ، يعيدون للمضطهدين إنسانيتهم التي فقدوها في ممارستهم للاضطهاد .

إن المضطهدين وحدهم قادرون - بتحرير أنفسهم - على تحرير المضطهدين . فالمضطهدون بوصفهم طبقة مضطهدة ، لا يستطيعون تحرير الآخرين أو تحرير أنفسهم . لذا ، فإن من الضروري أن يخوض المضطهدون النضال لحل التناقض الذي يعيشونه . و سيتم حل التناقض بظهور الإنسان الجديد : لن يكون مضطهدا أو مضطهدا ، بل إنسانا في طور التحرر . و إذا كان هدف المضطهدين أن يصبحوا آدميين كاملين ،فإ م لن يحققوا هدفهم بمجرد عكس شروط التناقض ، أي ببساطة بالانتقال من قطب إلى آخر .

قد يبدو هذا تبسيطا ، و لكنه ليس كذلك . فحل التناقض بين المضطهدين و المضطهدين يعني في الواقع ، اختفاء المضطهدين كطبقة مهيمنة . و لكن القيود التي يفرضها المضطهدون السابقون على مضطهديهم حتى لا يتمكنوا من استعادة مكانتهم

السابقة ، لا تشكل اضطهادا . فالعمل يصبح اضطهادا فقط عندما يمنع الناس من أن يكونوا أكثر اكتمالا إنسانيا . و بالتالي فإن هذه القيود الضرورية لا تعني بحد ذاتها أن من كانوا مضطهدين بالأمس قد أصبحوا اليوم مضطهدين. فالأعمال التي تحول دون عودة النظام القمعي لا تمكن مقارنتها بتلك الأعمال التي تخلق ذلك النظام و تحافظ عليه . و لا يمكن مقارنتها بتلك التي تستخدمها قلة من الأشخاص لحرمان الغالبية من حقهم في أن يكونوا آدميين .

و مع ذلك ، يفقد النضال بعده الإنساني في اللحظة التي يتصلب فيها النظام الجديد، و يتحول إلى "بيروقراطية" مهيمنة (1) ، و لا يعود من الممكن الحديث عن التحرر . لذا كان إصرارنا على أن الحل الصحيح للتناقض بين المضطهدين و المضطهدين، لا يكمن في تبادل المواقع ببساطة ، في الانتقال من قطب إلى آخر ، كما أنه لا يكمن في إحلال مضطهدين جدد محل المضطهدين القدامى ليواصلوا اضطهاد المضطهدين – كل ذلك بإسم تحريرهم .

(1)يجب عدم المساواة بين هذا التصلب و القيود التي يجب فرضها على المضطهدين السابقين بهدف منعهم من استعادة النظام القمعي . بل هو يتعلق بالثورة التي تصبح راكدة و تتحول ضد الشعب ، مستخدمة جهاز الدولة البيروقراطي القمعي القديم (الذي كان من المفروض أن يقضى عليه بشكل حاسم ، كما أكد ماركس على الدوام)

و لكن حتى عندما يتم حل التناقض بشكل صحيح من خلال إيجاد وضع جديد يقيمه العمال الذين تحرروا ،لا يشعر المضطهدون السابقون بأنهم قد تحرروا.بل على العكس، يعتبرون بصدق أنهم مضطهدون . فأي وضع غير وضعهم السابق – و قد تطبعوا

بتجربة اضطهادهم للآخرين- يبدو لهم كأنه اضطهاد . في وضعهم السابق كانوا يستطيعون تناول الطعام و ارتداء الثياب و انتعال الأحذية و يتلقون العلم و يسافرون و يستمعون إلى موسيقى بيتهوفن ، بينما ملايين الناس لم تكن تأكل ، و لم يكن لديها ملابس أو أحذية ، و لم تتعلم أو تسافر ، ناهيك عن الاستماع إلى موسيقى بيتهوفن . و بالتالي ، فإن أية قيود على طريقة الحياة هذه بإسم حقوق المجتمع، ستبدو، للمضطهدين السابقين اعتداء هائل على حقوقهم الشخصية – رغم أنهم لم يحترموا ملايين الناس الذين عانوا و ماتوا من الجوع و الألم و الأسى و اليأس.كلمة "الآدميين" أو"الكائنات الإنسانية"، بالنسبة للمضطهدين ، تنطبق عليهم فقط . أما الآخرون فهم مجرد "أشياء".وبالتالي يوجد حق واحد بالنسبة لهم: حقهم في العيش بسلام ، مقابل حق المضطهدين -الذي لا يعترف به دائما-في الوجود على قيد الحياة فقط.و هم يتقدمون بهذا التنازل فقط لأن وجود المضطهدين شيء ضروري لوجودهم أنفسهم .

إن هذا السلوك ، هذه الطريقة في فهم العالم و الناس (التي تجعل المضطهدين، بالضرورة ، يقاومون إقامة نظام جديد) تفسرها تجربتهم كطبقة مهيمنة . فإقامة وضع عنف و اضطهاد يولّد طريقة حياة و سلوك متكاملة بالنسبة لأولئك الذين في هذا الوضع – المضطهدين و المضطهدين على حد سواء ، كلاهما غارق في هذا الوضع و كلاهما يحمل بصمات الاضطهاد . و يكشف تحليل الأوضاع الوجودية للاضطهاد أن بدايتها تكمن في عملية العنف – التي يبادر بها من يملكون السلطة . و هذا العنف،كعملية يجري تكريسه من جيل إلى جيل من المضطهدين ، الذين يتوارثونه ويتشكلون في جوه . و يخلق هذا الجو لدى المضطهدين وعيا تملكيا قويا – إمتلاك العالم و الناس . و لا يستطيع وعي المضطهدين فهم نفسه بمعزل عن التملك المادي

الملموس و المباشر للعالم و الناس – ولا حتى البقاء في الوجود .يقول اريك فروم (1) عن هذا الوعي إنه "سيفقد كل صلة بالعالم" من غير مثل هـذا التملـك . . فـوعي المضطهدين يجنح إلى تحويل كل شيء يحيط به إلى هدف لسيطرته . الكرة الأرضية و الأملاك و الإنتاج و إبداع الإنسان ، و الناس أنفسهم و الزمن و كل شيء يجـري اختزاله إلى وضعية أشياء تحت تصرفه .

(1)اريك فروم (Eric Fromm) 1900 -1980 :عالم تحليل نفسي أمريكي من أصل ألماني . دعا إلى تطبيق التحليل النفسي على النشاط الاجتماعي انطلاقا مـن قـراءة إنسانية لكارل ماركس . من أهم كتبه : "الخوف من الحرية (1941) و "فن المحبـة" (1956) – المترجم .

يقوم المضطهدون ، في حماسهم الجامح للتملك ، بتطوير قناعة بأن بوسعهم تحويل كل شيء إلى أشياء خاضعة لقو م الشرائية . و هذا ما يوضح مفهومهم المـادي البحـت للوجود . المال هو مقياس كل الأشياء ، و الربح هو الهدف الأساسي . و الأمر الذي يستحق الاهتمام بالنسبة للمضطهدين هو الحصول على المزيد – دائما المزيد – حـتى على حساب حصول المضطهدين على أقل ، أو عدم حصولهم على أي شيء . الوجود بالنسبة لهم يعني التملك و أن يكونوا طبقة "الملاك" .

و لا يستطيع المضطهدون ، بوصفهم المنتفعين من حالة الاضطهاد ، إدراك أنه إذا كان "التملك" يشكل أحد شروط "الوجود" ، فهو بالتالي شرط ضروري لكل الناس . لهذا السبب فإن كرمهم كرم زائف . فبالنسبة لهم "الإنسانية" هي "شيء" ، يملكو ا كحق خالص مقصور عليهم ، كأملاك ورثوها . و لا تبدو لوعي المـضطهدين أن عمليـة إضفاء إنسانية على "الآخرين"، على الشعب، هي سعيا لتحقيق آدمية متكاملة ، بـل

عملا هداما .

و لا يتصور المضطهدون أن احتكارهم لـ "مزيد من التملك" هو امتياز يجرد الآخرين من إنسانيتهم ، كما يجردهم هم أيضا . ا م لا يستطيعون رؤية أ م في سعيهم الأناني لـ "التملك" كطبقة ملاّك ، يختنقون في ممتلكا م و أ م لم يعودوا موجودين ؛ إ ـم مجرد مالكين .ان "الحصول على المزيد" ، بالنسبة لهم ، هو حق غير قابل للتـصرف ، حق حصلوا عليه بـ "جهدهم" ، "بشجاعتهم و إقدامهم على ا ازفة" . و إذا كـان الآخرون لا يملكون المزيد فذلك لأ م عاجزون وكسالى – و الأسوأ من كل ذلك هو جحودهم غير المبرر تجاه "اللفتات الكريمة" من الطبقة المسيطرة. و لأ م بالتحديـد "جاحدون"و "حسودون"، ينظر إليهم على أ م أعداء محتملون لا بد من مراقبتهم .

لا يمكن أن يكون الأمر على نحو آخر . فإذا كان إضفاء الإنسانية على المـضطهدين يشكل عملا هداما ، فتحررهم هو كذلك . من ثم تبرز ضرورة السيطرة المستمرة . و كلما ازدادت سيطرة المضطهدين على المضطهدين ، كلمـا ازداد تغـييرهم لهـم إلى "أشياء" لا حياة واضحة فيها. و توجه وعي المضطهدين في تلهفه على "التملـك" إلى تحويل كل شيء و كل شخص يواجهه إلى "جماد" ، ينطابق مع الـ عة السادية .

يقول اريك فروم : "إن الشعور باللذة المستمد من السيطرة الكاملة على شـخص آخر (أو مخلوقات حيوانية أخرى) هو جوهر الـ عة السادية . و الأسـلوب الآخـر لصياغة هذه الفكرة هو قوله إن هدف السادية هو تحوير الإنسان إلى "شيء"،تحـوير الشيء الحي إلى شيء لا حياة فيه، و ذلك لأنه بالسيطرة الكاملة و المطلقة على ما هو حي يفقد المرء صفة أساسية من صفات الحياة ، الحرية . (1)

إن الحب السادي هو حب شاذ ، حب الموت و ليس حب الحياة . و إحدى سمـات وعي.

(1)راجع : اريك فروم ، The Heart of Man (نيويورك ، 1966) ، ص32.

المضطهدين و نظرته إلى العالم المحبة للموت هي سادية . و بما أن وعـي المـضطهدين يحاول ، في سعيه إلى السيطرة ، عرقلة نزعة البحث و القلق و القوة الخلاقة التي تميـز الحياة ، فإنه يقتل الحياة . و يلجأ المضطهدون أكثر فـأكثر إلى اسـتخدام العلـم و التكنولوجيا كأدوات جبارة ، بلا أدنى شك ، لخدمة هدفهم : الإبقاء علـى النظـام القمعي من خلال التلاعب و الغش و كذلك السيطرة .(1) فالمضطهدون ، باعتبارهم "أهدافا" ، "أشياء"،لا مآرب لهم سوى تلك التي يحددها لهم مضطهدوهم .

و مع وجود السياق السابق ، تبرز قضية أخرى ذات أهمية لا يمكن إنكارها : حقيقـة أن بعض أعضاء الطبقة المضطهدة ينضمون إلى المضطهدين في نضالهم من أجل التحرر، و بذلك ينتقلون من قطب إلى آخر في التناقض . و دورهم هو دور جوهري ، و قـد كان كذلك طيلة تاريخ هذا النضال . و لكن يحدث ، في الغالب ، أ هم يجلبون معهم عندما يكفون عن كو م مستغلّين أو متفرجين لا مباليين ، أو ببساطة ورثة الاستغلال، و ينتقلون إلى صف المُستغلين ، يجلبون معهم تأثيرات أصولهم التي ينحدرون منـها : التعصب و التشويهات التي ما زالوا يحملو ا في نفوسهم ، بما في ذلك افتقـارهم إلى الثقة في قدرة الشعب على التفكير و الرغبة و المعرفة . و بالتالي ، فإن هؤلاء الـذين يلتحقون بقضية الشعب يواجهون دائما خطر الوقوع في فخ نوع من "الكرم" يشبه في مساوئه و شروره "كرم" المضطهدين . و يتغذى "كرم" المضطهدين من نظام غير عادل لا بد من بقائه كي يبرر ذلك "الكرم" . من الناحية الأخرى يرغب "المهتدون الجـدد"

بصدق في تغيير النظام غير العادل ، و لكنهم ، و بسبب خلفيتهم ، يؤمنون بأن عليهم أن يكونوا المنفذين لهذا التغيير . إ م يتحدثون عن الشعب ، و لكنهم لا يثقون بـه ، مع أن الثقة بالشعب هي الشرط الذي لا غنى عنه للتغيير الثوري . و يمكـن تمييـز الشخص الإنساني الحقيقي بشكل أوضح من خلال ثقته بالشعب ، الذي يـشاركه في النضال ، أكثر من خلال آلاف الأعمال نيابة عن الشعب دون الثقة به .

إن أولئك الذين يلتزمون حقا بالشعب يتعين عليهم أن يعيـدوا تفحـص أنفـسهم باستمرار . فهذا التحول هو تحول جذري إلى حد أنه لا يسمح بأي تصرف غامض . و ما تأكيد المرء على هذا الالتزام و تصوره بأنه يملك الحكمة الثورية – التي يجب أن تمنح للشعب (أو تفرض عليه) – إلاّ تمسك بالأساليب القديمة في الواقع . فالمرء الذي يعلن إخلاصه لقضية التحرر و يظل في الوقت ذاته عاجزا عن التلاحم مع الـشعب ، الذي يستمر في النظر إليه على أنه جاهل جهلا مطبقا ، إنما يخدع نفسه بشكل مفجع . و الشخص الذي "يهتدي" و يأخذ في التقرب من الشعب و لكنه يشعر بالخوف مع كل خطوة يخطوها الشعب، و مع كل تعبير عن الشك يصدر عنه، و كل اقتراح يتقدم به ، و يحاول فرض "مكانته" ، انما يظل يحن إلى أصوله .

(1) راجع فيما يتعلق "أشكال السيطرة الاجتماعية المهيمنة" هيربـرت مـاركوزي Man ne-Dimensional ، (بوسـطن ، 1964) و Eros and Civilization (بوسطن ، 1955) .

يتطلب التحول إلى الشعب عملية إعادة ولادة جذرية . و يتعين على أولئـك الـذين يمرون ا أن ينتهجوا ج حياة جديدة ، و لا يمكن لهم أن يظلوا كما كـانوا . فمـن خلال الرفاقية مع المضطهدين فقط يمكن "للمهتدين" فهم طرق حيـاة المـضطهدين

المميزة و سلوكهم ، التي تعكس في لحظات مختلفة بنية السيطرة . و إحدى هذه السمات المميزة، هي ما سبق و ذكرناه عن ازدواجية المضطهدين ، الذين يجمعون في الوقت ذاته ، بين أنفسهم و المضطهدين الذين يستلهمون صورهم . و بالتالي ، فإنهم يعبرون على الدوام – إلى أن "يكتشفوا" بشكل ملموس من يضطهدهم و من ثم وعيهم الخاص – عن مواقف قدرية تجاه وضعهم .

"يبدأ الفلاح في استمداد شجاعته للتغلب على تبعيته عندما يدرك أنه تابع . و إلى أن يأتي ذلك الوقت يسير في ركاب السيد ويقول "ماذا بوسعي أن أعمل ؟ إنني مجرد فلاح." (1)

عند تحليل هذه القدرية بشكل سطحي ، يجري تفسيرها ، في بعض الأحيان ، على أنها سهولة انقياد تميز الشخصية القومية . الاّ أن القدرية المُقنعة بسهولة الانقياد، ما هي إلا ثمرة وضع تاريخي و اجتماعي ، و ليست بالضرورة سمة مميزة من سمات سلوك الشعب . و هي مرتبطة في الغالب بسطوة القدر أو المصير أو الحظ – و هي قوى محتومة لا راد لها – أو بنظرة مشوهة لله . فالمضطهدون ينظرون ، تحت تأثير السحر و الخرافات (لا سيما الفلاحون المنغمسون كلية تقريبا في الطبيعة) (2) إلى معاناتهم ، التي هي نتاج الاستغلال ، على أنها مشيئة الله – كأن الله هو خالق هذه "الفوضى المنظمة".

إن المضطهدين ، الغارقين في الواقع ، لا يمكنهم إدراك "النظام" الذي يخدم مصالح المضطهدين الذين يستلهمون صورهم بوضوح . و غالبا ما يظهرون ، و هم يعانون من قيود هذا النظام نوعا من "العنف الأفقي" ، فيوجهون ضربا تهم إلى رفاقهم لأتفه الأسباب .

يقول فرانتز فانون : "سيعبر الشخص المُستعمر أولا عن هذه العدوانية التي استقرت في عظامه ضد أبناء جلدته . هذه هي المرحلة التي يأخذ الزنوج فيها بـضرب بعـضهم البعض ، و لا تعرف الشرطة و القضاة أية وجهة يتجهون، عندما تواجههم موجـات الجريمة المذهلة في شمال إفريقيا ... فبينما يتمتع المستوطن أو الشرطي طيلة اليوم بحـق ضرب المواطن الأصلي و توجيه الشتائم له وحمله على الزحف ، ترى المواطن الأصلي يستل سكينه عند مواجهة أبسط نظرة عدائية من شخص مثله ، و ذلـك لأن المـلاذ الأخير للمواطن الأصلي هو الدفاع عن شخصيته أمام أخيه ." (3)

(1)كلمات قالها أحد الفلاحين للمؤلف خلال حديث بينهما .

(2)راجـع : كانديـدو مينـديس ، A Esquerdo – Memento dos vivos catolica no Brasil .

(3)راجع : فرانتز فانون، The Wretched of the Earth (نيويورك ، 1968) ، ص 52

من المحتمل أن [المضطهدين] يعبرون مرة أخرى بهذا السلوك عن ازدواجيتـهم ، و ذلك لأن المضطهد يتواجد في رفاقهم المضطهدين ؛ فعندما يهاجمون رفاقهم يقومـون أيضا بمهاجمة المضطهد بطريق غير مباشر .

و من الناحية الأخرى ، يشعر المضطهدون ، عند نقطة معينة من تجربتهم الوجوديـة ، بجاذبية لا تقاوم تجاه المضطهدين و طريقة حياتهم ، و تـصبح الرغبـة في مـشاركة المضطهدين طريقة الحياة هذه طموحا لا يقاوم . فالمضطهدون يريدون بأي ثمـن ، في حالة "اغترابهم" ، أن يشبهوا المضطهدين ، وأن يقلدوهم و يتبعوهم . و تنتشر هـذه

الظاهرة بشكل خاص بين صفوف المضطهدين من الطبقة الوسطى ، الذين يتحرقون لأن يصبحوا ندا للأشخاص "رفيعي الشأن" من الطبقة العليا . يشير ألبرت ميمي في تحليل فريد لـ "العقلية المُستعمرة" إلى الحقد و الازدراء المشوبين بالجاذبية الشديدة اللذين شعر بهما تجاه المُستعمر . يقول :" كيف بمقدور المُستعمر رعاية عماله وهو يطلق النار بشكل دوري و يقتل جمهرة من المُستعمرين ؟ و كيف يمكن للمستعمر أن ينكر نفسه بهذه القسوة ، و مع ذلك يتقدم بمثل هذه المطالب المُغالى فيها ؟ كيف بوسعه كراهية المُستعمرين و مع ذلك الإعجاب بهم بهذه الحرارة ؟ (إنني شخصيا قد شعرت بالإعجاب نفسه رغما عني .)" (1)

و تشكل الاستهانة بالذات سمة مميزة أخرى من سمات المضطهدين ، تنبع من استلهامهم للفكرة التي يحملها المضطهدين عنهم . و بالتالي ، فهم غالبا ما يسمعون أنهم لا يصلحون لشيء ، ولا يعرفون شيئا و غير قادرين على تعلم أي شيء – إنهم مرضى و كسالى و غير منتجين – إلى حد أنهم يقتنعون في النهاية ، بعدم صلاحيتهم . "إن الفلاح يشعر بأنه أقل من السيد ، لأن السيد يبدو الوحيد الذي يعرف كل شيء و قادر على إدارة الأمور." (2)

يصفون أنفسهم بالجهل و يقولون إن "الأستاذ" هو الوحيد الذي يملك المعرفة و عليهم أن يصغوا إليه . فمعايير المعرفة المفروضة عليهم هي معايير تقليدية . و قد سأل أحد الفلاحين الذين شاركوا في حلقة ثقافية "لماذا لا تفسر الصور أولا ؟ فبذلك الأسلوب سيستغرق الأمر وقتا أقل ، و ولن يسبب صداعا لنا ."

و لكنهم لا يدركون على الإطلاق أنهم أيضا "يعرفون أشياء" تعلموها في علاقاتهم مع العالم و مع غيرهم من الناس . و لكن من الطبيعي ، في ظل الظروف التي أنتجت

ازدواجيتهم ،أن لا يثقوا بأنفسهم .

غالبا ما يأخذ الفلاحون الذين يشاركون في المشاريع التعليمية في منافشة موضوع منتج بأسلوب حيوي ، ثم يتوقفون فجأة و يقولون للمربي : "عفوا ، كان علينا أن نصمت و ندعك تتكلم

(1) البرت ميمي ، The Colonizer and the Colonized (بوسطن ، 1967) ص 10 .

(2) كلمات قالها أحد الفلاحين خلال حديث مع المؤلف .

إنك من يعرف ، و نحن لا نعرف شيئا." و غالبا ما يصرون على عدم وجـود فـرق بينهم و بين الحيوانات ، و إذا أقروا بوجود اختلاف ، فهو دائما لصالح الحيوانـات ، [إذ يقولون] "إ ا أكثر حرية منا."

و مع ذلك فإن من المثير مراقبة كيف تتغير هذه الاستهانة بالنفس لدى حـدوث أي تغيير في حالة الاضطهاد . لقد سمعت أحد زعماء الفلاحين يقول في اجتماع لإحدى وحدات الإنتاج في تشيلي التي تدعى "أسنتامينتو" (Asentamiento) (1) : "كانوا يقولون إننا غير منتجين لأننا كسالى و سكيرين . إن كل ذلك أكاذيب . و الآن بعـد أن حظينا بالاحترام كأشخاص ، سنثبت للجميع بأننا لم نكن أبدا سكيرين و كسالى . إننا مستغلون ! "

سيحجم المضطهدون عن المقاومة و سيفتقرون كلية إلى الثقة بالنفس مـا دام اللـبس والغموض يسيطران عليهم . إن لديهم إيمانا سحريا و راسخا في مناعة المـضطهدين و فو م (2) . و تحكم القوة السحرية لملاّك الأراضي قبضتها بشكل خاص في المنـاطق

الريفية . و قد حدثني صديق من المتخصصين في علم الاجتماع عـن مجموعـة مـن الفلاحين المسلحين في بلد من بلدان أمريكا اللاتينية استولت مؤخرا علـى إحـدى الإقطاعيات الكبيرة ، و قررت لأسباب تكتيكية الاحتفاظ بمالك الأرض كرهينـة. و لكن لم تتوفر الشجاعة لدى أي واحد منهم ليقوم بحراسته . فمجرد وجـوده كـان يرعبهم . و من المحتمل أيضا ، أن عملية معارضة السيد أثارت لديهم الشعور بالذنب .في الحقيقة كان السيد "يقبع في داخلهم".

لا بد للمضطهدين من رؤية أمثلة على ضعف المضطهدين حتى تتمكن قناعة معاكـسة من البدء في النمو بداخلهم . ، و إلى أن يحدث ذلك سيستمرون على حالهم متبطـي العزيمة ، خائفين ومهزومين .(3) و ما دام المضطهدون غير واعين بالأسـباب الـتي أنتجت وضعهم "سيقبلون" بشكل قدري باستغلالهم . بالإضـافة إلى ذلـك ، إ ـم مستعدون للرد بأسلوب سلبي و "مغترب" لدى مواجهة ضرورة النضال مـن أجـل تحقيق تحررهم و إثبات ذا م . الاّ أ م يجنحون شيئا فشيئا إلى تجربة أشكال من أعمال التمرد . ، و يجب على المرء ، في السعي إلى التحرر ، ألاّ تغيب هذه الـسلبية عـن ناظريه أو أن يتجاهل لحظة الاستيقاظ .

يشعر المضطهدون ، في إطار نظر م غير الحقيقية للعالم و لأنفسهم ، بـأ م "أشـياء" يملكها المضطهدون . فبالنسبة للمضطهدين معنى "أن تكون" هو "أن تمتلـك" علـى الدوام تقريبا على حساب من لا يملكون شيئا . و بالنسبة للمضطهدين – عند نقطـة معينة من تجربتهم الوجودية – يعني "أن

(1)الأسنتامينتو :كلمة بالإسبانية تشير إلى وحدة إنتاج في تجربة الإصلاح الزراعي في تشيلي –المترجم .

"(2)يتمنع الفلاح بخوف غريزي تقريبا من السيد" – كلمات قالها فـلاح للمؤلـف خلال حديث بينهما

(3)راجع : ريجـيس دوبـري ، Revolution in the Revolution (نيويـورك 1967) .

تكون" هو ألاّ تتماثل و الشخص الذي يمارس الاضطهاد ، بل أن "تخضع" له و تعتمد عليه . وبالتالي ، فإن المضطهدين تابعون عاطفيا .

"إن الفلاح تابع ، لا يستطيع قول ما يريد . و هو يعاني قبل أن يكتشف تبعيتـه . و ينفّس عن نفسه في البيت ، حيث يصرخ في أولاده و يضربهم و ينتابه شعور باليأس . يشتكي من زوجته و يفكر بأن كل شيء كريه .و لكنه لا ينفّس عن نفسه مع رئيسه، لأنه يعتقد أن الرئيس إنسان أرقى. و كثيرا ما يسري الفلاح عن آلامه بتناول الخمرة (1) . "

من الممكن أن تؤدي هذه التبعية العاطفية بالمضطهدين إلى ما يسميه فـروم "سـلوكا يتسم باشتهاء الموت" (Necrophilic Behavior) : تدمير الحياة – حياتهم أو حياة إخوانهم المضطهدين .

يبدأ المضطهدون بالأخذ بالإيمان بأنفسهم فقط عندما يكتشفون المضطهد و يشاركون في النضال المنظم من أجل تحررهم . و لا يمكن لهـذا الاكتـشاف أن يكـون مجـرد اكتشاف فكري محض ، بل يجب أن يشمل عملا ، كما أنه لا يمكن أن يقتصر علـى المبدأ القائل إن "جوهر الحقيقة هو العمل الخالص" [أو "العمل من أجل العمل"] ، بل يجب أن يشمل أيضا تفكيرا جديا : عندئذ فقط سيكون ذلك ممارسة .

إن الحوار الانتقادي و المؤدي إلى التحرر – الأمر الذي يفترض عملا – يجب أن يـتم مع المضطهدين في أية مرحلة من مراحل نضالهم من أجل التحرر (2) . و من الممكن ، بل يجب أن يتنوع محتوى الحوار حسب الظروف التاريخية و المستوى الذي يدرك فيـه المضطهدون الواقع . و ما محاولة الاستعاضة عن الحـوار بالمناجـاة و الـشعارات و البيانات إلاّ محاولة لتحرير المضطهدين باستخدام أدوات التدجين . فمحاولـة تحريـر المضطهدين دون مساهمتهم الفكرية أو التأملية في عملية التحرير تعني معاملتهم كـ ـ "أشياء" يتعين إنقاذها من بناية تحترق ، تعني دفعهم إلى مزالق الشعبوية ، وتحويلهم إلى جماهير يمكن التلاعب ا .

و يتعين على المضطهدين في كافة مراحل تحررهم أن ينظروا إلى أنفسهم علـى أ ـم أشخاص منغمسون في المهمة الأنطولوجية و التاريخية الهادفة إلى جعلهم أكثر اكتمـالا إنسانيا . و يصبح التفكير و العمل ضروريين عندما لا يحاول المـرء فـصل محتـوى الإنسانية عن أشكالها التاريخية .

و الإصرار على ضرورة قيام المضطهدين بالتفكير في وضعهم المحدد ، ليس دعـوة إلى "ثورة الكراسي الوثيرة" ، بل على العكس ، إن التفكير – التفكير الحقيقي – يقود إلى العمل . و من ناحية أخرى ، عندما يقتضي الوضع عملا ، سيشكل ذلـك العمـل ممارسة أصيلة فقط إذا أصبحت نتائجه موضع تفكير انتقادي . و ذا المعـنى تكـون الممارسة السبب الجديد لوجود المضطهدين ، و تصبح

(1)حديث مع أحد الفلاحين .

(2)بالطبع ليس علنا ، إذ أن ذلك قد يثير غضب المضطهدين و يؤدي إلى المزيد مـن

الاضطهاد .

الثورة ، التي تدشن اللحظة التاريخية لهذا الوجود ، غير ممكنة أو غير قادرة على الاستمرار بمعزل عن ملازمة مشاركتهم الواعية . و إلا فإن العمل سيكون عملا من أجل العمل .

إلاّ أنه من الضروري لتحقيق هذه الممارسة توفر الثقة في المضطهدين و في قدرتهم على التفكير . و سيفشل كل من يفتقد هذه الثقة (أو سيتخلى) عن المبادرة بالحوار و التفكير و التواصل ، و سينحدر إلى استخدام الشعارات و البيانات و المناجاة و إصدار التعليمات . و التحول السطحي إلى قضية التحرر ينطوي على هذا الخطر .

إن النشاط السياسي المساند للمضطهدين يجب أن يكون عملا تربويا بالمعنى الحقيقي للكلمة، و من ثم العمل مع المضطهدين . فمن يعملون من أجل التحرر يجب ألاّ يستغلوا تبعية المضطهدين العاطفية – تبعية هي نتاج وضع السيطرة الملموس الذي يحيط بهم و يولّد نظرتهم غير الحقيقية للعالم . و ما استخدام تبعيتهم لخلق المزيد من التبعية إلاّ تكتيك خاص بالمضطهدين .

لا بد للعمل المتحرر الإرادة من الإقرار بهذه التبعية كنقطة ضعف ، و محاولة تحويلها ، عبر التفكير و العمل ، إلى استقلالية . و لكن ليس بوسع ، حتى أكثر القيادات حسن نية أن تمنح الاستقلال كهدية ، إذ أن تحرير المضطهدين هو تحرير الإنسان و ليس الأشياء . و بالتالي ، بما أن المرء لا يستطيع تحرير نفسه بجهده وحده ، فإنه لا يمكن أن يتحرر بفعل الآخرين . إن التحرير ، و هو ظاهرة إنسانية ، لا يمكن أن يتحقق على أيدي أشباه آدميين . و أية محاولة لمعاملة الناس كأشباه آدميين تؤدي فقط إلى تجريدهم

من آدميتهم . و عندما يصبح الناس مجردين من آدميتهم بسبب الاضطهاد الذين يعانونه يجب ألاّ تقوم عملية تحريرهم باستخدام الأساليب التي تجرد من الإنسانية .

الأسلوب الصحيح الذي يتعين على قيادة ثورية استخدامه في مهمة التحرير هو بالتالي ليست "الدعاية التحررية".كما أن القيادة لا تستطيع أيضا"زرع" الإيمان بالحرية في نفوس المضطهدين، معتقدة بأ ا تكتسب بذلك ثقتهم . إن الأسلوب الصحيح يكمن في الحوار ، فقناعة المضطهدين بأن عليهم النضال من أجل حريتهم ليست هدية تمنحها القيادة الثورية ، بل نتاجا لوعيهم أنفسهم .

و يتعين على القادة الثوريين أن يدركوا أن قناعتهم بضرورة النضال (الأمر الذي يشكل بعدا لا غنى عنه للحكمة الثورية) لم تمنح لهم من الآخرين – هذا إذا كانت حقيقية . و القناعة لا يمكن تعليبها و بيعها . بل يتم التوصل إليها عن طريق حصيلة التفكير و العمل . فمشاركة القادة فقط ، ضمن إطار وضع تاريخي ، أدى م ، في الواقع ، إلى انتقاد الوضع و الرغبة في تغييره .

و يتعين كذلك على المضطهدين (الذين لا يلتزمون بالنضال إلا إذا اقتنعوا ، و يحجمون إذا لم يقدموا على هذا الالتزام ، عن توفير الشروط التي لا غنى عنها للنضال) أن يتوصلوا إلى هذا القناعة كـ "فاعلين" ، و ليس كـ "أهداف" أو "مفعول م". كما يتعين عليهم أيضا التدخل بشكل انتقادي في الوضع الذي يحيط م و يترك بصماته عليهم . لا يمكن للدعاية أن تحقق ذلك . و في الوقت الذي تشكل فيه القناعة بضرورة النضال (والتي من غيرها يصبح النضال غير ممكن) أمرا لا غنى عنه للقيادة الثورية (في الواقع كانت هذه القناعة أساس تشكيل تلك القيادة) فإ ا ضرورية أيضا بالنسبة للمضطهدين . إ ا ضرورية إلا إذا كان المرء ينوي القيام بالتحولات نيابة عن،

بدلا من، مع المضطهدين . و في اعتقادي أن النوع الأخير من التحولات هو الصحيح.

إن الهدف من الحديث عن هذه الاعتبارات هو الدفاع عن الطابع التربوي الأساسي للثورة . فالقادة الثوريون في كل عصر،الذين أكدوا على ضرورة قبول المضطهدين بالنضال من أجل تحررهم- و هو أمر بديهي – قد أقروا ، ضمنيا ، أيضا بالجانب التربوي لهذا النضال . إلا أن العديد من هؤلاء القادة قد استخدموا ، في النهاية (لعله بسبب التحيز الطبيعي و المفهوم ضد العملية التربوية)، الأساليب "التعليمية" التي يستخدمها المضطهدون . إنهم ينكرون العمل التربوي في عملية التحرير ، ويستخدمون الدعاية للإقناع .

إن من الضروري، بالنسبة للمضطهدين، إدراك أنه بقبولهم النضال من أجل استعادة إنسانيتهم، يقبلون ، بدءا من تلك اللحظة ، بتحمل مسؤوليتهم كاملة عن ذلك النضال . و يجب أن يدركوا أنهم يقاتلون ليس فقط من أجل التحرر من الجوع ، بل من أجل ..."الحرية في الإبداع والبناء ، في التفكير و المجازفة . و حرية من هذا القبيل تتطلب من الفرد أن يكون نشطا و مسؤولا ، ليس عبدا ، أو ترسا حسن التثبيت في الآلة ... فلا يكفي أن الناس ليسوا عبيدا. فلو كانت الظروف الاجتماعية تكرس و تشجع وجود الإنسان الآلي ، لن تكون النتيجة حب الحياة ، بل حب الموت." (1)

و المضطهدون ، الذين تم تشكيلهم من قبل خلال الاضطهاد الذي يحبذ الموت ، يتعين عليهم إيجاد الطريق عبر نضالهم ، إلى "الأنسنة" التي تؤكد الحياة ، و لا تكمن ببساطة في توفر المزيد من الأكل (رغم أن الأمر يشمل توفير المزيد من الأكل و لا يمكن له ألاّ يشمل هذا الجانب) .لقد تدمر المضطهدون بالتحديد لأن وضعهم قام باختزالهم إلى

مجرد أشياء . و يتعين عليهم ، كي يستعيدوا إنسانيتهم ، الكف عن كو م أشـياء ، و النضال كأشخاص . إن هذا مطلب راديكالي . فليس بإمكا م الانخراط في النـضال كأشياء حتى يصبحوا فيما بعد رجالا .

يبدأ النضال من إقرار الناس بأ م قد تدمروا . و لا يمكن للدعاية و الإدارة و التلاعب والغش – كلها أدوات سيطرة – أن تكون أدوات إعادة إنسانيتهم لهـم . فـالأداة الوحيدة الفعالة هي التربية التي تعمل على "الأنسنة" التي تعمل القيادة الثوريـة مـن خلالها على إقامة علاقة حوار دائم مع المضطهدين . و يكف الأسلوب في مثل هـذه التربية عن كونه أداة يستطيع المعلمون (في هذه الحالة القيادة الثورية) عـن طريقهـا التلاعب بالطلاب و غشهم (في هذه الحالة المضطهدون) ، و ذلك لأ ا تعبر عن وعي الطلاب أنفسهم .

(1)اريك فروم ، المصدر المذكور سابقا ، ص 52-53.

"الأسلوب في الواقع ، هو الشكل الخارجي للوعي معبرا عنه بأعمال ، و يكتسب سمة الوعي الجوهرية – مقاصده و نواياه . و جوهر الوعي هو الوجود مع العالم ، و هـذا تصرف دائم لا يمكن تفاديه . و بالتالي ، إن الوعي ، في جوهره ، " طريق نحو " شيء بمعزل عن نفسه ، خارج نفسه ، يحيط به و يفهمه عبر قدرته الذهنية . و هكذا ، فإن الوعي ، من حيث التعريف ، هو أسلوب بالمعنى العام جداً للكلمة ." (1)

ن ثم يتعين على القيادة الثورية أن تمارس ما يعرف بالتعليم ذي الأهداف المشتركـة .

. (Co-intentional Education)المعلم و الطالب (القيادة و الشعب) يركـزون

بشكل مشترك على الواقع ، و كلاهما "فاعل" ، ليس فقط في مهمة اكتشاف ذلـك الواقع ، و من ثم التوصل إلى فهمه بشكل انتقادي ، و لكن في مهمة إعادة خلق لتلك المعرفة . و عندما يحصلون [القيادة والشعب) على هذه المعرفة للواقع ، عبر التفكير و العمل المشتركين ، يكتشفون أنفسهم بأنهم من يعيد خلقه باستمرار . و بهذه الطريقة ، سيكون وجود المضطهدين في النضال من أجل تحررهم كما يجب أن يكون عليه : ليس شبه مشاركة ، بل مشاركة ملتزمة .

(1) نقلا عن بحث بقلم ألفارو فييرا بينتو يجري إعداده حول فلسفة العلم . أعتبر الجزء الذي نقلته في غاية الأهمية من أجل فهم موضوع التعليم الذي يطرح قضايا و مشاكل (الذي ستجري مناقشته في الفصل الثاني) . و أود التقدم بالشكر للبروفيسور فـييرا بينتو للسماح بالنقل عن بحثه قبل نشره .

الفصل الثاني

سيكشف أي تحليل دقيق للعلاقة بين المعلم و الطالب على أي مستوى ، داخل المدرسة أو خارجها ، عن طابعها السردي (Narrative) .و تشمل هذه العلاقـة "فـاعلا" (المعلم) يقوم بالسرد و"مفعول به" أو "أهداف" (الطلاب) الذين يستمعون بصبر . و تجنح المحتويات – إن كانت قيما أو أبعادا عملية للواقع ___ إلى أن تـصبح ، خـلال عملية السرد ، بلا حياة ، محنطة . فالتعليم يعاني من مرض السرد .

يتحدث المعلم عن الواقع وكأنه جامد بلا حراك، مجزأ ، و يمكن التنبؤ بـه . أو أنـه يسهب في شرح موضوع غريب للغاية عن التجربة المعاشية للطلاب . فمهمتـه هـي "ملء" الطلاب بمحتويات ما يسرده – محتويات لا صلة لها بالواقع ، منفـصلة عـن "الكل" الذي أدى إلى ولادتها و قد يضفي عليهـا أهميـة .كلمـات مفرغـة مـن "ملموسيتها" ، أصبحت لغوا فارغا مغتربا و يدفع إلى الاغتراب .

الصفة المميزة البارزة لهذا التعليم السردي هي ، في الواقع ، طنين الكلمات ، و ليست قوتها و قدرتها على إحداث تحول . الطالب يسجل و يحفظ غيبا ، و يردد هذه الجمل دون أن يفهم ، في الواقع ، المعاني ، أو يدرك الأهمية الحقيقية لما يتلقى .

يؤدي السرد (مع كون المعلم هو الراوي) بالطالب إلى الحفظ غيبا بشكل ميكانيكي ما يروى عليه من محتويات . و الأسوأ من ذلك أنه يحيله إلى "وعاء ، إلى "إناء" يقوم المعلم "بملئه" ، وكلما زاد المعلم من ملء الوعاء ، كلما كان المعلم أفضل ، و كلمـا سمـح الوعاء ، بخنوع، بملئه ، كلما كان الطالب أفضل .

هكذا يصبح التعليم عملية "إيداع" ، يكون الطلاب فيها الجهة التي يتم الإيداع فيها ، والمعلم هو المُودع . و بدلا من أن يقوم المعلم بالتواصل مع الطـلاب ، يلجـأ إلى إصدار البيانات و"إيداع" ما لديه ، فيتلقاها الطلاب ويحفظو ا غيبا و يرددو ا بصبر . هذا هو المفهوم "البنكي"

(Banking) في التعليم ، الذي لا يتعدى فيه مجال النشاط المسموح بـه للطـلاب حدود التلقي والامتلاء و تخزين ما يتم إيداعه . حقا ، تتوفر لهم الفرصة لأن يصبحوا جامعين و مصنفين للأشياء التي يخزنو ا . و لكن ، في التحليل النهائي ، فإن من يجري استبعادهم و تصنيفهم هم الناس ، البشر، ، من خلال الافتقار إلى الخلق و الإبداع و غياب التحول و المعرفة في هذا النظام غير الموفق (في أحسن الأحـوال) .و لا يمكـن للأشخاص أن يكونوا آدميين حقا بمعزل عن البحث و الممارسة . فالمعرفة تظهر فقـط من خلال الاختراع و إعادة الاختراع ، عبر البحث الدؤوب القلق و المستمر الذي لا يعرف الصبر المفعم بالأمل الذي يقوم به الناس في العالم ، و مع العالم و مـع بعـضهم البعض .

و لكن في المفهوم "البنكي" للتعليم، تعتبر المعرفة هبة يمنحها أولئك الـذين يعتـبرون أنفسهم ضليعين في المعرفة إلى من يعتبرو م لا يعرفون شيئا . فإلصاق الجهل المطبـق بالآخرين – و هي صفة من صفات أيديولوجية الاضطهاد – تنكر أن التعليم و المعرفة هما عمليتا بحث و استقصاء . و بالتالي يقوم المعلم بتقديم نفسه لطلابه على أنه نقيضهم الضروري ، و يعتبر جهلهم مطلقا يبرر وجوده . ويقبل الطلاب ، الذين يـشعرون بالاغتراب مثل العبد في الديالكتيك الهيجلي (1)،جهلهم على أنه يبرر وجود المعلم – و لكن ، على خلاف العبد ، لا يكتشفون أبدا أ م يعلّمون المعلم .

و من ناحية أخرى ، يكمن مبرر وجود "التعليم الحر الإرادة" في توجهه نحو المصالحة.فالتعليم يجب أن يبدأ بحل التناقض بين المعلم و الطالب ، بالتصالح بين قطبي التناقض ، بحيث يصبح في الوقت ذاته معلما و طالبا .

و لا يتوفر (كما لا يمكن أن يتوفر) هذا الحل في المفهوم "البنكي" ، بل على العكس يبقي التعليم "البنكي" على التناقضات و حتى يحفزها من خلال المواقف و الممارسات التالية ، التي تعكس المجتمع القمعي ككل :

أ) المعلم يعلم و الطلاب يتعلمون ،

ب) المعلم يعرف كل شيء و الطلاب لا يعرفون شيئا ،

ج) المعلم يفكّر و الطلاب يجري التفكير بهم ،

د) المعلم يتكلم و الطلاب يستمعون – بخنوع ،

ه) المعلم يؤدب و الطلاب يجري تأديبهم ،

و) المعلم يختار و يفرض اختياره ، و الطلاب يمتثلون ،

ز) المعلم ينشط و الطلاب يتوهمون بأنهم يعملون من خلال عمل المعلم ،

ح) المعلم يختار محتويات البرنامج و الطلاب (الذين لم تتم استشارتهم) يتكيفون ،

ط) المعلم يخلط ما بين سلطة المعرفة و سلطته المهنية التي يطرحها كنقيض لحرية الطلاب ،

ي) المعلم هو "الفاعل" في عملية التعليم ، بينما الطلاب مجرد "أشياء" ، أو "مفعول

م" .

(1)الديالكتيك الهيجلي : نسبة إلى جورج فيلهلم فريدريك هيجل (1770-1831) أحد ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، الذي وصل بـ "فلـسفة الوحـدة" ، أي الوحدة المطلقة بين الذات و الموضوع ، إلى تطورها الشامل . يقول انـه في صـلب الموجودات كلها تقوم "الفكرة المطلقة" التي تعي ذا ا في مجرى تطورها . فهي تتكشف عن مضمو ا من خلال حلقة التطور ، و ذلك في ميدان "العقل المحض" أولا ، و من ثم في الطبيعة ، و بعدها في تاريخ الروح ، أي التاريخ البشري . و كانت هذه صـياغة مثالية لفكرة وحدة قوانين الطبيعة و ا تمع =

و بالتالي ليس من المستغرب أن المفهوم "البنكي" للتعليم يعتبر الناس كائنـات قابلـة للتكيف و "القيادة". فكلما ازداد ا ماك الطلاب في تخزين ما يتم إيداعـه لـديهم ، كلما قلّت إمكانية تطويرهم لوعي انتقادي ينجم عن تدخلهم في العالم كـ "محورين" لذلك العالم . و كلما ازداد قبولهم بالدور السلبي المفروض عليهم ، كلمـا جنحـوا ببساطة إلى التكيف مع العالم في وضعه ، و مع النظرة ا زأة للواقع التي أودعت فيهم.

إن قدرة التعليم "البنكي" على التقليل من أو القضاء على قوة الخلق و الإبداع لـدى الطلاب، و حفز سرعة التصديق لديهم ، تخدم مصالح المضطهدين ، الذين لا يـأ ون للكشف عن العالم أو لرؤيته يتغير . فالمضطهدون يستخدمون "نزعتـهم الإنـسانية" للحفاظ على وضع مربح . و هكذا ، يردون بشكل غريزي تقريبا معارضين أية تجارب في مجال التعليم من شأ ا حفز القدرات الانتقادية ، و لا ترضى بنظرة جزئية للواقع ، بل تبحث على الدوام عن الروابط التي تربط نقطة بأخرى ، وقضية بأخرى .

و في الواقع ، فإن مصالح المضطهدين تكمن في "تغيير وعي المضطهدين ، و ليس الوضع الذي يضطهدهم" ، (1) و ذلك لأنه كلما ازداد حمل المضطهدين على التكيف مع الوضع ، كلما أصبح من الأسهل السيطرة عليهم . و يستخدم المضطهدون لتحقيق هذا الهدف مفهوم التعليم "البنكي" مقترنا بجهاز عمل اجتماعي "أبوي" ، يطلق من خلاله على المضطهدين صفة "متلقي المساعدات الاجتماعية". و يتم التعامل معهم كحالات فردية ، كأشخاص مهمشين يشذون عن التجمع العام لـ "المجتمع الطيب المنظم و العادل." و ينظر إلى المضطهدين على أنهم حالات السقم التي تصيب المجتمع الصحيح المتعافي ، و من ثم لا بد من إصلاح "هؤلاء الكسالى غير الصالحين" وحملهم على التكيف مع ما هو سائد في المجتمع ، و ذلك بتغيير عقليتهم . فهؤلاء "المهمشون" يحتاجون إلى أن يجري "استيعابهم" و "دمجهم" في المجتمع الصحي الذي تخلوا عنه .

و لكن الحقيقة هي أن المضطهدين ليسوا "مهمشين" ، إنهم ليسوا أشخاصا يعيشون "خارج" المجتمع . لقد كانوا دائما "في الداخل" – في صلب البنية التي جعلت منهم "كائنات من أجل الآخرين" . و الحل ليس في "دمجهم" في بنية الاضطهاد ، بل في تغيير تلك البنية ، بحيث يصبحون

=و الفكر . و انطلاقا من ذلك أمكن لهيجل عرض نشاط الإنسان في ارتباطه بتطور تاريخ البشرية كله . و لكن أهم مآثر هيجل إنما كانت في وضعه نسق الديالكتيك المثالي . فقد كان أول من انبرى لتقديم عرض متسق لقوانين الديالكتيك و مقولاته ، و لبناء صرح المنطق الديالكتيكي ، و لطرح فكرة وحدة الديالكتيك و المنطق و نظرية المعرفة (راجع لمزيد من المعلومات : Dictionary of Philosophy – دار التقدم ، موسكو 1984 – المترجم

(1)راجع : سيمون دي بفوار، La Pensee de Droite, Aujordhui (باريس) ؛ ST , El Pensamient politico de la Derecha (بيونس أيـريس ، 1963) ص 34

"كائنات من أجل أنفسهم .و تغيير كهذا سيقوض بالطبع ، أهداف المضطهدين . لذا كان لجوؤهم إلى استخدام مفهوم التعليم "البنكي" ، كي يتفادوا ديد وعي الطلاب .

إن الطريقة "البنكية" في تعليم الكبار ، على سبيل المثال ، لن تقترح على الطـلاب أن يفكروا في الواقع بشكل انتقادي. بل ستتعامل ، بدلا من ذلك ، مع قضايا حيوية مثل هل قدم روجر عشبا أخضر إلى العنـزة ، و تصر ، على العكس ، على أهمية تعلم أن روجر قدم عشبا أخضر للأرنب . و تخفي "إنسانية" الطريقة "البنكية" الجهـد الـذي يبذل لتحويل الناس إلى آلات – التي هي النفي بحد ذاته لمهمتهم الأنطولوجية الخاصة بأن يصبح الإنسان أكثر اكتمالا .

إن أولئك الذين يستخدمون الطريقة "البنكية" يفشلون ، عن دراية أو عن غيرهـا ، (لأن هنالك العديد من "موظفي البنوك" المعلمين الذين لا يدركون أ م يقومون فقـط بتجريد الطلاب من إنسانيتهم) في إدراك أن "الودائع" نفسها تحتوي على تناقـضات فيما يتعلق بالواقع . و قد تؤدي هذه التناقضات بالطلاب السلبيين في الـسابق ، إن عاجلا أم آجلا ، إلى الانقلاب على عملية تدجينهم وعلى محاولة تدجين الواقـع ، إذ قد يكتشفون ، من خلال تجربتهم الوجودية ، أن طريقة حيا م الحالية لا تتلاءم مـع "وظيفتهم" الخاصة بأن يصبحوا أكثر اكتمالا إنسانيا . و قد يعون من خلال علاقتهم بالواقع أن الواقع عملية حقا ، و يتعرض إلى تحول مستمر .و إذا كان الناس باحثين و وظيفتهم الأنطولوجية هي "الأنسنة" ، فقد يدركون ، إن عاجلا أم آجلا ، التنـاقض

الذي يسعى التعليم "البنكي" إلى إبقاءهم فيه ، و من ثم يشاركون في النضال من أجل تحرير أنفسهم .

و لكن المربي الثوري ذي النـزعة الإنسانية لا يستطيع انتظار أن تتحقق هذه الإمكانية . فمنذ البداية لا بد أن تتطابق جهوده مع جهود الطلاب ، و الاشتراك في الـتفكير الانتقادي و السعي إلى تحقيق "أنسنة" متبادلة . و يجب أن تتشبع جهوده بثقة عميقة في الناس و في قوتهم على الخلق والإبداع ، و يتعين عليه ، كي يحقق ذلك ، أن يكـون شريكا للطلاب في علاقاته معهم .

و لكن المفهوم "البنكي" لا يقر بمثل هذه الشراكة – من حيث الضرورة . فالقيام بحل التناقض بين المعلم و الطالب ، و تغيير دور "المودع" و الآمر و الموجه و المُـدجن إلى دور طالب بين الطلاب سيقوض سلطة الاضطهاد و قوته و يخدم قضية الحرية .

و ينطوي المفهوم "البنكي" ، ضمنيا ، على فرضية وجود انفصام بين الإنسان و العالم : الإنسان موجود فقط في العالم ، و ليس مع العالم أو مع آخرين . والإنسان هو متفرج ، و ليس من يعيد الخلق . و حسب وجهة النظر هذه فإن الإنسان ليس "كائنا واعيا" (consciente Corpo) ، بل هو يملك وعيا:"عقلا"خاويا مفتوحا بـشكل سـلبي لاستقبال"ودائع"حول الواقع من العالم الخارجي. على سبيل المثال:مكتبي و كتـابي و فنجان قهوتي و جميع الأشياء التي أمامي – كقطع من العـالم المحـيط بي – سـتكون "داخلي" ، تماما كما أنا الآن داخل غرفة مكتبي . هذه النظرة لا تفرق بين ما يمكن

أن يكون في متناول الوعي و الدخول في الوعي .(1) و لكن التفرقة أمر أساسـي :

الأشياء التي تحيط بي هي ببساطة متوفرة لوعيي و في متناوله ، و ليست واقعة داخله . إنني على علم بها ، و لكنها ليست بداخلي .

و يتبع منطقيا من الفكرة "البنكية" عن الوعي أن دور المربي هو تنظيم الطريقة التي "يدخل" فيها العالم إلى عقل الطلاب . فمهمته هي تنظيم عملية تحدث تلقائيا ، من أجل "ملء" الطلاب ، وذلك بإيداع معلومات يعتبرها تشكل معرفة حقيقية (2) و بما أن الناس "تتلقى" العالم بإعتبارها كيانات سلبية ، سيجعل التعليم منهم أكثر سلبية و يحملهم على التكيف مع العالم . و بالتالي ، يصبح الشخص المتعلم هو الشخص الذي تكيف ، لأنه أكثر "صلاحية" بالنسبة للعالم . و إذا ترجمنا هذا بشكل عملي ، فإن هذا المفهوم يلائم جيدا أهداف المضطهدين ، الذين تعتمد راحتهم و هدوء بالهم على كيفية انسجام الناس مع العالم الذي خلقه المضطهدون و مدى عدم مساءلتهم له و إثارة الشكوك حوله .

كلما ازداد اكتمال تكيف الغالبية مع الأهداف التي تحددها لها الأقلية المهيمنة (تحرمهم بذلك من حق أن يكون لهم أهدافهم الخاصة) ، كلما أصبح من الأسهل على الأقلية الاستمرار في الإملاء و التحديد . و تخدم نظرية التعليم "البنكي" و ممارسته هذا الهدف بكفاءة تامة . فالدروس الغوغائية ، و مقررات القراءة ، و أساليب تقييم "المعرفة" ، و المسافة بين المعلم و من يتعلم ، ومعايير الترقية ، كل ذلك الوارد في الطريقة الجاهزة للتطبيق يخدم هدف تغييب التفكير و طمسه .

(1)الوعي (Consciousness) : فلسفيا هو شكل بشري خاص من عكس الواقع و استيعابه الروحي . والوعي و الوجود مقولتان من أعم المقولات الفلسفية ، تتوقف كيفية فهمهما على حل المسألة الفلسفية الأساسية . الفلسفة المثالية تعتبر الوعي شيئا

مستقلا عن العالم الموضوعي و خالقا له . أما الفلسفة المادية ، فعلى النقيض من المثالية ، تعتبر أن الوعي انعكاس للواقع ، و تربطه بآليات النشاط العصبي الرفيع ، و تفهم الإنسان على أنه كائن طبيعي ، بيولوجي ، و تتجاهل طبيعته الاجتماعية و نشاطه العملي و تصور الوعي نظرة سلبية إلى العالم . تختلف نظرة ماركس إلى الأمر ، فالوعي بالنسبة له اجتماعي بطبيعته ، يظهر و يتطور كجانب من ممارسة الإنسان الاجتماعي ، و يندرج في هذه الممارسة كعنصر من التفاعل القائم بين الموضوع و الإنسان ، و يشكل نشاط الدماغ شرطا لظهور الوعي البشري و تطوره ، كما أن للوعي موضوعه ، فهو موجه نحو الوجود ، و يكمن مغزاه في معرفة الشيء ، في استيعابه و استجلاء ماهيته، و لا ينطوي الوعي على انعكاس العالم الموضوعي فقط ، بل وعلى وعي الإنسان لنشاطه النفسي . و كما سبق و قلنا يستخدم المؤلف هذا التعبير بمعنى إدراك التناقضات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية و العمل ضد العناصر القمعية في الواقع – المترجم

(2)يتطابق هذا المفهوم مع ما يطلق عليه جان بول سارتر اسم المفهوم "الهضمي" أو "الغذائي" الذي يقوم بموجبه المعلم بـ "إطعام" المعرفة للطلاب من أجل "ملئهم" . راجع : جان بول سارتر "Une idee fundamentale="

لا يدرك "موظف البنك" المربي عدم وجود أمان حقيقي في دوره الذي جرى تضخيمه ، وأن على المرء أن يعيش مع الآخرين في تضامن . المرء لا يستطيع فرض نفسه ، أو حتى مجرد التعايش مع طلابه . فالتضامن يتطلب تواصلا حقيقيا ، و لكن المفهوم الذي يهتدي به مثل هذا المربي يخاف من التواصل و يحرمه .

و مع ذلك فإن الحياة الإنسانية يصبح لها معنى فقط من خلال التواصل . و يكتسب

تفكير المعلم مصداقية فقط من خلال مصداقية تفكير الطلاب . المعلم لا يستطيع التفكير نيابة عن طلابه أو يفرض فكره عليهم ، فالتفكير الأصيل ، التفكير المهتم بالواقع ، لا يجري في عزلة برج عاجي ، ولكن في حالة تواصل . و إذا كان حقا أن الفكر يكتسب معنى فقط عندما ينجم عن عمل ينصب على العالم ، يصبح عندئذ خضوع الطلاب للمعلمين أمرا مستحيلا .

و بما أن التعليم "البنكي" يبدأ من فهم خاطئ للناس هو أنهم أشياء ، فإنه لا يستطيع دعم تطور ما يسميه فروم "حب الحياة" (Biophily) ، بل ينتج بدلا من ذلك نقيضه : "حب الموت". يقول فروم :" في الوقت الذي تتميز فيه الحياة بالنمو بأسلوب منظم و عملي ، يبدي الشخص الذي "يشتهي" الموت حبا لكل ما لا ينمو ، لكل ما هو آلي . إن الشخص الذي يحب الموت تحركه الرغبة في تحويل العضوي إلى غير عضوي ، و في التعامل مع الحياة بشكل آلي ، و كأن كل الناس الأحياء هم أشياء ... كل ما له قيمة [بالنسبة له] هو الذاكرة بدلا من التجربة ، التملك بدلا من الوجود . الشخص الذي يحب الموت يستطيع أن يشعر بصلة مع الأشياء – زهرة أو شخص – فقط إذا كان يملكها ، و من ثم فإن أي تهديد لما يملك هو تهديد لشخصه ، و إذا خسر ما يملك يخسر صلته بالعالم ...إنه يحب السيطرة ، و يقوم من خلال عملية السيطرة بقتل الحياة ." (1)

إن الاضطهاد – السيطرة الطاغية المفرطة – هو اشتهاء للموت ، يتغذى من حب الموت ، وليس حب الحياة .و مفهوم التعليم "البنكي" ، الذي يخدم مصالح الاضطهاد ، هو أيضا محب للموت.

فهو ، باستناده إلى نظرة آلية، جامدة، طبيعية و فارغة للوعي ، يحول الطلاب إلى

أشياء "متلقية" ، ويحاول السيطرة على الفكر و العمل ، و يدفع الناس إلى التلاؤم مع العالم و يشل قدراتهم الخلاقة .

أخذ الناس في المعاناة عندما يتم إحباط جهودهم للعمل بشكل مسؤول ، و عندما يجدون أنفسهم غير قادرين على استخدام ملكاتهم الفكرية ، و " تكمن جذور هذه المعاناة الناجمة عن العجز في حقيقة أن التوازن الإنساني قد اختل ." (2) و لكن عدم القدرة على العمل و النشاط التي تسبب ألما شديدا للناس ، تدفعهم أيضا إلى نبذ عجزهم ، و ذلك بمحاولة "...استعادة قدرتهم على العمل

= de la phenomenologie de Husserl: L`intentionalite”, Situation I (Paris, 1947)

(1) اريك فروم ، المصدر المذكور سابقا ، ص 41 .

(2) المصدر نفسه ، ص 31

و النشاط . و لكن هل بمقدورهم و كيف ؟ إحدى الطرق هي الاستسلام إلى و الاقتران بشخص أو مجموعة ذات قوة .و ينكون لدى الناس من خلال هذه المشاركة الرمزية في حياة شخص آخر الوهم بأنهم يعملون و ينشطون،بينما هم في الواقع يخضعون فقط لمن يعملون و يصبحون جزءا منهم." (1)

و لعل التجليات الشعبوية هي أفضل مثال على هذا النمط من سلوك المضطهدين الذين يأخذون في الشعور من خلال اقترانهم بزعماء ذوي "كاريزما" بأنهم نشيطون و فعالون . و دافع التمرد الذي يعبرون عنه لدى ظهورهم في العملية التاريخية هو الرغبة بأن يعملوا بفاعلية . و لكن النخب المسيطرة تعتبر أن العلاج يكمن في المزيد من السيطرة و الاضطهاد ، بإسم الحرية و النظام والسلم الاجتماعي (أي السلام

للنخب) . و هكذا يمكنها شجب – و هو أمر منطقي من وجهة نظرها – "عنف إضراب عمالي ، ودعوة الدولة ، في الوقت ذاته ، إلى استخدام العنف لقمع الإضراب" . (2)

إن التعليم كممارسة للسيطرة ، يحفز سذاجة الطلاب ، و ذلك بدافع أيديولوجي (غالبا لا ينتبه إليه المربون) ، هو تثقيف [الطلاب] بروحية التكيف مع عالم الاضطهاد . هذا الاتهام لا يوجه بدافع أمل ساذج بأن النخب المسيطرة ستتخلى ببساطة بسبب ذلك عن تلك الممارسة. بل إن الهدف هو لفت أنظار ذوي النزعة الإنسانية الحقيقية إلى حقيقة أنهم لا يستطيعون استخدام أساليب التعليم "البنكي" في سعيهم إلى التحرر ، لأنهم إذا فعلوا فسوف يتنكرون لذلك السعي . كما أنه لا يمكن لمجتمع ثوري أن يرث هذه الأساليب من مجتمع قمعي . فالمجتمع الثوري الذي يمارس التعليم "البنكي" إما هو مجتمع مضلل أو يفتقر إلى الثقة بالناس . و في كلتي الحالتين فإنه مهدد بشبح الرجعية .

و لسوء الحظ فإن أولئك الذين يتبنون قضية التحرر محاطون هم أنفسهم بالجو الذي يولّد مفهوم "البنك" و يتأثرون به ، و لا يدركون ، في الغالب ، أهمية ذلك المفهوم الحقيقية أو قدرته على التجريد من الإنسانية . و من ثم فإن من العجيب استخدامهم لأداة "التغريب" هذه نفسها فيما يعتبرونه جهدا من أجل التحرير . في الواقع ، يقوم بعض "الثوريين" بإطلاق صفة "بريئين" و "حالمين" و حتى "رجعيين" على أولئك الذين يشككون في هذه الممارسة التعليمية أو يتحدونها . و لكن المرء لا يحرر الناس بحملهم على "الاغتراب" . فالتحرر الحقيقي – عملية "الأنسنة" – ليس "كماً آخر يجري إيداعه" في الناس . التحرير هو ممارسة (Praxis): عمل الناس و تفكيرهم في عالمهم بهدف تحويله . و أولئك الملتزمون حقا بقضية التحرير لا يمكنهم قبول المفهوم الآلي

للوعي الذي يعتبر الوعي وعاء فارغا لا بد من ملئه ، كما لا يمكنهم قبول استخدام الأساليب "البنكية" للسيطرة (الدعاية، الشعارات و الابداع) بإسم التحرير .

(1)المصدر السابق .

(2)راجع : راينهولد نيبور ، Moral Man and Immoral Society ، (نيويورك ، 1960) ص 130

إن الملتزمين حقا بالتحرير يجب عليهم أن يرفضوا المفهوم "البنكي" كلية ، و تبني بدلا منه مفهوما عن الناس ككائنات واعية ، و عن الوعي كوعي عازم فيما يتعلق بالعالم . يجب عليهم التخلي عن الهدف التعليمي الخاص بـ "الإيداع" و الاستعاضة عنه بطرح مشاكل الناس في علاقا م بالعالم . فالتعليم الذي "يطرح المشاكل" استجابة لجوهر الوعي – القصد و العزم (Intentionality)- يرفض البيانات و يجسد التواصل ، و يحمل الصفة الخاصة المميزة للوعي : أن يكون واعيا لكذا ، و ليس منكبا فقط على الأشياء ، بل واعياً ملتفا على نفسه في "انفصام ياسبري" (1) – الوعي كوعي بالوعي.

و يتألف التعليم التحرري من عملية اطلاع و معرفة ، و ليس من عملية نقل و تحويل للمعلومات . إنه وضع تعليمي "تتوسط" فيه الأشياء التي يمكن أن تعرف (و هي أبعد من أن تكون ابة عملية المعرفة) بين "اللاعبين" في عملية المعرفة – المعلم من ناحية ، و الطلاب من الناحية الأخرى . و بالتالي فإن ممارسة التعليم الذي يطرح المشاكل و القضايا يتطلب في البداية حل التناقض بين المعلم و الطالب ، و إلا ستكون العلاقات الحوارية مستحيلة ، و هي علاقات لا غنى عنها لقدرات "اللاعبين" في عملية المعرفة للتعاون في إدراك الشيء الواحد المعرض للمعرفة .

و في الواقع ، فإن التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا ، و ينسلخ عن الأنماط العمودية التي تميز التعليم "البنكي" ، بوسعه أن يحقق مهمته ، مثل ممارسة الحرية ، فقط إذا استطاع التغلب على التناقض المذكور آنفا. فمن خلال الحوار ينتفي وجود معلم الطلاب و طلاب المعلم ، و يظهر

(1)نسبة إلى كارل ياسبرز (Karl Jaspers) 1883-1969 ، و هو من أبرز فلاسفة الوجودية المسيحية الألمانية. كان يرى في حل المشكلات الأخلاقية مهمة الفلسفة الرئيسية . فالفلسفة عنده مدعوة لا لصياغة نسق من المعارف عن الإنسان و العالم المحيط به ، و إنما للبحث عن سبل "الخلاص" ، و مساعدة الإنسان على الاحتفاظ بشخصيته في عصر سيطرة التكنيك و النماذج الموحدة و التنظيم الصارم للحياة الاجتماعية . و يذهب ياسبرز إلى أن الإنسان، في وجوده الأصيل ، هو أكبر من مجرد نتاج للطبيعة و التاريخ . انه كائن متكامل كلي ، فريد في أصالته ، تشكل الحرية ماهيته الباطنية . ان الوجود يتكشف أمام الإنسان بكل أصالته في لحظات "الإشراق الوجودي" ، في الحالات "الحدية" ، التي تتطلب توتر قواه كافة (النضال ، المرض ، العذاب ، الذنب ، الخوف ، الموت) . ففي هذه اللحظات بالذات يتحرر الفرد من رتابة و يومية الوجود الخارجي الغارق فيه ، بوصفه عضوا في هذه المنظمة الاجتماعية أو تلك ، في "كل" جماعي ما ، و يتوجه إلى عالمه الباطني . بالنسبة لهذا العالم ، وحده ، يكون ثمة معنى للحرية ، التي تتجلى في عزم الإنسان على اختيار نهج معين في السلوك في الحالات الملموسة . و على الإنسان ، إذ يتجرد عن كل ضرورة (قوانين الطبيعة، أو اللزوم الأخلاقي) ، أن يبقى أمينا لذاته ، صادقا مع نفسه ، و أن يهتدي بانفعالاته و أمزجته و ميوله الشخصية . و يتم الاختيار الأخلاقي ، عند ياسبرز ، بصورة لا

شعورية ، لا عقلانية . (راجع لمزيد من المعلومات : "معجم علـم الأخـلاق" – دار التقدم ، موسكو ، 1984) المترجم .

مصطلح جديد : المعلم الطالب مع الطلاب المعلمين . و لا يعود المعلم مجرد الشخص الذي يعلّم ، بل يصبح الشخص الذي يتعلم أيضا في حوار مـع الطـلاب ، الـذين يقومون بدورهم في التعليم في الوقت الذي يتعلمون فيه . و يصبحون مسؤولين عـن عملية ينمون و يكبرون فيها . و في هذه العملية لا يعـود للحجـج القائمـة علـى "السلطة" أية قيمة . فكي تكون "السلطة" قابلة للتطبيق عليها أن تكـون في صـف الحرية لا ضدها . و هنا لا يعلم أحد أحدا ، كما أن المرء لا يعلم نفسه ، بل إن الناس تعلّم بعضها البعض و "يتوسط" العالم بينها ، الأشياء التي هي موضع المعرفة ، التي هي ملك للمعلم في التعليم "البنكي" .

إن المفهوم البنكي (بـ عته إلى تجزئة كل الأشياء و فصمها) يميز بين مرحلتين في عمل المربي: في المرحلة الأولى ، يقوم [المربي] بمعرفة شيء خاضع للمعرفة خـلال إعـداده للدرس في حجرة مكتبه أو في المختبر . و في المرحلة الثانية ، يفسر لطلابه عن ذلـك الشيء ، و لا يطلب إلى الطلاب أن يعرفوا ، بل أن يحفظوا غيبا المحتويات التي سردها عليهم المعلم . و كذلك لا يمارس الطلاب أية عملية معرفة ، بما أن الشيء الذي مـن المفروض أن توجه العملية نحوه هو ملك للمعلم بدلا من "الوسيط" الذي يثير التفكير الانتقادي لكل من المعلم و الطلاب . و هكذا ، يتوفر لنا بإسم "الحفاظ على الثقافة و المعرفة" نظام لا يحقق معرفة حقيقية أو ثقافة حقيقية .

لا يقوم الأسلوب الذي يطرح المشاكل و القضايا بتجزئة نشاط المعلم الطالب : فهـو ليس "العارف" في مرحلة و "الراوي" في مرحلة أخرى . إنه "العارف" دائما ، إن كان

يعد مشروعا أو منهمكا في حوار مع الطلاب . و لا يعتبر الأشياء الخاضعة للمعرفة ملكه الخاص ، بل أشياء للتفكير فيها من قبله و قبل الطلاب . و بهذه الطريقة يقوم التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا بإعادة تشكيل أفكاره باستمرار من خلال تفكير الطلاب . و يصبح الطلاب – الذين لم يعودوا مستمعين خانعين – الآن باحثين مشاركين إنتقاديين في حوار مع المعلم . فالمعلم يقدم المواد للطلاب للنظر فيها، و يعيد النظر في اعتباراته السابقة لدى تعبير الطلاب عن وجهات نظرهم . إن دور المربي الذي يطرح مشاكل و قضايا ، بالاشتراك مع الطلاب ، خلق الظروف التي يمكن في ظلها للمعرفة على المستوى التأويلي (باليونانية:Doxa) أن يحل محلها معرفة حقيقية على المستوى الأسمى (Logos) .

و في الوقت الذي يقوم فيه التعليم "البنكي" بتخدير القدرة الخلاقة و يعيقها ، يقوم التعليم الذي يطرح المشاكل و القضايا بالكشف عن الواقع باستمرار . يحاول الأول الإبقاء على "إغراق" الوعي و طمسه ، بينما يسعى الأخير إلى إبراز الوعي و التدخل الانتقادي في الواقع .

سيشعر الطلاب ، مع ازدياد مواجهتهم للمشاكل و القضايا المتعلقة بهم في العالم و بالعالم أيضا بتحد متزايد ، و باضطرارهم للرد على التحدي . و بما أنهم يفهمون أن التحديات متداخلة مع قضايا أخرى في سياق شامل ، ليس كمسألة نظرية ، فإن محصلة الإدراك من شأنها أن تكون انتقادية بشكل متزايد ، و من ثم أقل اغترابا باستمرار . و سيثير ردهم على التحدي تحديات جديدة، تعقبها تفاهمات جديدة ، و تدريجيا سيأخذ الطلاب في النظر إلى أنفسهم كملتزمين .

و ينكر التعليم باعتباره ممارسة للحرية – بمقابل التعليم كممارسة للسيطرة – أن

الإنسان هو شيء مجرد معزول و مستقل و غير مرتبط بالعالم ، كما ينكر أيضا أن العالم يوجد كواقع بمعزل عن الناس . التفكير الصحيح الأصيل لا يتعامـل مـع الإنـسان كشيء مجرد أو مع العالم من غير ناس . ففي هذه العلاقات الوعي و العالم متلازمان : الوعي لا يسبق العالم و لا يتبعه . "الوعي و العالم وجدا في لحظة واحدة . و العـالم ، خارجيا بالنسبة للوعي ، مرتبط به ."(1)

حدث في إحدى الحلقات الثقافية التي عقدناها في تشيلي ، أن مجموعة كانت تنـاقش (استنادا إلى التصنيف ، و هو موضوع سيرد في الفصل الثالث) المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة .و في منتصف المناقشة ، قال أحد الفلاحين ، الذي يعتبر بالمعـايير "البنكيـة" جاهلا للغاية : "إنني أري الآن أن لا وجود للعالم بدون الإنسان" . فرد المعلم قـائلا : "لنقل من أجل المناقشة أن جميع الناس على وجه الأرض قد ماتوا ، و أن الأرض بقيت بكل ما فيها من أشجار و طيور و حيوانات و أنهار و بحار ونجوم ... ألن يكون كل ذلك عالما ؟" أجاب الفلاح بتأكيد ":لا . لن يوجد أحد يقول أن ذلك عالم."

كان الفلاح يريد أن يعبر عن فكرة أن الوعي بالعالم ، الذي يعني بالضرورة عالم الوعي ، سيكون مفقودا . لا يمكن لـ "أنا" أن توجد من غير وجود الـ "لا أنا" . و بدورها تعتمد الـ "لا أنا" على ذلك الوجود . فالعالم الذي يأتي بالوعي إلى الوجود يصبح عالم ذلك الوعي . و من ثم كان تأكيد سارتر الذي أوردناه سابقا : "الوعي و العالم وجدا في لحظة واحدة."

مع قيام الناس الذين يفكرون بأنفسهم و بالعالم بشكل متزامن ، بزيادة مجال إدراكهم ، يأخذون في توجيه انتباههم إلى الظواهر التي لم يسبق أن لاحظوها :"خلال ما يسمى بالإدراك السليم- بإعتباره وعيا واضحا أتوجه إلى الشيء ، إلى الورقة ، على سبيل

المثال ،. أفهمها على أ ا هي ، هنا و الآن . و الفهم هو تحديد ، إذ لكل "شيء" خلفية في التجربة . فالورقة تحيط ا كتب و أقلام و دواة و إلى ما غير ذلك ، و هي ، بمفهوم معين ، أيضا تم "إدراكها" ، هناك بالإدراك و الحس في "ا ال الوجداني" . و لكـن ، خلال التفاتي نحو الورقة لم يكن هناك التفات في اتجاه تلك الأشياء ، كما لم يتم فهمها ، حتى بحاسة ثانوية ، فقد بانت و لكن لم يجر تحديدها ، لم تظهر بحد ذا ا . فكـل إدراك لشيء ما لديه منطقة خافية من الحس الوجـداني ، أو ادراك للخلفيـة . إذا كـان "الاحساس الوجداني" يشمل حالة "الالتفات نحو" ، و هذا أيضا "تجربة واعيـة" ، أو باختصار "الوعي بـ" كل

(1)جان بول سارتر ، المصدر المذكور سابقا ، ص 32

ما يقع في خلفية الشيء الذي تم إدراكه سوية في الواقع." (1) و يبدأ في "البروز" كل ما يوجد موضوعيا ، و لكنه لم يكن قد تم إدراكه في تداعياته العميقة (إذا كان قـد تم إدراكه بالفعل) ، متخذا طابع مشكلة ، و من ثم تحد . و هكذا يبدأ الناس في إبـراز عناصر من جعبة "إدراكهم الخلفي" والتفكير فيها . و تـصبح هـذه العناصـر الآن موضع اعمال فكر الناس ، و بوصفها كذلك موضع عملهم و معرفتهم .

يطور الناس في التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا قدر م على إدراك الطريقة الـتي يوجدون ا في العالم الذي يجدون أنفسهم معه و فيه بشكل انتقادي. و يتوصلون إلى رؤية العالم ليس كواقع ساكن ثابت على حاله لا يتغير ، بل عالم في إطار عمليـة في حالة تحول . و رغم أن العلاقات الجدلية بين الناس و العالم توجد بشكل مستقل عـن كيفية إدراك تلك العلاقات (أو إن كانت تدرك أو لا تدرك) ،فإن من الصحيح أيضا أن شكل النشاط و العمل الذي يتبناه الناس هو ، إلى حد كـبير ، وظيفـة كيفيـة

إدراكهم لأنفسهم في العالم . و من ثم ، فإن المعلم الطالب ، و الطلاب المعلمين يفكرون في الوقت ذاته بأنفسهم و بالعالم دون فصل هذا التفكير عن العمل ، و يقومون بذلك بإرساء شكل صحيح من التفكير و العمل .

مرة أخرى يتصادم المفهومان التعليميان و ممارستهما عند التحليل . فالتعليم "البنكي" يحاول (لأسباب بديهية)، من خلال إضفاء خرافات على الواقع ، أن يخفي حقائق معينة تفسر طريقة وجود الناس في العالم ، بينما يحدد التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا، كمهمة له، القيام بالتجريد من العناصر الأسطورية . التعليم "البنكي" يقاوم الحوار ، بينما التعليم الذي يطرح المشاكل و القضايا يعتبر الحوار أمرا لا غنى عنه بالنسبة لعملية المعرفة التي تكشف الواقع . التعليم "البنكي" يعامل الطلاب على أنهم أشياء للمساعدة ، بينما التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا يجعل منهم مفكرين انتقاديين . التعليم "البنكي" يمنع الخلق و الإبداع ، و يعمل على تدجين (رغم أنه لا يستطيع التدمير كلية) عزم الوعي بعزل الوعي عن العالم ، و بالتالي يحرم الناس من مهمتهم الأنطولوجية و التاريخية الخاصة بأن يصبحوا أكثر اكتمالا انسانيا . و يرتكز التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا على الخلق والابداع ، و يحفز التفكير الصحيح في الواقع و توجيه العمل له ، و بالتالي الاستجابة إلى مهمة الناس

(1)راجع : ادموند هوسرل ، Ideas—General Introduction to Pure Phenomenology، (لندن ، 1969) ص 105-106 ادموند هوسرل (1859-1938):فيلسوف ألماني من مؤسسي المذهب الظاهري في الفلسفة الذي يدعو إلى الاهتمام بظواهر الأشياء ، لأن الظواهر هي كل ما يمكن معرفته من الحقيقة . اعتبر ذلك المذهب علما محددا و نظرية معرفة في خدمة العلوم الأخرى ، و اهتم

بشكل خاص بنقد المنطق السائد . من أعماله الهامة : "البحث في المنطق" (1900) ، "أفكار في المذهب الظاهري" (1913) ، "تأملات فرطاجية" (1931) ، و"المنطـق السابق السامي اله ه" (1929) – المترجم .

ككائنات تصبح حقيقية و أصيلة فقط عندما تنخرط في البحث و التحول الخـلاق . باختصار : النظرية "البنكية" و ممارسا ا تفشل ، كقوى تبعث على الشلل و الجمود ، في الاعتراف بالناس ككائنات تاريخية ، بينما النظرية التي تطرح مشاكل و قـضايا و ممارسا ا تأخذ كنقطة انطلاق لها "تاريخية" الإنسان .

يؤكد التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا على كون الناس كائنات "في طريقها إلى أن تصبح" – كائنات غير مكتملة و غير كاملة في و مع واقع يشبهها في عدم اكتماله . و في الواقع ، بمقارنة الناس مع الحيوانات الأخرى ، التي هي غير مكتملة أيضا و لكنها غير تاريخية ، يتضح أن الناس يعرفون أ م غير مكتملين ، و هم على درايـة بعـدم اكتمالهم .و تكمن في عدم الاكتمال هذا وفي هذه الدراية، جذور التعليم بحد ذاتـه باعتباره تجليا إنسانيا محضا . ويقتضي الطابع غير المكتمل للناس و كذلك الطابع القابل للتحوير للواقع أن يكون التعليم نشاطا مستمرا .

و هكذا ، تجري إعادة صياغة التعليم بشكل مستمر في الممارسة . فمن أجل أن يكون ، لا بد أن يصبح . و"أجله" (Duration) (بالمعنى البرجسوني (1) للكلمة) يوجد في تفاعل الأضداد : الديمومة و التغيير (Permanence and Change) . الأسـلوب "البنكي" يؤكد على الديمومة و بالتالي يصبح رجعيا ، أما التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا – الذي لا يقبل بحاضر "حسن السلوك" أو بمستقبل مقررا سلفا – يـضرب جذوره في الحاضر الديناميكي ، فيصبح ثوريا .

التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا هو المستقبلية الثورية . لذا فهو تنبؤي (و مفعـم بالأمل لكونه كذلك) ، و من ثم فإنه يتلاءم مع الطبيعة التاريخية للإنسان ، و يؤكـد كون الناس كائنات تتجاوز ذا ا ، يتحركون و يتطلعون إلى الأمام ، و يمثـل عـدم الحركة بالنسبة لهم خطرا مميتا . كما يجب أن يشكل الالتفات إلى الماضي وسيلة فقط لفهم أكثر وضوحا لـ "من" هم، حتى يتسنى لهم بناء المستقبل بشكل أكثر حكمة . و بالتالي ، فإنه [التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا] يقترن بالحركة التي تتعامل مـع الناس على أ م كائنات تدرك عدم اكتمالها – حركة تاريخية لهـا نقطـة انطـلاق و "فاعلين" و "مفعول م" أو "هدفها" .

تكمن نقطة انطلاق الحركة في الناس أنفسهم . و لكن بما أن الناس لا يوجدون بمعزل عن الواقع، يجب على الحركة أن تبدأ من العلاقة بين الناس و العالم . و بالتالي ، يجب على نقطة

(1) هنري برجسون (1809-1941) : فيلسوف مثالي فرنسي ، من مؤسـسي المذهب الوجداني في

الفلسفة الذي يقول بأن المعرفة تأتي إلى الإنسان وجدانيا ، دون تعليم أو تعلم ، و بأن الأشياء الخارجة عن

الذهن يعرف وجودها وجدانيا ، و يجعل من الوجدان السبيل الوحيد لمعرفة "المدة" أو "الأجل" و "الحياة" .

ولا بد في هذا السياق من التمييز بين "المدة" و "الزمن" . تشكل "المدة" غير المادية أو "الأجل" أساس كل

الأشياء . فالمادة و الزمن و الحركة هي الأشكال المختلفة التي ندرك فيها "الأجل" – المترجم

الانطلاق على الدوام أن تكون من الناس في "هنا و الآن" ، التي تشكل الوضع الغارقين هم فيه ، ومنه سيظهرون ، و فيه سيتدخلون . و فقط بالبدء من هذا الوضع – الذي سيقرر إدراكهم له – يمكن للناس أن يأخذوا في الحركة . و يتعين عليهم ، كي يفعلوا ذلك بشكل صادق ، أن يفهموا وضعهم ليس كوضع محتوم و غير قابل للتغيير ، بل كوضع يحد فقط – و من ثم يشكل تحديا .

و في الوقت الذي يعزز فيه الأسلوب "البنكي" ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، إدراك الناس القدري لوضعهم ، يقوم الأسلوب الذي يطرح المشاكل بتقديم هذا الوضع لهم على شكل قضية . ومع تحول الوضع إلى هدف لمعرفتهم ، يتراجع الإدراك الساذج أو السحري الذي ولّد قدريتهم أمام إدراك قادر على إدراك نفسه حتى مع إدراكه للواقع ، و من ثم يستطيع أن يكون موضوعيا بشكل انتقادي حول الواقع .

إن وعيا عميقا بوضعهم يؤدي بالناس إلى فهم ذلك الوضع كواقع تاريخي قابل للتحول . ويتراجع الاستسلام أمام السعي للتغيير و البحث ، تلك الحملة التي يشعر الناس بأنهم يسيطرون عليها.

فلو لم يقم الناس - بصفتهم كائنات تاريخية ، تعمل بالضرورة مع أناس آخرين في حركة للبحث - بالسيطرة على تلك الحركة ، سيشكل ذلك خرقا لإنسانية الناس . و أي وضع يقوم فيه بعض الأشخاص بمنع آخرين من الانغماس في عملية بحث ، هو ، في الواقع ، وضع عنف.و ليس من المهم الوسائل التي تستخدم . إن حمل الناس على

"الاغتراب" عن عملية اتخاذ القرارات الخاصة م هو بمثابة تحويلهم إلى أشياء .

يجب أن توجه حركة البحث هذه نحو "الأنسنة" – التي هي وظيفة الإنسان التاريخية . إلا أن السعي إلى "الإنسانية المكتملة" لا يمكن أن يتم في عزلة أو بشكل فـردي ، و لكن في رفاقية و تضامن. لذا لا يمكن له أن يتفتح في جـو علاقـات عدائيـة بـين المضطهدين و المضطهدين . فليس من امرىء يستطيع أن يكون إنسانا حقيقيا مـا دام يحول بين الآخرين و بين أن يكونوا كذلك . و تؤدي محاولة أن يصبح المـرء أكثـر إنسانية بشكل فردي إلى الحصول على المزيد بشكل أناني : و هي شكل من أشـكال التجريد من الإنسانية . و هذا لا يعني أنه ليس جوهريا أن يمتلك المرء كـي يـصبح إنسانا ، بل لأنه ضروري على وجه التحديد ، يجب عدم السماح لـ "تملك" بعـض الناس بأن يشكل عقبة أمام "تملك" الآخرين ، و يجب عدم تعزيز قوة ا موعـة الأولى كي تقمع ا موعة الثانية .

إن التعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا ، باعتباره ممارسة إنسانية و تؤدي إلى التحرر ، يفترض بأن من المهم قيام الناس الخاضعين للسيطرة بالنضال من أجل تحـررهم . و هو يمكّن المعلمين و الطلاب ، كي يصلوا إلى ذلك الهدف ، من أن يصبحوا "فاعلين" في العملية التعليمية ، و ذلك بالتغلب على السلطوية و ال عة الفكرية "التغريبية" . و يمكّن الناس أيضا من التغلب على الإدراك الخاطئ للواقع .و بالتالي يـصبح العـالم ، الذي لم يعد شيئا يوصف بكلمات خادعة ، هدف ذلك العمل التحويري مـن قبـل الناس ، الذي يسفر بدوره عن "أنسنتهم" .

لا يخدم (كما لا يمكن أن يخدم) التعليم الذي يطـرح مـشاكل و قـضايا مـصالح المضطهدين . فليس بوسع أي نظام قمعي أن يسمح للمضطهدين بأن يبدأوا بالسؤال :

لماذا ؟ و بما أن مجتمعا ثوريا فقط يستطيع أن يطبق هذا التعليم بأسـلوب مثـابر ، لا يحتاج القادة الثوريون إلى تولي السلطة كاملة قبل أن يستخدموا هذا الأسلوب . ففي العملية الثورية ، لا يستطيع القادة استخدام الأسلوب "البنكي" كـإجراء مؤقـت ، مبررين ذلك بحجة ملاءمة ذلك للغرض ، و بأ م ينوون لاحقا التـصرف بأسـلوب ثوري حقا . عليهم أن يكونوا ثوريين – بكلام آخر ، حواريين – منذ البداية .

الفصل الثالث

نكتشف لدى محاولتنا تحليل الحوار كظاهرة إنسانية شيئا هو جوهر الحـوار نفـسه : الكلمة . و لكن الكلمة ، أكثر من كونها مجرد أداة ، تجعل الحوار ممكنـا ، و مـن ثمّ يتعين علينا أن ننشد عناصرها المكونة . نجد في داخل الكلمة بعدين اثنين ، الـتفكير و العمل في تفاعل راديكالي إلى حد أنه إذا تمت التضحية بأحدهما – و لو جزئيا – سيتأثر الثاني حتما . لا توجد هناك كلمة حقيقية دون أن تكون في الوقـت ذاتـه ممارسـة (Praxis) . و هكذا فإن النطق بكلمة حقيقية هو القيام بتحوير العالم .

إن الكلمة غير الحقيقية ، تلك التي تعجز عن تحوير الواقع ، تتـأتى عنـدما يفـرض الانفصام

(Dichotomy) على عناصرها المكونة . و عندما يجري تجريد الكلمة مـن بعـدها الخاص بالعمل يتأثر التفكير بشكل أتوماتيكي ، و تتحول الكلمة إلى ثرثرة عبثية ، إلى تصفيف كلام بلا فائدة ، إلى لغو مغترب و يحمل على الاغتراب ، تصبح كلمة فارغة ، لا تستطيع التنديد بالعالم ، لأن التنديد يستحيل دون التزام بالتحوير ، و لا يوجـد تحوير بلا عمل .

من الناحية الأخرى ، إذا تم التركيز على العمل وحده على حساب التفكير ، تتحول الكلمة إلى نوع مما يمكن تسميته بـ "الجهاد السياسي"(Activism) . هذا المنحـى الأخير – العمل من أجل العمل – ينفي الممارسة الحقيقية ، و يجعـل الحـوار أمـرا مستحيلا . و كلا الإنفصامين يؤديان – بخلق أشكال وجود غير حقيقية – إلى خلـق

أشكال فكر غير حقيقية أيضا تعزز الانفصام الأصلي .

و لا يمكن للوجود الإنساني أن يكون صامتا ، كما أنه لا يمكن أن يتغـذى بكلمـات زائفة ، و لكن بكلمات حقيقية يحور الناس ا العالم. فالوجود - إنـسانيا - هـو أن تسمي (Name) العالم ، أن تغيره . و بعد أن تجري تسميته ، يعود العالم بدوره ؛ إلى الظهور مجددا لمن قاموا بتسميته كمشكلة،و يحتاج منهم إلى تسمية جديدة . إن الناس لم يتم بناؤهم في صمت (1) ، بل بالكلمة والعمل ، بالنشاط و التفكير .

و لكن بما أن قول الكلمة الصحيحة – التي هي العمل و التي هي الممارسـة – هـو القيام

(1) من الواضح أنني لا أتحدث عن صمت التأمل العميق ، الذي كما يبدو فقط أن المرء "يخرج" من العالم ، و

ينسحب منه كي يفكر به في مجمله ، و يكون ؛ هكذا ؛ قد بقي فيه . و لكن هـذا النوع من "الاعتكاف"

يكون حقيقيا فقط عندما يكون المتأمل "منغمسا" في الواقع ، و ليس عندما يكـون الاعتكاف تعبيرا عن

ازدراء للعالم و هربا منه ، في نوع من "مرض الانفصام التاريخي" .

بتحوير العالم ، فإن قول تلك الكلمة ليس امتيازا لبعض الأشخاص قليلي العدد ، بـل هو حق لكل إنسان . و بالتالي ، لا يستطيع أي امرء أن يقول الكلمة الحقيقية بمفرده ، كما أنه لا يستطيع قولها نيابة عن شخص آخر في عمل إيعـازي يـسلب الآخـرين كلما م .

الحوار هو مواجهة بين الناس ، يكون العالم فيه الوسيط ، من أجل تسمية العالم . و من ثم فإن الحوار لا يمكن أن يقع بين أولئك الذين يريدون تسمية العالم و أولئك الذين لا يرغبون في تسميته . بين أولئك الذين يحرمون الآخرين قول كلمتهم و أولئك الـذين حرموا من حقهم في الكلام. فأولئك الذين حرموا من حقهـم الأساسـي في قـول كلمتهم، عليهم أولا استعادة هذا الحق و منع استمرار هذا العدوان الذي يجرد مـن الإنسانية

و إذا كان الناس يقومون بتسمية العالم و تحويره من خلال قول كلمتـهم ، فعندئـذ يفرض الحوار نفسه كالوسيلة التي يحقق الناس من خلالها أهميتهم كأناس . و بالتالي فإن الحوار ضرورة وجودية . و بما أن الحوار هو المواجهة التي يجري من خلالهـا توجيـه الفكر و العمل المتحدين للمتحاورين إلى العالم ، الذي سـيجري تحـويره و إضـفاء الإنسانية عليه ، لذلك لا يمكن اختزال الحوار إلى قيام شخص بـ "إيداع" أفكـار في شخص آخر ، كما أنه لا يمكن أن يصبح مجرد تبادل أفكار "يستهلكها" المتنافشون . و هو ليس تبادل حجج عدائية و جدالا بين أشخاص غير ملتزمين بـ "تسمية" العالم أو بالبحث عن الحقيقة ، بل بفرض "حقيقتهم" الخاصة . و بما أن الحوار هو مواجهة بين أشخاص يقومون بـ "تسمية" العالم ، يجب ألاّ يكون حالة يقوم فيها بعض الأشخاص بـ "تسمية" العالم نيابة عن آخرين . إنه [الحوار] عملية خلق ، و يجب ألاّ يتحول إلى أداة ذكية لسيطرة شخص على آخر . فالسيطرة التي ينطوي عليها الحوار ضمنيا هي السيطرة على العالم من قبل المتحاورين . إنه غزو للعالم من أجل تحرير الناس .

الاّ أن الحوار لا يمكن أن يتوفر في غياب حب عميق للعالم و للناس . فتسمية العـالم ، التي هي عملية خلق و إعادة خلق ،غير ممكنة إذا لم تكن مفعمة بالحب.(1) فالحب هو

، في الوقت ذاته،

(1)إنني أزداد قناعة بأن على الثوريين الحقيقيين أن يستوعبوا الثورة على أنها عملية حب ، بسبب طبيعتها الخلاقة والمحررة . و بالنسبة لي فإن الثورة ، التي لا يمكن أن تتحقق دون نظرية ثورية – و بالتالي علم – لا تتنافى مع الحب.بل على العكس :الثورة يقوم بها الناس من أجل تحقيق إنسانيتهم . فما هو،في الواقع ، الدافع الأقوى من تجريد الإنسان من إنسانيته الذي يمكن أن يدفع الأشخاص لأن يصبحوا ثوريين ؟ إن التشويه المفروض على كلمة "حب" من قبل العالم الرأسمالي لا يمكن أن تمنع الثورة من أن تكون بالأساس "محبة" في طابعها ، كما لا يمكن أن تمنع الثوريين من التأكيد على حبهم للحياة . و لم يخش جيفارا (مع اعترافه "بخطر أن يبدو سخيفا") من تأكيد ذلك : "دعوني أقول - رغم احتمال أن أبدو سخيفا - إن الثوري الحقيقي يهتدي بمشاعر حب عميقة ، فمن الصعب تصور ثوريا حقيقيا ، من غير=

أساس الحوار ، و كذلك الحوار ذاته . و بالتالي ، هو بالضرورة مهمة "فاعلين" مسؤولين ، و لا يمكن أن توجد في علاقة سيطرة ، إذ أن السيطرة تكشف عن الأمراض التي تحل بالحب : السادية فيما يتعلق بالشخص الذي يسيطر ، و التلذذ بالألم و المذلة فيما يتعلق بضحية السيطرة . و لأن الحب هو عملية شجاعة ، و ليس عملية خوف ، فهو التزام بالآخرين . و بغض النظر عن مكان تواجد المضطهدين ، فإن عملية الحب إلتزام بقضيتهم ، قضية التحرر. و هذا الالتزام هو "حواري" ، لأنه مشبع بالحب . و لأن الحب عملية شجاعة لا يمكنه أن يكون عاطفيا ؛ و لكونه عملية تحرر لا يمكن أن يكون مبررا للتلاعب و الغش ؛ بل يجب أن يولّد أعمال تحرر أخرى ،و إلاّ فلن يكون حبا . و من الممكن استعادة الحب فقط بإلغاء وضع الاضطهاد ،

ذلك الوضع الذي جعل الحب أمرا مستحيلا . فإذا لم أحب العالم – إذا لم أحب الحياة – إذا لم أحب الناس ، فلن أستطيع الدخول في حوار .

و من الناحية الأخرى ، لا يمكن للحوار أن يوجد دون تواضع . فتسمية العالم ، ذلك العمل الذي يقوم الناس من خلاله بخلق العالم و إعادة خلقه باستمرار ، لا يمكـن أن تكون عملية عجرفة . وسيتوقف الحوار ، باعتباره مواجهة بين أشخاص منكبين على مهمة مشتركة ، هي اكتساب العلم والعمل ، إذا افتقر إلى التواضع . فكيف بوسعي التحاور إذا كنت ألصق الجهل دوما بالآخرين و لا أدرك على الإطلاق جهلي ؟ كيف بوسعي التحاور إذا كنت أعتبر نفسي مختلفا عن بقية الناس وأعتبر الآخـرين مجـرد "أشياء" لا أجد بينهم "أنا" آخر ؟ كيف بوسعي التحاور إذا كنت أعتبر نفسي عضوا في مجموعة من "الخلصاء" من الناس "الأنقياء" الذين يملكون الحقيقـة و المعرفـة ، و يعتبرون كل من هم ليسوا أعضاء "أولئك الناس" أو "تلك الجموع القذرة" ؟ كيـف بوسعي التحاور إذا كانت نقطة البدء بالنسبة لي هي أن تسمية العالم هي مهمة النخبة و أن وجود الشعب في التاريخ هو علامة على الانحطاط التي يجب تفاديهـا ؟ كيـف بوسعي أن أتحاور إذا كنت رافضا لمشاركة الآخرين – بل إ ا تثير اسـتيائي ؟ كيـف يمكن لي أن أتحاور إذا كنت خائفا من أن أزاح و أعزل ، و يـسبب لي مجـرد هـذا الاحتمال العذاب و الضعف ؟ إن الاكتفاء الذاتي لا يتلاءم مع الحوار . فالأشـخاص الذين يفتقرون إلى التواضع (أو فقدوه) لا يمكنهم التوجه إلى الناس ، لا يمكنـهم أن يكونوا شركاء الناس في تسمية العالم . فمن لا يستطيع أن يقر بأنه آيل إلى الـزوال ، مثله مثل بقية الآخرين ، ما زال أمامه طريق طويل يقطعه قبـل أن يـصل إلى نقطـة المواجهة . و عند نقطة المواجهة لا يوجد جهلة تماما أو حكماء كاملون . هنالك فقط

من يحاولون التعلم معا أكثر مما يعرفونه الآن .

الإضافة إلى ذلك يحتاج الحوار إلى إيمان عميق بالإنسان ، إيمان بقدرته علـى صـنع الأشياء

=أن تكون له هذه الـصفة" . (راجـع : Venceremos-The Speeches and Writings of Che Guevara edited by John Gerassi (نيويـورك ، 1969) ص 398

وإعادة صنعها ، على الخلق و إعادة الخلق ، إيمان بمهمته في أن يصبح أكثر اكتمـالا إنسانيا (الذي هو ليس امتيازا للنخبة ، بل حق بالولادة لجميع النـاس) . إن الإيمـان بالإنسان هو من المقتضيات المسلم ا للحوار . ف "الشخص المحاور" يؤمن بالنـاس الآخرين حتى قبل أن يقابلهم وجها لوجه . إلاّ أن إيمانه لـيس إيمانـا سـاذجا . ف "الشخص المحاور" شخص انتقادي و يعرف أنه رغم قدرة الناس على الخلق والتغيير ، من الممكن أن يعجزوا عن استخدام تلك القدرة في حالة "اغتراب" معينة . و مع ذلك ، وبدلا من أن يحطم هذا الاحتمال إيمانه بالإنسان ، يبدو له كتحد يتعين الرد عليه . و هو مقتنع بأن القدرة على الخلق و التغيير ، حتى و إن جرى إحباطهـا في أوضـاع معينة ، لا بد لها من أن تولد من جديد . و أن تلك الولادة لا يمكن أن تحدث مجاناً ، بل من خلال النضال ، النضال من أجل التحرر و من خلاله – من خـلال حلـول العمال الأحرار محل العمال المستعبدين ، مما يضفي لذة على الحياة . و بـدون هـذا الإيمان بالإنسان، يكون الحوار مهزلة و ينحط بكل تأكيد إلى مصاف التلاعب و الغش الأبوي .

إن الحوار بصفته قائما على الحب و التواضع و الإيمان، يتحول إلى علاقة أفقية عاقبتها المنطقية هي الثقة المتبادلة بين المتحاورين . سيكون ثمة تناقض في التعبير لو لم يسفر الحوار – المُحب المتواضع و المليء بالإيمان – عن خلق هذا الجو من الثقة الذي يؤدي بالمتحاورين إلى شراكة أوثق في عملية تسمية العالم . و بالعكس فمن الواضح إن مثل هذه الثقة مفقودة في ظروف العداء للحوار اللازم لأسلوب التعليم "البنكي" . فبينما الإيمان بالإنسان هو مطلب مسلّم به للحوار ، فإن الثقة يتم بناؤها من خلال الحوار . و إذا تعثرت و سقطت سيتضح أن الشروط كانت مفقودة . فالحب الزائف و التواضع الزائف و الثقة الضعيفة بالإنسان لا يمكن أن تولّد ثقة ، إذ أن الثقة تتوقف على الدليل الذي يقدمه طرف إلى الأطراف الأخرى عن نواياه الحقيقية الملموسة ، و لكنها لن تتوفر إذا كانت أقوال ذلك الطرف لا تتطابق مع أفعاله . فقوله شيء و فعله شيء آخر – جعل المرء أقواله محملا غير جدي – لا يمكن أن يبعث على الثقة . كما أن تمجيد الديمقراطية و تكميم أفواه الناس هو مهزلة ، و كذلك الحديث عن الإنسانية ومن ثم إنكار الإنسان ما هو إلاّ أكذوبة .

لا يمكن للحوار أن يوجد دون وجود أمل . فالأمل متجذر في عدم اكتمال الناس ، عدم الاكتمال ذلك الذي يخرجون منه في عملية بحث مستمر ، بحث يمكن أن يجري فقط في صحبة أناس آخرين . و ما اليأس إلاّ شكل من أشكال الصمت ،شكل من أشكال إنكار العالم و الهروب منه . و ليس التجريد من الإنسانية الناجم عن نظام غير عادل سببا لليأس ، بل يجب أن يدفع إلى الأمل الذي يؤدي إلى سعي دؤوب لتحقيق الإنسانية التي ينكرها الظلم . و لكن الأمل لن يتأتى بتكتيف الأيدي و الانتظار . فما دمت أكافح سيحركني الأمل ، و إذا كافحت و الأمل يحدوني ، فبوسعي ، عندئذ ،

الانتظار . إذ أن الحوار ، باعتباره مواجهة بين أناس يسعون لأن يكونوا أكثر اكتمالا إنسانيا ، لا يمكن أن يجري في جو من اليأس . و إذا كان المتحاورون لا يتوقعون أن تؤتي جهودهم أية ثمار ، ستكون المواجهة فارغة عقيمة، بيروقراطية و متعبة .

و أخيرا لا يمكن أن يجري حوار حقيقي إلاّ إذا قام المتحاورون بالتفكير بشكل انتقادي ، تفكير يفطن إلى أن التضامن بين العالم و الإنسان غير قابل للتجزئة و لا يقر بأي انفصام بينهما ، تفكير يفهم الواقع على أنه عملية تحول ، بدلا من كيان ساكن – تفكير لا يفصل نفسه عن العمل، و ينغمس باستمرار في الدنيوية دون خوف من المخاطر التي ينطوي عليها ذلك . إن التفكير الانتقادي نقيض للتفكير الساذج الذي يرى في "الزمن التاريخي ثقلا ، تراكما و تنضيدا لممتلكات وتجارب الماضي"(1) ، التي يجب أن يبرز الحاضر منها و قد أصبح طبيعيا و "حسن السلوك" . والشيء المهم بالنسبة للمفكر الساذج هو التكيف مع هذا "اليوم" الذي "تطبع" . أما بالنسبة للناقد ، فإن الشيء المهم هو التحوير المستمر للواقع لصالح استمرار "أنسنة" الناس . و كما يقول الكاتب بيير فورتر : "لن يكون الهدف بعد هو إزالة أخطار الدنيوية من خلال التشبث بالفضاء المضمون ، بل القيام بتحويل الفضاء إلى شيء مؤقت ...لا يظهر الكون لي كفضاء يفرض وجودا هائلا ليس لي إلاّ أن أتكيف معه بل كمجال يتشكل عندما ينصب عملي عليه ." (2) و الهدف بالنسبة للتفكير الساذج هو بالتحديد التمسك بهذا الفضاء المضمون و التلاؤم معه ، و بنكرانه للدنيوية يقوم بنكران نفسه أيضا .

إن الحوار وحده ، الذي يتطلب تفكيرا انتقاديا، قادر أيضا على توليد التفكير الانتقادي .فبلا حوار لا يوجد تواصل ، و بلا تواصل لا يمكن أن يوجد تعليم حقيقي

. و التعليم القادر على حل التناقض بين المعلم و الطالب يتم في وضع يقوم فيه الاثنان بتوجيه عملية معرفتهم إلى الشيء الذي يتم من خلاله التوسط لهما . و هكذا ، فـإن الطابع الحواري للتعليم ، باعتباره ممارسة الحرية ، لا يبدأ عندما يتقابل المعلم الطالـب مع الطالب المعلم في وضع تربوي ، بل عندما يسأل الأول نفسه ما الذي سـيتحاور حوله مع الثاني . ومن ثم فإن الاهتمام بمحتوى الحوار هو في الواقع اهتمام بمحتـوى برنامج التعليم .

إن قضية المحتوى بالنسبة للمربي "البنكي" المعادي للحوار تتعلق ببساطة بالبرنامج الذي سيتحدث عنه إلى طلابه ، و يقوم بالإجابة على سؤاله بإعداد و تنظيم برنامجه الخاص . خلافاً للمعلم الطالب المحاور الذي يطرح المشاكل . إن محتوى برنامج التعليم ليس هبة أو شيئا مفروضا – نتفا من المعلومات يجري إيداعها بالطلاب – بل "إعـادة تقـديم" منظمة و منسقة و مطورة لأشياء

(1)من رسالة بعث ا صديق .

(1) بيير فورتر ، Educacao e Vida، (ربو ، 1966) ص 26-27

إلى آخرين يريدون معرفة المزيد عنها . (1)

التعليم الحقيقي لا يقوم به "أ" من الناس لصالح "ب" منهم ، أو "أ" من النـاس عـن "ب" منهم، و لكن يقوم به "أ" مع "ب" و يتوسط العالم بينهما –،عالم يثير إعجـاب الطرفين و يتحداهما ، مما يؤدي إلى بروز وجهات نظر أو آراء حوله.و تنطوي وجهات النظر هذه ، الحبلى بالقلق والشكوك و الآمال أو باليأس ، على مواضيع هامة يمكـن بناء محتوى برنامج التعليم استنادا إليها . وغالبا ما تقوم المشاعر الإنـسانية الـتي تم

التوصل إليها بشكل ساذج – إستجابة لرغبتها في خلق نموذج مثالي "للإنسان الطيب" – بتجاهل الوضع الوجودي الحالي الملموس للناس الحقيقيين . و الإنسانية الحقيقية،كما يقول بيير فورتير "تتألف من السماح بظهور الوعي بإنـسانيتنا الكاملـة كـشرط و كواجب ، كوضع و كمشروع." (2) فنحن لا نستطيع ببساطة الذهاب إلى العمال – الحضريين أو الفلاحين – (3) بالأسلوب "البنكي" لإعطائهم "المعرفـة" ، أو لفـرض نموذج "الإنسان الطيب " عليهم الوارد في البرنامج الذي قمنا نحن أنفـسنا بإعـداد محتواه . فالعديد من البرامج السياسية و التعليمية قد فشلت لأن الذين أعدوها قـاموا بتصميمها وفق نظر م الخاصة للواقع ، و دون أن يأخذوا ، و لـو مـرة واحـدة ، بالحسبان -إلاّ كأهداف لعملهم- الأشخاص الذين هم في الوضع الذي وجه إليه ، كما هو واضح ، البرنامج الذي أعدوه .

إن هدف العمل و النشاط بالنسبة للمربي الإنساني الحقيقي و الثوري الحقيقـي هـو الواقع الذي سيقومان بتحويره سوية مع الناس الآخرين ، و لكن لـيس "الآخـرين" الذين هم أنفسهم . إن المضطهدين هم أولئك الذين يستهدفون في عملهم الناس الذين يلقنو م و يحملو م على التكيف مع واقع يجب أن يظل على ما هو عليه بلا مساس . إلاّ أن القادة الثوريين ، لسوء الحظ ، غالبا ما ينساقون – نتيجة رغبتهم في الحـصول على تأييد الشعب للعمل الثوري – وراء الخط "البنكي" في تخطيط محتوى البرنامج من أعلى إلى أسفل . فهم يتوجهون إلى الفلاحين أو الجماهير في المدن بمشاريع قد تتطابق و نظرا م الخاصة ، و ليس نظرة الشعب إلى العالم .(4) و ينسون أن هدفهم

(1)قال ماو تسي تونج خلال حديث طويل مع مالرو "إنك تعرف أنني قلت منذ فترة طويلة : يجب علينا تعليم الجماهير بوضوح ما تلقيناه منها بشكل مـشوش ." راجـع

:أندريه مالرو Anti-Memoirs (نيويورك 1968) ، ص361-362 .يحتوي هذا التأكيد على نظرية "حوارية" كاملة فيما يتعلق بكيفية إعداد محتوى برنـامج التعلـيم الذي لا يمكن إعداده وفق ما يعتقد المربي أنه الأفضل لطلابه .

(2)فورتير ، المصدر الذي سبق ذكره ، ص 165 .

(3)إن الأخيرين الغارقين ، في العادة في سياق كولونيالي ، يرتبطون ارتباطا لا ينفـصم بعالم الطبيعة ، و يشعرون، بالنسبة له، أ م أجزاؤه المكونة بدلا من كو م من يشكله .

"(4)يتعين على عمالنا المُثقفّين أن يخدموا الشعب بحماس و إخلاص عظيمين،و يجـب أن يرتبطوا بالجماهير وألاّ =

الأساسي هو الكفاح إلى جانب الشعب لاستعادة إنسانية الشعب المسلوبة ، و لـيس "كسب الشعب" إلى صفهم . مثل هذا القول لا يمكن أن ينتمي إلى مرادفات القـادة الثوريين ، بل إلى ما يصدر عن المضطهدين . فدور الثوري هو أن يحرر و يتحرر مـع الشعب، ليس كسب الشعب إلى صفه .

تستخدم النخب المُسيطرة ، في نشاطها السياسي ، المفهوم "البنكي" لتشجيع الـسلبية بين المضطهدين ، مما يتمشى مع وضع وعي الأخيرين "الغارق" ، و يـستغلون تلـك السلبية "لملء" ذلك الوعي بشعارات تولّد مزيدا من الخوف من الحرية.و هذا العمل لا يتلاءم مع ج عمل تحرري حقا ، الذي يـساعد المـضطهدين ، بتقديمـه شـعارات المضطهدين على شكل قضية ، على "لفظ" تلك الشعارات من داخلهم . ففي ايـة المطاف إن مهمة الإنسانيين هي ، بكل تأكيد ، ليس طرح شعارا م ضـد شـعارات

المضطهدين ، مع وجود المضطهدين كأرضية اختبار "تأوي" أولا شعارات مجموعة ، ثم شعارات ا موعة الثانية، بل على العكس إن مهمة الإنسانيين هي أن يعي المضطهدون حقيقة أ م لن يتمكنوا ، ككائنات ذات ازدواجية "تأوي" في داخلها المضطهدين ، من أن يصبحوا إنسانيين حقا .

تعني هذه المهمة أن القادة الثوريين لا يذهبون إلى الشعب من أجل أن يحملوا له رسالة "الخلاص" بل كي يعرفوا من خلال الحوار معه وضعه الموضوعي و وعيه بذلك الوضع – المستويات المختلفة لإدراكهم لأنفسهم و للعالم الذين يوجدون فيه و معـه . و لا يمكن للمرء أن يتوقع نتائج إيجابية من برنامج عمل تعليمي أو سياسي يفشل في احترام النظرة الخاصة للعالم التي يحملها الشعب ، فمثل هذا البرنامج يشكل غزوا ثقافيا ، رغم النوايا الطيبة .

يجب أن تكون نقطة البدء في إعداد محتوى برنامج العمل التعليمي أو الـسياسي هـي الوضع الوجودي الحالي الملموس ، الذي يعكس تطلعات الشعب . و يجـب علينـا ، باستخدامنا بعض التناقضات الأساسية - طرح هذا الوضع الوجودي الملموس الحـالي على الشعب كمشكلة تتحداه

=يباعدوا بينهم و بين الجماهير . و كي يحققوا ذلك ، يجب علـيهم العمـل وفـق احتياجات الجماهير و رغبا ا . فكل عمل يتم لصالح الجماهير يجـب أن يبـدأ مـن احتياجا ا ، و ليس من رغبة أي فرد ، مهما كانت نواياه حسنة . و غالبا ما يحدث أن الجماهير تحتاج موضوعيا لتغيير معين ، و لكنها ذاتيا ليست واعية ـذه الحاجـة ، و ليست مستعدة أو مصممة على القيام بالتغيير . في مثل هذه الحالات يـتعين علينـا الانتظار بصبر . يجب ألاّ نقوم بالتغيير إلى أن تعي غالبية الجماهير ، من خلال عملنا ،

بالحاجة إلى التغيير و تبدي الاستعداد و تقرر القيام به ، و إلاّ سنعزل أنفسنا عن الجماهير ... يوجد هنا مبدآن : الأول هو الاحتياجات الفعلية للجماهير بدلا مما نتصور نحن أنها تحتاجه، و الثاني هو رغبات الجماهير التي يجب أن تقرر ، بدلا من أن نقوم نحن بحملها على التقرير . من : Selected Works of Mao-Tse Tung, Vol. III. "The United Front in Cultural Work", (October 30,1944), (Peking, 1967) – ص 186-187

و تتطلب ردا ، ليس على المستوى الفكري فحسب ، بل أيضا على مستوى العمل و النشاط .(1)

و يجب علينا ألاّ نتحدث أبدا عن الوضع الحالي ، و ألاّ نقدم للشعب برامج لها صلة ضعيفة أو لا صلة لها على الإطلاق باهتماماته و شكوكه و آماله و مخاوفه – برامج تزيد أحيانا ، في الواقع ، مخاوف الوعي المضطهد . فليس من دورنا أن نتحدث للشعب عن رؤيتنا للعالم ، أو أن نحاول فرض تلك الرؤية عليه ، بل علينا أن نتحاور مع الشعب عن رؤيته و رؤيتنا . يجب علينا أن ندرك أن رؤية الشعب للعالم ، التي تنعكس بأشكال مختلفة في أعماله ، تعكس وضعه في العالم . و العمل التعليمي والسياسي الذي لا يدرك بشكل انتقادي هذا الوضع، يواجه خطرا إما أن يكون "بنكيا" أو أن يقوم بالتبشير في الصحراء .

و غالبا ما يتكلم المربون و الساسة و لكن لا يتم فهمهم؛ لأن اللغة التي يستخدمونها لا تتمشى مع الوضع الملموس للأشخاص الذين يخاطبونهم . و بالتالي ، يكون كلامهم مجرد بلاغة "مغتربة" و تدفع إلى الاغتراب . فلغة المربي أو السياسي (يبدو من

الواضح أكثر فأكثر أنه يتعين على الأخير أن يصبح هو أيضا مربيا بـالمعنى الواسـع للكلمة) ، مثلها مثل لغة الشعب ، لا يمكن أن توجد دون تفكير ، كما أنه لا يمكن أن توجد اللغة أو الفكر دون بنية مرجعية . و يتعين على المـربي و الـسياسي ، كـي يتواصلا [مع الناس] بشكل فعال ، أن يفهما الظروف البنيوية التي يجري فيها تشكيل فكر و لغة الشعب جدليا .

يجب علينا التوجه إلى الواقع الذي يتوسط بين الناس ، و إلى إدراك ذلك الواقع لـدى المربين و لدى الشعب ، حتى نجد محتوى برنامج التعليم . فالبحث والتمحيص فيمـا أطلقت عليه اسم "الكون ذي الموضوعات" (2) (Thematic Universe) – وهو مركب "الموضوعات المنتجة"

(Generative Themes) لديهم – يدشن حوار التعليم ، باعتباره ممارسة للحريـة .و يجب أن يكون منهاج البحث كذلك منهاج حوار ، يتـيح الفرصـة لاكتـشاف "الموضوعات المنتجة" و لحفز وعي الناس فيما يتعلق بتلك الموضوعات . و تمشيا مـع الهدف التحرري للتعليم الحواري فإن الإنسان ليس هدف البحث و الاستقصاء (كأن الناس هي قطع للتشريح) ، بل لغة الفكر التي يستخدمها الناس في الحديث عن الواقع ، و المستويات التي يقومون فيها بإدراك ذلك الواقع ، و رؤيتهم للعالم الذي يجري فيه العثور على موضوعا م المنتجة .

و قبل الإقدام على وصف "الموضوعات المنتجة" بدقة أكثر ، والذي سيوضح أيضا ما هو

(1)سيتناقض قيام الإنسانيين الحقيقيين باستخدام الأسلوب "البنكي" مع طبيعتهم ، مثل

تناقض اليمينيين مع أنفسهم إذا ما استخدموا التعليم الذي يطرح مشاكل و قـضايا. (إلاّ أن اليمينيين ثابتو المنهج على الدوام ، فهم لا يستخدمون على الإطلاق التربيـة التي تطرح مشاكل و قضايا.)

(2)يستخدم تعبير "الموضوعات ذات المغزى" بالدلالة نفسها .

المقصود بـ "الحد الأدنى من الكون ذي الموضـوعات" (Minimum Thematic Universe) يبدو لي أنه من الضروري تقديم بعض الأفكـار الأوليـة . إن مفهـوم "الموضوع المنتج" ليس مفهوما اعتباطيا ، وليس فرضيةً للعمل يجب إثباتها . فلو كان فرضية لا بد من إثباتها ، لحاول البحث الأولي عدم تأكيد طبيعة الموضوع ، ولحـاول بدلا من ذلك إثبات وجود أو عدم وجود الموضوعات نفـسها . و في تلـك الحالـة سنضطر أولا إلى التحقق مما إذا كانت حقيقة موضوعية أم لا ، قبل أن نحـاول فهـم الموضوع بكل غناه ، فهم أهميته ، و تعدديته و تحولاته و تكوينه التاريخي . عندئذ فقط سنتمكن من المُضي إلى فهم الموضوع . و على الرغم من أن اتخاذ موقف شك يتحلى بالانتقاد أمر مشروع ، فإنه يبدو أنه من الممكن التحقق من حقيقة الموضوعات المنتجة – ليس فقط من خلال تجربة المرء الوجودية ، بل أيضا من خلال التفكير الانتقادي في العلاقة بين الإنسان و العالم و كذلك في العلاقات بين الناس الواردة ضمنيا في العلاقة الأولى .

تستحق هذه النقطة مزيدا من التوضيح . قد يذكر المرء – رغم ما في ذلك من تكرار – أن الإنسان هو الوحيد من بين كل الكائنات غير المكتملة ، الذي يتعامل ليس فقط مع أعماله بل أيضا مع نفسه ذاتها كميدان لتفكيره . و تميزه هذه القدرة عن الحيوانات ، التي هي غير قادرة على فصل نفسها عن نشاطها ، و بالتالي غير قادرة على التفكير

ا . تكمن في هذا الفرق السطحي الظاهر ، الحدود التي تحد عمل كل منهم في مجال حياته . و لأن نشاط الحيوانات هو امتداد لذا ا ، فإن نتائج ذلك النشاط هي أيضا لا يمكن فصلها عن ذا ا : الحيوانات لا تستطيع تحديد أهداف ، و لا تستطيع أيـضا أن تضفي على تغييرها للطبيعة أية أهمية تتجاوز ذا ا . بالإضافة إلى ذلك ، لا يعود "قرار" القيام ـذا النشاط إليها ، بل إلى فصائلها . و من ثم فإن الحيوانات هي مـن حيـث الجوهر "كائنات في ذا ا لا تتعداها" .

إن الحيوانات لا تقدر أن تقرر لنفسها ، كما أ ا لا تستطيع "موضعة" ذا ا أو نشاطها ، و تفتقر إلى أهداف تحددها هي بنفسها ، و تعيش "غارقة" في عـالم لا تـستطيع أن تضفي عليه معنى ، و تفتقر إلى "الغد" و إلى "اليوم ،لأ ا توجد في حاضـر طـاغ ، و بالتالي فهي "لا تاريخية" . و حيا ا "اللا تاريخية" لا تحدث في "العالم" ، بمعناه الـدقيق الحرفي . فالعالم بالنسبة للحيوانات لا يشكل "لا أنا" الذي بوسعه أن يميزه على اعتباره "أنا" . أما عالم الإنسان ، الذي هو تاريخي ، فإنه يشكل مجرد دعامة "للكائن في ذاته" . و الحيوانات لا يجري تحديها من قبل التناسق الذي يواجهها ، بل تنهيج فقط . و حيا ا ليست حياة مجازفة ، لأ ا لا تعي الإقدام على ا ازفة . فا ازفات ليـست تحـديات يجري إدراكها بعد تفكير ، بل يتم "ملاحظتها و تسجيلها" فقط عبر الدلائل التي تشير إليها . و بالتالي فإن الحيوانات لا تحتاج إلى ردود فعل اتخاذ قرارات .

و من ثم ، فإن الحيوانات لا تستطيع أن تلتزم . فظرفها اللاتاريخي لا يسمح لها بـأن "تتعامل" مع الحياة ، و لأ ا لا تستطيع "التعامل مع الحياة" فهي لا تستطيع بناؤها ، و بما أ ا لا تبني الحياة فإ ا لا تستطيع تحوير تناسقها . كما أ ا لا تـستطيع معرفـة أن الحياة تدمرها نفسها لأ ا غير قادرة على توسيع عالمها "الركيزة" إلى عالم رمـزي لـه

معنى و يحتوي ثقافة و تاريخا . ونتيجة لذلك لا تضفي الحيوانـات "حيوانيـة" علـى تناسلها كي تضفي "حيوانية" على نفسها، كما أ ا لا تجرد نفسها من "حيوانيتها". و تظل حتى في الغابة "كائنات في ذا ا" ، حيوانات هناك كما هي في حديقة الحيوانات.

و بالمقابل، فإن الناس – واعون بنشاطهم و العالم الذي يوجدون فيـه ، و عـاملون تطبيقا للأهداف التي يحددو ا ، و مالكون لمركز قرارا م في داخل ذا م ، و مـشبعو العالم ، في علاقا م به و بالآخرين ، بحضورهم الخلاّق من خلال التغيير الذي يدخلونه عليه – و خلافا للحيوانات ، لا يعيشون فقط ، بل لهم وجـود (1) ، و وجـودهم تاريخي . أما الحيوانات فتعيش حيا ا في "ركيزة" لا زمنية مسطّحة رتيبة ، بينما الناس يعيشون في عالم يقومون على الدوام بإعادة خلقه و تحويره . أما بالنسبة للحيوانات فإن "هنا" هو مجرد "موطن" تحتك به ، بينما "هنا" يعني بالنسبة للناس ليس فقـط فـضاءا ماديا ، بل أيضا فضاءا تاريخيا .

و بكلام دقيق ، لا وجود [لمفاهيم] "هنا" و "الآن" و "غـدا" و "الأمـس" بالنـسبة للحيوانات التي تفتقر حيا ا المقررة كلية إلى وعي ذاتي . و لا تستطيع الحيوانات تخطي الحدود المفروضة عليها من قبل "هنا" و "الآن" و "هناك" .

إلاّ أن الناس يوجدون في علاقة جدلية بين تقرير الحدود و بين حريتهم ، و ذلك لأ م مدركون لذا م ، و بالتالي للعالم – لأ م كائنات واعية .و مـع إقـدامهم على فصل أنفسهم عن العالم الذي يقومون بـ "موضعته"،و مع إقدامهم على فـصل أنفسهم عن نشاطهم ، ومع إقدامهم على وضع مركز اتخاذهم القرارات في ذا م و في علاقا م بالعالم و بالآخرين ، يتغلب الناس على الأوضاع التي تحـدهم أو تقيـدهم : "الأوضاع التي تحد". (2) و عندما يدرك الناس أن هذه الأوضاع هي قيود و عقبات

أمام تحررهم ، فإن هذه الأوضاع تبرز بارتياح من الخلفية و تكشف عن طبيعتها

(1) اكتسبت كلمتا "تحيا" (Live) و "وجود" (Exist)معاني مغـايرة في اللغـة الإنجليزية لأصولهما في علم

الاشتقاق . و كلمة "حياة" هي أكثر ارتباطا بالأمور الأساسية تعني "العيش" فقط . أما "وجود" فهي تشير

إلى انغماس أعمق في أن يصبح المرء و يغدو .

(2) يحلل البروفيسور ألفارو فييرا بينتو بوضوح موضوع "الأوضاع الـتي تحـد" مستخدما المفهوم الموجود أصلا

في ياسبرز ، بدون الجانب التشاؤمي . فبالنسبة له إن "الأوضاع التي تحد" ليست "الحدود التي لا يمكن تخطيها

و حيث تنتهي الإمكانيات ، بل الحدود الحقيقية حيث كل الإمكانيات تبـدأ ." إ ا ليست "الحدود التي تفصل بين 'أن تكون' و 'اللاشيء' ، بل الحدود التي تفصل بين 'أن تكون' و 'أن تكون أكثر' . راجع : =

الحقيقية كأبعاد تاريخية ملموسة لواقع محدد . و يرد الناس على التحدي بأعمال يطلق عليها فييرا بينتو اسم "أعمال تحد": تلك الأعمال الموجهة إلى نفي "المحدد" و التغلـب عليه بدلا من قبوله بشكل سلبي.

و هكذا فإ ا ليست الأوضاع التي تحد بذا ا و بمبادرة منها هي ما تخلـق جـوا مـن اليأس، بل [إن ما يخلق ذلك] هي الطريقة التي يجري ا استيعاب [تلك الأوضاع] في

لحظة تاريخية معينة من قبل الناس : إذا كانت تبدو كقيود أو كعقبات لا يمكن التغلب عليها . و بما أن الإدراك الانتقادي يتجسد في النشاط ، فإن جوا من الأمل و الثقـة ينمو و يحمل الناس على محاولة التغلـب علـى الأوضـاع الـتي تحـد (Limit-situations) . و يمكن تحقيق هذا الهدف فقط عبر تركيز العمل على الواقع التاريخي الملموس الذي تتواجد فيه الأوضاع التي تحد تاريخيا . و مع تحوير الواقع و اسـتبدال هذه الأوضاع ، سيظهر واقع و أوضاع جديدة تثير بحد ذا ا أعمالا تحد جديدة .

لا يحتوي عالم الحيوانات "الركيزة" على أية أوضاع تحد ، و ذلـك بـسبب طابعـه اللاتاريخي . و كذلك تفتقر الحيوانات إلى القدرة على ممارسة الأعمال التي تحد ، التي تتطلب موقفا حاسما إزاء العالم : الانفصال عن و "موضعة" العالم من أجـل تحـويره . فالحيوانات المرتبطة ارتباطا عضويا بـ"ركيز ا" لا تميز بين نفسها و بـين العـالم . و بالتالي ، فإن الحيوانات لا تحد بأوضاع تحد – التي هي تاريخيـة - ، بـل بمجمـل "الركيزة" (Prop) . و الدور المناسب للحيوانات هو ليس ألاّ ترتبط وتعتمد علـى ركيز ا (في تلك الحالة ستكون الركيزة عالما) ، بل التكّيف معه . و مـن ثم عنـدما "تنتج" الحيوانات عشا ، خلية ، أو جحرا ، فإ ا لا تقوم بخلق منتج ينجم عن "أعمال تحد" ، أي ردود فعل تحويرية. إن نشاطها الإنتاجي يخضع لتلبية ضرورة مادية ، هـي ببساطة تحفز و لا تتحدى . "إن إنتاج الحيوان يعود على الفور إلى جـسمه المـادي ، بينما الإنسان يقوم بمواجهة منتجة بحرية .(1)

إن المنتجات التي تنجم عن نشاط كائن فقط و لا تمت إلى جسده المادي (رغم أن هذه المنتجات قد تحمل بصماته) تستطيع أن تضفي بعدا ذا معنى على السياق ، الذي يصبح بالتالي عالما . فالكائن القادر على إنتاج من هذا القبيل (و بالتالي يدرك بالضرورة ذاته

هو "كائن من أجل ذاته") لا يمكنه أن يكون إن لم يكن في عملية الوجود في العالم الذي ينتمي إليه . تماما كما أن العالم لن يوجد إذا لم يوجد هذا الكائن .

و الفرق بين الحيوانات – التي لا تستطيع خلق منتجات منفصلة عن ذاتها (لأن نشاطها لا يشكل أعمال تحد) – و الناس – الذين يخلقون من خلال عملهم المنصب على العالم مجالا ثقافيا و تاريخياً- هو أن الأخيرين فقط هي كائنات الممارسة . إن الناس فقط هم ممارسة – الممارسة التي هي

=الفارو فييرا بينتو Consciencia e Realidade Nacional (ريو دي جانيرو1960) المجلد الثاني ص284

(1) راجع : كارل ماركس ، Economic and Philosophical Manuscripts of 1844 ، تحرير ديرك سترويك (نيويورك ، 1964) ، ص 113.

تفكير و عمل يغيران العالم حقا ، و هي مصدر المعرفة و الخلق . و عمل الحيوانات ، الذي يجري من غير ممارسة ، ليس خلاقا ، بينما نشاط الإنسان التحويري هو خلاق .

إن الناس ، لكونهم كائنات تعمل على التغيير، و تخلق ، يقومون في علاقاتهم الدائمة بالواقع، بإنتاج ليس فقط سلعا مادية – أشياء ملموسة – بل أيضا مؤسسات اجتماعية ، أفكارا و مفاهيم. (1) و يقوم الناس من خلال ممارستهم المستمرة بخلق تاريخ بشكل متزامن ، فيصبحون كائنات اجتماعية تاريخية. بالإضافة إلى ذلك يستطيع الناس – بالمقارنة مع الحيوانات – من إضفاء أبعاد ثلاثة على الزمن : الماضي و الحاضر و المستقبل ، كما أن تاريخهم ، تطبيقا لما يقومون بخلقه ، يتطور كعملية تغيير مستمرة ،

تتحقق في إطارها وحدات من الحقبات . و هذه الوحدات ليست مراحل زمنية مغلقة ، أقساما يجري فيها حصر الناس . فلو كان الأمر كذلك ، سينتفي شرط أساسي من شروط التاريخ : إستمراريته . بل على العكس تتواصل وحدات الحقبات في استمرارية تاريخية ديناميكية.(2)

تتميز الحقبة بمجموعة من الأفكار و المفاهيم و الآمال و القيم و التحديات في تفاعل جدلي مع كل ما يشكل نقيضها ساعية نحو الكمال . و يشكل التجلي الملموس للعديد من هذه الأفكار والقيم و المفاهيم ، و كذلك العقبات التي تعيق "أنسنة" الإنسان الكاملة ، موضوعات الحقبة . وتتضمن هذه الموضوعات مواضيع أخرى معارضة أو متناقضة . و تشير أيضا إلى مهام يجب القيام ا و إنجازها . و هكذا ، لا يمكن للموضوعات التاريخية على الإطلاق أن تكون معزولة ، مستقلة أو غير مترابطة أو ساكنة . إ ا على الدوام تتفاعل جدليا مع نقيضها . و لا يمكن أيضا العثور على هذه الموضوعات في أي مكان باستثناء العلاقة بين الإنسان و العالم . و يشكل مركب المواضيع المتفاعلة لحقبة ما "الكون الخاص بموضوعا ا" .

و لدى مواجهة هذا "الكون من الموضوعات" في تنافض جدلي ، يتخذ الناس أيضا مواقف متناقضة : يعمل البعض للحفاظ على الهياكل ، و يعمل آخرون على تغييرها . و مع تعمق الخصومة بين الموضوعات ، التي هي تعبير عن الواقع ، يبدو ميل إلى تحويل الموضوعات و كذلك الواقع إلى خرافة ، فيوجد جوا من اللاعقلانية و الانعزالية . و يهدد هذا الجو بإفراغ الموضوعات من أهميتها الأعمق و حرما ا من جانبها الديناميكي المميز . و في وضع من هذا القبيل تصبح اللاعقلانية ذا ا، التي تخلق الخرافات، موضوعا جوهريا ، و يسعى الموضوع المناقض لها ، النظرة الإنتقادية والديناميكية

للعالم ، إلى الكشف عن الواقع و إماطة اللثام عن عملية تحويله إلى خرافة ، و تحقيـق إنجاز كامل للمهمة الإنسانية : التحول الدائم للواقع لصالح تحرر الإنسان .

(1) راجع بشأن هـذه النقطـة كـارل كوسـيك ، Dialetica de la Concreto (المكسيك ، 1967)

(راجع حول موضوع الحقبـات التاريخيـة هـانز فرايـر Teoria de la epoca atual(المكسيك)

و في التحليل النهائي ، تحتوي الموضوعات (1) (Themes) على أوضاع تحد ، كما تحتوى فيها أيضا .و المهام التي تطرحها تتطلب أعمال تحد . و عندما يجـري إخفـاء الموضوعات نتيجة للوضع الذي يحد و بالتالي لا يجري إدراك المهام المطلوبة بوضـوح – ردود الناس على شكل عمل تاريخي – فإنه لا يمكن إنجاز تلك المهام إنجازا حقيقيا و بشكل انتقادي . و لا يتمكن الناس في هذا الوضع من تجاوز الأوضـاع المقيـدة و اكتشاف أن وراء هذه الأوضاع – و في تناقض معها - تكمن إمكانيات لم تجـرب (Untested Feasibility) .

باختصار إن الأوضاع المقيدة تعني وجود أشخاص تخدمهم هذه الأوضاع بشكل مباشر أو غير مباشر ، و كذلك وجود آخرين تنكرهم و تكبح جمـاحهم. و لـدى إدراك الأخيرين لهذه الأوضاع على أ ا الحدود الفاصلة بين "الوجود" و "الوجـود الأكثـر إنسانية" ، بدلا من أن تكون الحدود بين "الوجود " و "اللاشيء" ، يأخذون في توجيه أعمالهم الإنتقادية المتزايدة نحو تحقيق الإمكانية غير ا ربة الواردة ضمنيا في ذلك الفهم . و من الناحية الأخرى ، ينظر أولئك الذين يخدمهم الوضع المقيد الحالي إلى الإمكانية

غير ا ربة على أ ا وضع مفيد ينطوي على ديد ، و يجب عدم السماح بصيرورته ، و يعملون للحفاظ على الوضع القائم . و من ثم ، لا بد للأعمال التحرريـة المنـصبة على محيط تاريخي من أن تتطابق ليس فقط مع الموضوعات المنتجة ، بـل أيـضا مـع الطريقة التي يجري فيها إدراك هذه الموضوعات . و يحتوي هذا المطلب ، بدوره ، على مطلب آخر : دراسة وتفحص الموضوعات ذات الدلالة و المعنى .

يمكن أن تتواجد الموضوعات المنتجة في دوائر لهـا مراكـز مـشتركة مـع غيرهـا (Concentric Circles) ، تنتقل من العام إلى الخاص . و تحتوي وحـدة الحقبـة الأوسع التي فيها سلسلة مختلفة من الوحدات والوحدات الفرعية – قارية ، إقليمية ، قومية ، و إلى ما غير ذلك – على موضوعات ذات طابع عام و شامل . أنا شخـصيا أعتبر أن موضوع حقبتنا الجوهري هو السيطرة – الأمر الـذي يـشمل نقيـضها، موضوع التحرر كهدف لا بد من تحقيقه . إن هذا الموضوع المؤلم و المؤرق الذي يعطي لحقبتنا طابعها الأنثروبولوجي الذي سبق ذكره . و من الضروري للغاية التغلب علـى الأوضاع المقيدة التي يجري فيها اختزال الناس إلى مجرد أشياء من أجل تحقيق "الأنسنة" التي تفترض تصفية الاضطهاد الذي يجرد من الإنسانية .

و نجد في الدوائر الأصغر موضوعات و أوضاعا مقيدة تميز ا تمعات (في القارة ذا ا أو في قارات مختلفة) التي تشترك من خلال هذه الموضوعات و الأوضـاع المقيـدة في أشياء تاريخية متشا ة . فعلى سبيل المثال ، إن التخلف ، الذي لا يمكن فهمه بمعـزل عن علاقة التبعية ، يمثل وضعا مقيدا يميز

(1)أطلقت على هذه الموضوعات صفة "المنتجة" لأ ا - بغض النظر عن كيفية التوصل إلى فهمها و العمل الذي قد تدفع إليه- تحتوي على إمكانية التفتح إلى العديـد مـن

الموضوعات ، التي تستدعي بدورها إنجاز مهام جديدة .

مجتمعات العالم الثالث . و المهمة التي يطرحها هذا الوضع المقيد هي التغلـب علـى العلاقة المتناقضة لهذه ا تمعات "الأشياء" مع ا تمعات المتقدمة .و تشكل هذه المهمة الإمكانية غير ا ربة للعالم الثالث .

و يحتوي أي مجتمع محدد يقع داخل وحدة الحقبة الأوسع على موضوعاته الخاصـة ، وأوضاعه المقيدة الخاصة أيضا، إضافة إلى الموضوعات العامة الـشاملة و القاريـة و التاريخية المتشا ة . ويمكن العثور في الحلقات الأصغر على تباين في الموضـوعات في إطار ا تمع الواحد ، مقسمة إلى مناطق و مناطق فرعية ، و لجميعها صـلة بالكـل الاجتماعي . و تشكل هذه وحدات حقبة فرعية . فعلى سبيل المثال ، بوسع المرء أن يجد في إطار الوحدة القومية الواحدة "تعايشا بين غير متزامنين".

و يمكن في إطار هذه الوحدات الفرعية إدراك الأهمية الحقيقية للموضوعات القومية أو عدم إدراكها . و قد يتم ببساطة الشعور ا أو تلمسها – وحتى في بعـض الأحيـان لايتم ذلك . إلاّ أنه من المستحيل كلية عدم وجود موضـوعات داخـل الوحـدات الفرعية . فحقيقة أن أفرادا في بعض المناطق لا يدركون موضوعا منتجـا ، أو أ ـم يدركونه بطريقة مشوهة ، إنما يكشف عن وضع الاضطهاد المقيد الذي يجـد النـاس أنفسهم غارقين فيه.

و عموما ، إن الوعي الخاضع للسيطرة الذي لم يدرك بعد الوضع المقيد بكليته سيفهم فقط "الظواهر المصاحبة" (Epiphenomena) و يحول إليها القوة الرادعة التي هي من صفات الوضع المقيد (1) . هذه الحقيقة مهمة للغاية بالنسبة لدراسـة و تفحـص

الموضوعات المنتجة . فعندما يفتقر الناس إلى فهم انتقادي لـواقعهم ، و يأخـذون في استيعابه كأجزاء لا يدركون أ ا عناصر تتفاعل و تكون الكل ، ليس بمقـدورهم أن يعرفوا الواقع حقا . عليهم كي يفهموا الواقع حقا أن يعكـسوا نقطـة انطلاقهـم : سيحتاجون إلى أن تتوفر لديهم رؤية كاملة للسياق حتى يتمكنوا بالتالي من فـصل و عزل عناصره [الكل] المكونة ، و من خلال ذلك تحقيق فهم أوضح للكل .

من المناسب ، و بالدرجة ذا ا ، لمنهاج البحث في الموضوعات و للتعليم الذي يطرح مشاكل و قضايا أن يقدم هذا الجهد أبعادا مهمة لسياق واقع الفرد الـذي سـيمكنه تحليله من التعرف على التفاعل بين مختلف المكونات . و يجب ، في الوقت ذاته ، إدراك الأبعاد الهامة ، التي هي بدورها تتكون من أجزاء تتفاعل ، كأبعاد للواقع الكلـي .و ذه الطريقة، فإن تحليلا انتقاديا لبعد وجودي هام

(1)غالبا ما يعكس أفراد من الطبقة الوسطى هذا النوع من السلوك ، رغم اخـتلاف الطريقة عن الفلاحين .فخوفهم من الحرية يدفعهم إلى إقامة آليات دفاعية و مسوغات تخفي الجوهر و تؤكد على العرضي و تنكر الواقع الملموس . ويجنحون ، في مواجهـة مشكلة قد يؤدي تحليلها إلى إدراك غير مريح للوضع المقيد ، إلى البقاء على أطـراف النقاش ومقاومة أية محاولة للوصول إلى قلب المسألة ، و حتى أ م ي عجون عنـدما يشير أحد إلى اقتراح جوهري يفسر الأمور العرضية أو الثانوية التي كـانوا يـضفون عليها أهمية أولية .

يمكن من التوصل إلى موقف انتقادي جديد من الوضع المقيد . فيتم تصحيح إدراك و فهم الواقع ويكتسبان عمقا جديدا . و عندما تتم دراسة و استقصاء الموضوع المنتج الوارد في "الحد الأدنى للكون ذي الموضوعات" (الموضوعات المنتجة في حالة التفاعل)

، يقوم البحث بتعريض الناس أو البدء في تعريضهم لشكل انتقادي من التفكير عن العالم .

و لكن في حالة قيام الناس بإدراك الواقع على أنه كثيف ، لا يمكن إختراقه يصبح من الضروري المضي بالبحث بوسائل التجريد . و هذا الأسلوب لا يعني تحويل "الملموس" إلى تجريد (الأمر الذي سيعني نفي طبيعته الجدلية)، بل الإبقاء على العنصرين كنقيضين يتفاعلان جدليا في عملية التفكير . و تتمثل حركة التفكير الجدلية هذه ، بشكل رائع ، في تحليل وضع وجودي ملموس ، و"مشفّر" (Coded) (1) . و يتطلب حل رموزه تحولا من التجريد إلى الملموس ، و يستدعي ذلك تحولا من الجزء إلى الكل ثم العودة إلى الأجزاء .و يتطلب هذا ، بدوره ، أن يتعرف "الفاعل" على نفسه في "الهدف" أو "المفعول به" (الوضع الوجودي الملموس المُشفّر) و يتعرف على "المفعول به" كوضع يجد نفسه فيه ، سوية مع "فاعلين" آخرين . و إذا جرى فك الرموز بشكل جيد فإن حركة "التدفق" و "إعادة التدفق" هذه من التجريد إلى الملموس التي تحدث في تحليل الوضع "المُشفر" ستؤدي إلى استبدال التجريد بإدراك انتقادي للملموس ، الذي لم يعد بعد واقعا كثيفا غير قابل للاختراق .

و عندما يواجه المرء وضعا وجوديا "مشفّرا" (رسما تخطيطيا أو صورة تؤدي عبر التجريد إلى جعل الواقع الوجودي ملموسا) ، يجنح إلى "تجزئة" ذلك الوضع "المُشفّر" . و تتطابق عملية "الفصل" هذه خلال عملية فك الرموز ، مع مرحلة نطلق عليها اسم "وصف الوضع" ، كما أنها تسهل اكتشاف التفاعل بين أجزاء "الكل" المُفكك . و يأخذ هذا "الكل" (الوضع المُشفّر) ، الذي جرى فهمه في السابق بشكل مشتت فقط ، في اكتساب معنى مع عودة تدفق الفكر من الأبعاد المختلفة . ولكن ، بما أن "التشفير"

هو عرض لوضع وجودي ، فإن من يقدم على فك الرموز يميـل إلى اتخـاذ خطـوة الانتقال من "المثال" إلى الوضع الملموس ذاته الذي يجد نفسه فيه و معه . و هكـذا ، من الممكن أن يصبح تفسيرا بشكل مفهومي لماذا يبدأ الأفراد في التـصرف بـشكل مختلف فيما يتعلق بالواقع الموضوعي ، عندما يكف الواقع عن الظهور كطريق مسدود، و يتخذ سمته الحقيقية : تحديا يتعين على الناس مواجهته .

في كل مراحل حل الرموز ، يقوم الناس بعكس نظرتهم إلى العالم بشكل خـارجي . و يمكن العثور على موضوعاتهم المنتجة من طريقة تفكيرهم في العالم و مواجهته (بـشكل قدري أو ديناميكي أو خامل) . و المجموعة التي لا تعبر بشكل ملموس عن موضوعات منتجة – و هي حقيقة قد تبدو

"(1)تشفير" وضعا وجوديا هو "تمثيل" لذلك الوضع ، و إبراز للعناصـر المكونـة في حالة تفاعل ، و "فك الرموز" هو تحليل انتقادي لذلك الوضع المُشفر .

أنها تعبر عن عدم وجود موضوعات – تقترح ، في الواقع ، موضوعا دراماتيكيا للغاية : موضوع الصمت . و يعني موضوع الصمت: إيجاد بنية صمت مطبق في وجه القوة الطاغية للأوضاع المقيدة .

لا بد لي من أن أعود و أؤكد أن الموضوعات المنتجة لا يمكن لها أن توجـد في أنـاس منفصلين عن الواقع ، و كذلك ليس في واقع منفصل عن الناس . كما أنه لا يمكن أن توجد في "منطقة حرام" . يمكن أن يتم فهمها فقط في العلاقة بين الناس و العـالم . و دراسة الموضوعات المنتجة هي دراسة تفكير الناس حول الواقع ، و كذلك عمل الناس المنصب على الواقع ، الذي هو ممارسة الناس . و لهذا السبب بالذات يتطلب المنـهج

المقترح أن يعمل الباحثون و الناس (الذين يعتبرون عادة هدف البحث و مادته) سوية كباحثين مشاركين (Co-investigators) . و كلما أخذ الناس موقفـا نـشطا إزاء اكتشاف موضوعا م ، كلما عمقوا وعيهم الإنتقادي بـالواقع، و امتلكـوا عـبر تحديدهم لتلك الموضوعات ، ذلك الواقع .

قد يفكر البعض أنه من غير المستحسن إشراك الناس كباحثين عن موضوعا م المفيدة : أي أن تأثيرهم التطفلي ("تدخل" أولئك الأكثر اهتماما - أو يجب أن يكونوا كـذلك – في تعليمهم) سيؤدي إلى "غش" النتائج ، و بالتالي التضحية بموضوعية البحث . هذه النظرة تفترض خطأ وجود الموضوعات ، في شكلها الأصلي الخالص ، خارج الإنسان، كأن الموضوعات هي أشياء . في الواقع توجد الموضوعات في الناس في علاقتهم مـع العالم ،بالاستناد إلى حقائق ملموسة . و بوسع الحقائق الموضـوعية ذا ـا أن تبعـث مجموعات مختلفة من الموضوعات المنتجة في وحدات فرعية لحقبات مختلفة . و بالتـالي توجد علاقة بين الحقيقة الموضوعية المحددة ، و إدراك الناس لهذه الحقيقة و الموضوعات المنتجة .

يتم التعبير عن الموضوعات المنتجة من قبل الناس ، و ستختلف لحظة التعبير المعينة عن لحظة سابقة إذا غير الناس إدراكهم للحقائق الموضوعية التي تشير إليها الموضوعات . و من وجهة نظر الباحث ، المهم هو وضوح نقطة البدء التي يأخذ الناس فيها تـصور "المعين" ، و التأكد إن كان أي تغيير قد حدث في طريقة إدراكهم للواقع خلال عملية البحث . (يظل الواقع الموضوعي بالطبع دون تغيير . و إذا تغير إدراكهـم لـذلك الواقع خلال مسيرة البحث فلن يضر الأمر بصحة البحث)

يجب علينا أن ندرك أن التطلعـات و الـدوافع و الأهـداف الـواردة ضـمنيا في

الموضوعات ذات الدلالة هي تطلعات و دوافع و أهداف إنسانية . و هي لا توجد في مكان ما "هناك في الخارج"، ككيانات ساكنة .إ ا تحدث . وهي تاريخية كما النـاس أنفسهم تاريخيين ، و بالتالي لا يمكن فهمها بمعزل عن الناس . و لاستيعاب و فهم هذه الموضوعات يعني فهم الناس الذين يجسدو ا و كذلك فهم الواقع الذي يشيرون إليه . و لكن من الضروري أن يفهم الناس المعنيون أيضا [الموضوعات] ، بالتحديد لأنه من غير الممكن فهم الموضوعات بمعزل عن الناس . و هكذا يصبح البحث في الموضوعات مسعى مشترك نحو وعي الواقع و نحو وعي ذاتي ، الأمر الذي يجعل من البحث نقطـة البدء بالنسبة للعملية التعليمية ، أو للعمل الثقافي ذي الطابع التحرري .

خطر البحث الحقيقي هو ليس قيام "الأهداف" المفترضة للبحث ، و قد اكتـشفت نفسها بأ ا باحثة مشاركة ، في "غش" النتائج التحليلية . بل على العكس ، يكمن في خطر تحويل أنظار البحث عن الموضوعات ذات الدلالة إلى الناس أنفسهم ، و من ثم التعامل مع الناس على أ م هدف البحث . و بما أن الهدف من هذا البحـث هـو أن يكون أساسا لإعداد و تطوير برنامج تعليمي يقوم فيه المعلم الطالب و الطالب المعلـم بتوحيد معرفتهما المتعلقة بموضوع واحد ، فلا بد للبحث ذاته كذلك من أن يقوم على مبدأ تبادل العمل .

إن دراسة الموضوعات ، التي تجري في مجال الإنسان ، لا يمكن أن تختزل إلى عمل آلي ؛ فهي تتطلب من الباحثين ، بوصفها عملية بحث و معرفة و بالتالي خلـق ، اكتـشاف التداخل بين القضايا في ترابط الموضوعات ذات الدلالة . و سيكون البحث ذا فائـدة تعليمية كبيرة للغاية عندما يكون غاية في الانتقاد ، و سيكون غاية في الانتقاد عنـدما يتفادى المعالم الضيقة للنظرات الضيقة أو "المُركّزة" إلى الواقع ، و يلتزم بفهم مجمـل

الواقع . و هكذا ، فإن عملية البحث عن موضوعات ذات دلالة يجب أن تشمل الاهتمام بالروابط بين الموضوعات ، الاهتمام بطرح هذه الموضوعات كمشاكل و قضايا ، واهتمام أيضا بسياق [تلك الموضوعات] التاريخي و الثقافي .

و كما أن المربي قد لا يقوم بإعداد برنامج لتقديمه إلى الناس ، يحق للباحث أن لا يعد "خططا" للبحث في موضوعات الكون ، مبتدءاً من نقاط يعتبرها هو مقررة مسبقا . فالتعليم والبحث الذي يهدف إلى مساندته يجب أن يكونا على هيئة نشاطات "متعاطفة" بالمعنى الاشتقاقي للكلمة ، أي أنهما يجب أن تتألف من التواصل و من التجربة المشتركة للواقع الذي تم إدراكه في تعقيدات "صيرورته" المستمرة .

و الباحث الذي يقوم ، بإسم الموضوعية العلمية ، بتحوير العضوي إلى شيء غير عضوي ، أو ما هو في "طور التكوين" إلى شيء موجود ، أو الحياة إلى الموت ، هو شخص يخاف من التغيير . إنه يرى في التغيير (الذي لا ينكره ، و لكنه لا يرغب فيه أيضا) ليس مؤشرا على الحياة ، بل مؤشرا على الموت و الانحطاط . إنه يريد دراسة التغيير ، و لكن من أجل إيقافه ، و ليس من أجل تحفيزه أو تعميقه . و مع ذلك ، فإنه يفضح شخصيته كقاتل للحياة في رؤيته للتغيير على أنه مؤشر موت ، وفي جعله الناس مجرد أشياء سلبية لدراستها من أجل التوصل إلى نماذج جامدة .

أعود و أكرر :- إن دراسة الموضوعات تعني دراسة تفكير الناس : التفكير الذي يحدث فقط في إطار الناس الذين يبحثون سوية عن الواقع و بينهم . فأنا لا أستطيع التفكير نيابة عن آخرين أو من غيرهم ، كما أن الآخرين لا يستطيعون التفكير نيابة عني . و حتى إن كان تفكير الناس ساذجا أو مشوبا بالخرافات فإنهم يستطيعون أن يتغيروا فقط عندما يعيدون التفكير في فرضياتهم بشكل عملي. فإنتاج أفكارهم و

العمل ا – و ليس استهلاك أفكار الآخرين – يجب أن يكون أساس تلك العملية .

جد الناس أنفسهم ، ككائنات "في وضع ما" ، متجذرين في ظروف حيزيـة و زمنيـة تترك بصما ا عليهم ، كما يتركون هم بصما م عليها . و سيميلون إلى الـتفكير في "وضعيتهم" إلى الحد الذي تتحداهم فيه كي ينصب عملهم عليها . و الناس موجودون لأ م موجودون في وضع ما ، وسيكونون أكثر وجوداً ، ليس كلما ازداد تفكيرهـم الانتقادي حول وجودهم فقط ، بل و أيضا كلما انصب عملهم أكثر عليـه بـشكل انتقادي .

إن التفكير في "الوضعية" هو تفكير حول ظروف الوجود بحد ذا ا : تفكير انتقـادي يقوم الناس من خلاله باكتشاف أ م في "وضع ما" . و عندما يكف هذا الوضع عـن عكس نفسه كواقع كثيف يعمل على الاحتواء ، أو كطريق مسدود مؤلم ، و يـتمكن الناس من إدراكه كوضع موضوعي يشكل قضية ، عندئذ فقط من الممكن أن يوجـد الالتزام . و يظهر الناس من حالة الغرق ويكتسبون القدرة على التدخل في الواقـع لدى الكشف عنه . و هكذا يمثل التدخل في الواقع – الإدراك التاريخي بحد ذاتـه – خطوة إلى الأمام من حالة "الظهور" ، و هي تنجم عن الوعي بالواقع . و الوعي هـو تعميق موقف الإدراك الذي يميز كل حالة ظهور .

و بالتالي فإن كل بحث في الموضوعات يؤدي إلى تعميق الإدراك التـاريخي هـو ، في الواقع، تعليمي ، بينما كل تعليم حقيقي يقوم بالبحث في التفكير . و كلما ازداد قيام المربين و الناس في البحث بتفكير الناس ، و بالتالي تعلمهـم سـوية ، كلمـا ازداد استمرارهم في البحث . إن التعليم والبحث في الموضوعات هما ببساطة ، في مفهـوم التعليم الذي يطرح المشاكل و القضايا ، لحظات مختلفة من العملية ذا ا .

إن محتوى برنامج الأسلوب الذي يطرح المشاكل الذي هو حواري ، بالمقارنة مع أسلوب التعليم "البنكي" المعادي للحوار و الداعي إلى "الإيداع" الذي لا يؤمن بالتواصل ، يتشكل و ينظم من خلال نظرة الطلاب إلى العالم حيث يمكن العثور على موضوعاتهم المنتجة الخاصة . و هكذا يتوسع المحتوى باستمرار و يجدد نفسه . و مهمة المعلم الحواري في مجموعة متعددة الاختصاصات تعمل حول الكون ذي الموضوعات الذي تم الكشف عنه من خلال ما يقومون به من بحث ، هي "إعادة تقديم" هذا الكون إلى الناس الذين حصلوا عليه في البداية منهم ، و "إعادة تقديمه" ، إن لم يكن كمحاضرة ، فكقضية .

لنقل ، على سبيل المثال ، إن مجموعة عهد إليها بمسؤولية تنسيق مشروع لتعليم الكبار في منطقة ريفية توجد فيها نسبة عالية من الأمية . و تشمل الخطة حملة محو الأمية و مرحلة ما بعد تعلم القراءة و الكتابة . خلال المرحلة الأولى يبحث التعليم الذي يطرح قضايا عن "الكلمة المنتجة" و يدرسها ؛ و في مرحلة ما بعد تعلم القراءة و الكتابة يبحث عن "الموضوعات المنتجة" و يدرسها .

و لكن لندرس هنا فقط البحث في الموضوعات المنتجة أو الموضوعات ذات الدلالة .(1) فعندما يحدد الباحثون المنطقة التي سيعملون فيها و يحصلون على معرفة أولية لها من خلال مصادر ثانوية ، يكونون قد دشنوا المرحلة الأولى من البحث . و تشتمل هذه البداية (مثلها مثل أية بداية في نشاط إنساني) على صعوبات و أخطار عادية ، إلى حد ما ، على الرغم من أنها لا تكون دائما واضحة للوهلة الأولى من الاتصال مع الأشخاص في المنطقة . فخلال هذا الاتصال الأولي ، يحتاج الباحثون إلى الحصول على موافقة عدد كبير من الناس على عقد اجتماع غير رسمي يتحدثون فيه عن الأهداف

من وجودهم في المنطقة . و يشرحون في هذا الاجتماع السبب للقيام بالبحث ، و كيف سيجري ، و ما الذي سيفيده . و يوضحون أيضا أن البحث سيستحيل من غير توفر علاقة تفاهم وثقة متبادلة . و إذا وافق المشاركون على كل من البحث و العملية اللاحقة (2) يتعين على الباحثين طلب متطوعين من بين المشاركين للعمل كمساعدين . سيقوم هؤلاء المتطوعون بجمع سلسلة من البيانات و المعلومات حول حياة المنطقة . و لكن الأهم بكثير هو الحضور النشط لهؤلاء المتطوعين في عملية البحث .

يبدأ الباحثون ، في الوقت ذاته ، بالقيام بزيارات إلى المنطقة ، دون أن يفرضوا أنفسهم ، بل يتصرفون كمراقبين متعاطفين ، يتحلون بموقف متفهم لما يشاهدون . و رغم أن من الطبيعي أن يأتي الباحثون إلى المنطقة حاملين قيما تؤثر على إدراكهم ، فإن ذلك لا يعني أنهم قد يحولون البحث في الموضوعات إلى وسيلة لفرض قيمهم . و البعد الوحيد لهذه القيم التي يؤمل أن يشارك فيها الأشخاص الذين يجري البحث في موضوعاتهم (من المفترض أن الباحثين يملكون هذه الخصلة) هو الإدراك الانتقادي للعالم ، الذي يعني أسلوبا صحيحا للتعامل مع الواقع من أجل الكشف عنه . و لكن الإدراك الانتقادي لا يمكن أن يفرض . و بالتالي يجري التعبير عن دراسة الموضوعات ، منذ البداية ، باعتبارها تحصيلا علميا ، عملا ثقافيا .

و يحدد الباحثون ، خلال زياراتهم ، "هدفهم" الانتقادي الخاص بالمنطقة موضع الدراسة، وكأنه بالنسبة لهم "رمز" هائل فريد و حي لا بد من فكه ، و ينظرون إلى المنطقة ككل واحد ،

(1) راجع فيما يتعلق بالبحث في "الكلمات المنتجة" و استخدامها كتابي : Educacao como Pratica da Liberdade

(1) تقول عالمة السوسيولوجيا البرازيلية ماريا إدي فريرا (في بحث لم ينشر بعد) إن البحث في الموضوعات يمكن تبريره فقط بقدر ما يعيد للناس ما كان لهم ، و بالقدر الذي يمثل فيه ليس محاولة معرفة أمور عن الشعب ، بل التوصل ، بالاشتراك مع الشعب ، إلى معرفة الواقع الذي يتحداهم .

يحاولون مع كل زيارة "تجزئتها" من خلال تحليل الأبعاد الجزئية التي تترك أثرا في نفوسهم . ويوسعون من خلال هذه العملية فهمهم لكيفية تفاعل الأجزاء المختلفة ، الأمر الذي سيساعدهم لاحقا في التغلغل بالكل ذاته .

و يلاحظ الباحثون ، خلال عملية فك الرموز ، لحظات محددة من حياة المنطقة في بعض الأحيان مباشرة ، و في أحيان أخرى عبر تبادل الأحاديث غير الرسمية مع السكان . و يسجلون كل شيء في دفاتر ملاحظاتهم ، بما في ذلك النقاط التي من الواضح أنها غير مهمة : طريقة حديث الناس ، أسلوب معيشتهم ، تصرفهم في الكنيسة و في العمل . و يسجلون أيضا الاصطلاحات التي يستخدمها الناس : تعابيرهم و مفرداتهم ، و تركيبة جملهم (ليس الخطأ في نطقهم ، و لكن الطريقة التي يبنون بها أفكارهم).(1)

من المهم أن يراقب الباحثون المنطقة في ظروف مختلفة : العمل في الحقول ، اجتماعات الجمعيات المحلية (ملاحظة سلوك المشاركين و اللغة التي تستخدم و العلاقات بين المسؤولين والأعضاء) ، و الدور الذي تلعبه النساء و الشباب ، أوقات الفراغ ، الألعاب و الألعاب الرياضية ، و المحادثات بين الناس في بيوتهم (على سبيل المثال ، ملاحظة العلاقات بين الزوج و الزوجة والوالدين و أطفالهم) يجب ألاّ يفوت اهتمام الباحثين أي نشاط خلال المعاينة الأولى للمنطقة .

و يتعين على الباحثين إعداد تقرير قصير بعد كل زيارة مراقبة ، تتم مناقشته من قبل الفريق كله ، من أجل تقييم النتائج الأولية للباحثين المحترفين و المساعدين المحليين . و يجب عقد اجتماعات التقييم في المنطقة نفسها من أجل تسهيل مشاركة المساعدين .

و تمثل اجتماعات التقييم مرحلة ثانية في حل رموز "الرمز الفريد الحي" . و مع قيـام كل شخص – في حديثه الخاص بفك الرموز – بالكلام عن كيفية إدراكه أو شـعوره لحدث أو وضع معين ، يعمل حديثه على تحدي الآخرين الذين يحلون الرموز من خلال إعادة تقديم الواقع ذاته لهم ، الذي انكبوا عليه . في هذه اللحظة يقومـون "بإعـادة النظر" "باعتبارا م" السابقة من خلال "اعتبارات" الآخرين . و هكذا يعـود ـم جميعا، بشكل حواري ، تحليل الواقع الذي قام به كل من

(1)يمثل الروائي البرازيلي جويماريس روزا نموذجا رائعا لقدرة الكاتب على التـصوير الصادق ، ليس طريقة اللفظ أو الأخطاء القواعدية اللغوية لدى الناس ، بل طريقـة تركيبهم للجمل : بنية تفكيرهم ذا ا . و في الواقع (و هذا ليس للحط مـن قيمتـه الفريدة ككاتب) كان جويمارس روزا الباحث الذي لا يضاهى في "الموضـوعات ذات الدلالة" الخاصة بالسكان في المناطق الداخلية من البرازيل . و يقوم حاليا البروفيـسور باولو دي تارسو بإعداد بحث يحلل فيه هذا الجانب المهمل من عمل المؤلف الذي ترجم إلى الإنجليزيـة و نـشر بعنـوان : The Devil to Pay in the Backlands (نيويورك ، 1963) .

عمل على فك الرموز إلى "الكل" المفكك الذي يصبح مرة أخرى "كُـلاً" يـستدعي تحليلا جديدا من الباحثين ، يعقد بعده اجتماع جديد للنقد و التقيـيم . و يـشارك ممثلون عن السكان في جميع النشاطات كأعضاء في فريق البحث .

و كلما ازداد قيام المجموعة بتجزئة الكل و إعادة تجميعه ، كلما ازداد قرباً من نــواة التناقضات الأساسية و الفرعية التي تخص سكان المنطقة . و قد يتمكن الباحثون مــن خلال تحديد نواة أو جوهر التناقضات هذه ، في هذه المرحلة المبكرة ، من تنظيم محتوى برنامج عملهم التعليمي . و في الواقع ، سيحتوي البرنامج بلا شك ، إذا عكس هذه التناقضات ، على الموضوعات ذات الدلالة الخاصة بالمنطقة . و يمكن للمرء أن يؤكد بثقة أن العمل القائم على هذه الملاحظات سيلقى نجاحا أكثر من عمــل يرتكــز إلى "قرارات صادرة من القمة" . و مع ذلك يجب ألاّ يغري هذا الاحتمــال البــاحثين . فالشيء الأساسي ، إنطلاقا من الإدراك الأولي لجوهر التناقضات هذه (الــتي تــشمل التناقض الرئيسي في المجتمع كوحدة حقبة أوسع) ، هو دراسة مستوى وعي الــسكان لهذه التناقضات .

تشكل هذه التناقضات ، بحكم طبيعتها ، أوضاعا مقيدة ، و تشتمل على موضوعات و تحدد مهاما . و إذا وقع أشخاص في أوضاع مقيدة و عجزوا عن فصل أنفسهم عنها فإن موضوع مرجعيتهم الخاص بهذه الأوضاع هو القدرية،و المهمة الــتي يفترضــها الموضوع هي الافتقار إلى مهمة . و هكذا ، يتعين على المرء – على الــرغم مــن أن الأوضاع المقيدة هي الحقائق الموضوعية التي تثير احتياجات لدى الأفراد – أن يدرس مع هؤلاء الأفراد مستوى وعيهم بهذه الأوضاع .

يمكن للوضع المقيد ، كواقع ملموس ، أن يستمد من أشخاص في مناطق مختلفة (و حتى في مناطق فرعية من المنطقة ذاتها) موضوعات و مهام متعارضة كلية . و بالتالي يجب أن يكون اهتمام الباحثين الأساسي منصباً على معرفة ما يطلق عليه لوســيان جولــدمان "الوعي الحقيقي" (Real Consciousness) و "الــوعي الكــامن" (Potential

Consciousness) . [يقول جولدمان] : "إن الوعي الحقيقي [هو] نتاج العقبات و الانحرافات المتعددة التي تضعها العوامل المختلفة للواقع التجريبي في تعارض و تطرحها للتحقيق من قبل الوعي الكامن". (1)

الوعي الحقيقي يعني استحالة إدراك "الإمكانية غير المجربة" التي تقع في ما وراء الأوضاع المقيدة . و بما أنه لا يمكن تحقيق الإمكانية غير المجربة على مستوى "الوعي الحقيقي [أو الحالي]" ، فتحقيقها ممكن عبر "القيام بتجارب" تكشف عن قدراتها التي لم يتم إدراكها حتى الآن . و ثمة صلة بين الإمكانية غير المجربة و الوعي الحقيقي ، و كذلك بين القيام بتجارب و الوعي الكامن . و يشبه مفهوم جولدمان عن "الوعي الكامن" ما يطلق عليه نيقولاي اسم الحلول العملية التي لم يتم

(1) لوسيان جولدمان ، The Human Sciences and Philosophy (لندن، 1969) ، ص 118

إدراكها " ، (1) (أي ما نطلق عليها الإمكانيات غير المجربة) ، مقابل "الحلول العملية المُدركة" و"الحلول التي تجري ممارستها حاليا" التي تتطابق مع "الوعي الحقيقي" عند جولدمان . و من ثم فإن حقيقة أن الباحثين قد يفهمون على وجه التقريب ، في المرحلة الأولى من البحث ، مجموعة التناقضات ، لا يخولهم القيام بتنسيق محتوى برنامج العمل التعليمي . فهذا الإدراك للواقع ما زال إدراكهم ، و ليس إدراك الشعب .

تبدأ المرحلة الثانية للبحث مع إدراك مجموعة التناقضات . يقوم الباحثون ، الذين يعملون على الدوام كفريق ، باختيار بعض هذه التناقضات لإعداد التصنيفات أو الرموز (Codifications) التي ستستخدم في دراسة الموضوعات . و بما أن

التصنيفات أو الرموز (الرسوم التخطيطية أو الصور) (2) هي الأشياء التي "ستتوسط" (3) للذين سيحللون الرموز في تحليلهم الانتقادي ، يجب أن يهتدي إعـداد الرمـوز ببعض المبادئ غير تلك العادية الخاصة ، أي بإعداد المعينات البصرية .

المتطلب الأول هو أن تمثل هذه الرموز و التصنيفات حقا أوضاعا مألوفة للأشـخاص الذين سيجري فحص موضوعا م ، حتى يمكنهم التعرف على الأوضاع بـسهولة (و بالتالي علاقتهم ا) . وليس من المسموح (إن كان خلال عملية البحث أو في المرحلة اللاحقة عندما يجري تقديم الموضوعات ذات الدلالة كمحتويات البرنامج) تقديم صور للواقع غير مألوفة للمشاركين . فالإجراء الأخير (رغم أنه جـدلي ، لأن الأشـخاص الذي يحللون واقعا غير مألوف يستطيعون مقارنته بواقعهم و يكتشفون حـدود كـل واحد منهما) لا يمكن أن يسبق الوضع الأكثر جوهرية الذي يمليه وضـع "انغمـاس" المشاركين ، أو بكلام آخر ، العملية التي يعي من خلالها الأشخاص الـذين يحللـون واقعهم، إدراكهم السابق المشوه و من ثم يتوصلون إلى إدراك جديد لذلك الواقع .

و ثمة متطلب آخر له الأهمية ذا ا في إعداد الرموز و التصنيفات و هو ألاّ تكون نواة الموضوعات واضحة للغاية أو غامضة للغاية . فإن كانت واضحة للغاية قد تـصل إلى مستوى الدعاية فقط، دون القيام بعملية حقيقية لفك الرموز ، باستثناء الإعلان عـن المحتوى المقرر مسبقا كما هو

(1) راجع أندريه نيقولاي ، Comportment Economique et Structures Sociales (باريس 1960)

(1) من الممكن أن يكون التصنيف و الرموز شفوية . و في مثل هذه الحالة ستتألف

من كلمات قليلة تعرض

مشكلة معاشية ، يعقبها حل الرموز . و قد استخدم معهد التنمية الزراعيـة في تشيلي هذا الأسلوب بنجاح في

دراسة و تقصي الموضوعات .

(1) التوسط (Mediate) : مفهوم فلسفي يعني وجـود أدوات تتوسـط بـين الظواهر ، أي للترابط و التداخل

و التواحد، فهناك توسط العمل بين الإنسان و الطبيعة ، و هناك توسط المثقفين بـين الحكام و المحكومين ، و هناك توسط الجدل بين المتناقضات . و يرتبط مفهوم التوسط بمفهوم يمكن تسميته بالعلائقية ، و هو التعبير عن التداخل و التفاعل بين كل ظاهرة و أخرى – المترجم

واضح .أما في الحالة الثانية [الغموض للغاية] فثمة خطر أن يبدو الأمر أحجية أو لعبة تخمين . و بما أن الرموز ستمثل أوضاعا وجودية ، يجب أن تكون بسيطة في تعقيدها و توفر إمكانيات مختلفة لفك الرموز حتى يتم تفادي توجهات الدعايـة نحـو "غـسل الأدمغة" . فالرموز و التصنيف ليست شعارات ، بل أهداف معرفة ، تحديات يجـب توجيه التفكير الانتقادي للذين يفكون رموزها .

من أجل توفير إمكانيات تحليل مختلفة في عملية فك الرموز يجب أن يجري تنظيم الرموز والتصنيفات على شكل "مروحة موضـوعات" (Thematic Fan) . و في الوقـت الذي يفكر فيه من يفكون الرموز في الرموز و التصنيفات ، يجب أن تتفتح الرموز في اتجاه مواضيع أخرى . و هذا التفتح (الذي لا يحدث إذا كان محتوى الموضوع واضحا

للغاية أو غامضا للغاية) أمر لا غنى عنه لإدراك العلاقة الجدلية القائمة بين الموضوعات و نقيضها . و بالتالي لا بد للرموز و التصنيف التي تدور حول وضع وجودي من أن تشكل موضوعيا "كُلاً" . و يجب أن تتفاعل عناصرها في تكوين الكل .

يقوم المشاركون ، خلال عملية فك الرموز ، بالتعبير بشكل خارجي عن موضوعاتهم ، ومن ثم يصرحون "بوعيهم الحقيقي" بالعالم . و مع قيامهم بذلك ، يأخذون في رؤية كيف تصرفوا هم أنفسهم عندما كانوا يمرون بالوضع الذي يحللونه الآن ، و بالتالي يصلون إلى "إدراك لإدراكهم السابق" . و لدى تحقيق هذا الوعي ، يأخذون في إدراك الواقع بشكل مختلف ، و يكتشفون في "خلفية وعيهم" بشكل أسهل ، من خلال توسيع آفاق إدراكهم، العلاقة الجدلية بين بعدي الواقع .

و يؤدي فك الرموز إلى ظهور إدراك جديد و تطوير معرفة جديدة من خلال حفز "إدراك الإدراك السابق" و "معرفة المعرفة السابقة" . و يستمر الإدراك الجديد و المعرفة الجديدة بشكل مثابر منظم مع تدشين المشروع التعليمي ، الذي يحول الإمكانية غير المجربة إلى "عمل تجريبي" ، مع قيام الوعي الكامن بالحلول محل الوعي الحقيقي .

و يتطلب إعداد الرموز و التصنيف أيضا أن تمثل [تلك الرموز] ،قدر الإمكان ، تناقضات "مشمولة" أخرى تشكل نظام تناقضات المنطقة موضع الدراسة (1) و مع إعداد كل الرموز الأخرى، يجب أيضا إعداد رموز التناقضات الأخرى "الواردة" و تصنيفها . و سيتم حل رموز الأولى بشكل جدلي عند حل رموز الأخيرة .

و في هذا الصدد قدم غابريل بودي – موظف حكومي شاب في تشيلي في إحدى أهم المؤسسات الحكومية التشيلية و هي مؤسسة الأبحاث في مجال الأغذية الزراعية

(INDAP) – (2) مساهمة قيمة للغاية في منهجنا . فخلال استخدامه لهذا المنـهج في مرحلة ما بعد تعلم القراءة و الكتابة لاحظ أن الفلاحين يبدون اهتماما بالمناقشة فقط عندما ترتبط الرموز بشكل مباشر بما يشعرون به من

(1)تقدم ـذه التوصية خوزيه لويس فيوري في بحث لم ينشر بعد .

(2)كان يدير المؤسسة حتى عهد قريب الاقتصادي و الإنساني الحقيقي جاك كونشول

احتياجات . و أي انحراف في إعداد الرموز و التصنيف ، و كذلك أية محاولة من قبل المربي لتوجيه مناقشة فك الرموز إلى مناطق أخرى تسفر عن صمت و لا مبالاة . و من ناحية أخرى ، لاحظ أنه حتى عندما تركز عملية اعداد الرموز والتصنيف علـى مـا يشعرون به من احتياجات، لم يتمكن الفلاحون من التركيز بشكل مثابر على المناقشة، التي غالباً ما كانت تنحرف إلى عدم التوصل إلى نقطة تجميع و استخلاص . كما أ م أيضا لم يتمكنوا تقريبا من إدراك العلاقة بين ما يشعرون به من حاجات و الأسـباب المباشرة أو غير المباشرة لتلك الاحتياجات . و من الممكن للمرء أن يقول أ م فـشلوا في إدراك الإمكانية غير ا ربة الكامنة في ما وراء الأوضاع المقيدة التي تولـد هـذه الاحتياجات .

قرر "بودي" عندها إجراء تجارب تشمل تقديم أوضاع مختلفة في وقت واحد ، و تكمن في هذا الأسلوب قيمة المساهمة . يقوم في البداية بتقديم رموز و تصنيفات بسيطة للغاية لوضع وجودي . و يطلق على عملية الرموز الأولى هذه اسم "ضرورية" ، و هي تمثل النواة الأساسية و تتفتح إلى مروحة موضوعات تمتد إلى عملية رمـوز "إضـافية" . و عقب فك الرموز الضرورية ، يقوم المربي بالاحتفاظ بصور ا التي يتم عكسها كمرجع

للمشاركين ، و يعكس، بالتوالي، إلى جانبها الرموز الإضافية . و يتمكن ، بمساعدة العمل الأخير ، و هي متصلة بشكل مباشر بالرموز الضرورية ، من المحافظة على انتباه المشاركين الحي فيتمكنون بذلك من الوصول إلى نقطة التجميع و الاستخلاص .

إن الإنجاز العظيم لغابريل بودي هو أنه تمكن ، بوسائل الديالكتيك القائم بين الرموز الضرورية و الإضافية ، من توصيل الشعور بـ "الكل" إلى المشاركين . فالأشخاص الذين كانوا غارقين في الواقع ، شاعرين فقط باحتياجا م ، يبرزون من الواقع و يدركون أسباب احتياجا م . و ذه الطريقة يتمكنون من الذهاب بشكل أسرع كثيرا إلى ما وراء مستوى الوعي الحقيقي ، إلى مستوى الوعي الكامن .

و بعد إعداد الرموز و التصنيفات و دراسة جميع أوجه موضوعا ا الممكنة من قبل الفريق المتعدد الاختصاصات ، يبدأ الباحثون المرحلة الثالثة من البحث بالعودة إلى المنطقة من أجل تدشين حوارات فك الرموز في "حلقات بحث الموضوعات". (1) و يجري تسجيل هذه المنافشات التي تفك رموز المواد التي أعدت في المرحلة السابقة على أشرطة لتحليلها لاحقا من قبل الفريق المتعدد الاختصاصات .(2) و يحضر الاجتماع، بالإضافة إلى الباحث الذي يعمل كمنسق لعملية فك الرموز

(1)يجب أن تتألف كل حلقة بحث من عشرين شخص كحد أقصى . و لا بد من وجود حلقات تكفي لإشراك عشرة في المائة من السكان في المنطقة أو المنطقة الفرعية موضع الدرس .

(2)يجب أن تضم اجتماعات التحليل اللاحقة المتطوعين من المنطقة الذين ساعدوا في البحث ، و بعض المشاركين من "حلقات بحث الموضوعات". فمساهمتهم هي حق من

حقوقهم و مساعدة لا غنى عنها للتحليل الذي يقوم به الإختصاصيون .و بوصـفهم باحثين مشاركين مع الإختصاصيين يصححون أو يصادقون على تفسيرات الأخيرين=

اثنان من الأخصائيين – عالم نفساني و آخر اجتماعي . ومهمتهما هي تدوين و تسجيل ردود الفعل الهامة (و على ما يبدو غير الهامة) لمن يفكون الرموز .

و يتعين على المنسق ، خلال عملية فك الرموز ، ألاّ يستمع فقط إلى الأشخاص ، بل يتحداهم ، طارحا مشاكل كل من الوضع الوجودي ذي الرموز و أجوبتهم .و بسبب قوة المنهج التطهيرية (الكاثرسيس) يقوم المشاركون في حلقات البحث في الموضوعات بالتعبير خارجيا عن سلسلة من العواطف و الأفكار حول أنفسهم و حـول العـالم و حول الآخرين ، التي قد لا يعبرون عنها في ظروف أخرى .

في إحدى دراسات الموضوعات التي جرت في سانتياغو ، قامت مجموعة من الـسكان في أحد مشاريع الإسكان بمناقشة منظر رجل سكران يسير في الشارع و ثلاثة شـبان يتبادلون الحديث عند الزاوية . فعلقت ا موعة المشاركة قائلة إن "الشخص الوحيد المنتج و المفيد لبلده هو ذلك السكران العائد إلى بيته بعد العمل طيلة اليوم مقابل أجر متدن ، مشغول البال على عائلته لأنه لا يستطيع تلبية احتياجا ا . إنه العامل الوحيد . إنه عامل محترم و سكير مثلنا ."

كان الباحث ينوي دراسة جوانب مختلفة للإدمان على الخمر . لعله لم يحـصل علـى ردود الفعل المذكورة سابقا لو أنه قدم للمشاركين أسئلة أعدها بنفسه . فلو سـئلوا بشكل مباشر لأنكروا ، على الأرجح ، أ م تناولوا ولو كأسا واحدة من الخمـر . و لكن في تعليقا م على رموز وضع وجودي يستطيعون التعـرف عليـه ، و كـذلك

التعرف على أنفسهم فيه ، فالوا ما يشعرون به حقا .

هنالك جانبان مهمان لهذه التصريحات . من ناحية ، صرحوا قولا بالصلة بين تقاضـي أجر متدن ، و الشعور بالاستغلال و تعاطي الخمر – تعاطي الخمر كمفر من الواقع ، كمحاولة للتغلب على الإحباط الناجم عن عدم فعل شيء ، كحل في النهاية يؤدي إلى تدمير ذاتي . و من الناحية الأخرى ، عكسوا الحاجة إلى تصنيف السكير في مرتبة عالية . إنه "الشخص الوحيد المفيد لبلاده ، لأنه يعمل ، بينما الآخرون يثرثرون فقط ." و بعد أن أثنوا على السكير قام المشاركون بإقران أنفسهم به كعمال يحتسون الخمر أيضا – "عمال محترمين" .

تصور ، مقارنة ، فشل مرب يبشر بالأخلاق (1) يعظ ضد الكحول و يقدم كنموذج للفضيلة شيئا لا يعتبره هؤلاء الرجال تجسيدا للفضيلة . إن الإجراء الصحيح الوحيـد في هذا الحالات هو الوعي بالوضع ، الأمر الذي يجب محاولته من بدايـة البحـث في الموضوعات . (من الواضح أن

=للنتائج . كما أن مشاركتهم ، من وجهة النظر المنهجية (المبنية ، في الأساس ، على علاقة "تعاطف") تعطي للبحث ضمانة إضافية:حضورا انتقاديا لممثلين عن الناس مـن البداية حتى المرحلة النهائية ، مرحلة تحليل الموضوعات، المستمرة في تنظـيم محتـوى برنامج العمل التعليمي كعمل ثقافي من أجل التحرر .

(1)راجع : نيوبوهر ، المصدر الذي ذكر سابقا .

الوعي لا يتوقف عند مستوى الإدراك الذاتي للوضع ، بل يعد الناس ، مـن خـلال العمل ، للنضال ضد العقبات في طريق "أنسنتهم") .

و في تجربة أخرى ، و هذه المرة مع الفلاحين ، لاحظت شخصيا أن الموضوع الذي لم يتغير طيلة منافشة كاملة لوضع يتعلق بالعمل في الحقول هو المطالبة بزيادة الأجـور و ضرورة التضافر من أجل تشكيل نقابة لتحقيق هذا المطلب المحدد . تمت منافشة ثلاث حالات خلال الجلسة ، و بقي الموضوع نفسه على الدوام .

تصور الآن مربيا قام بتنظيم برنامجه التعليمي لهؤلاء الناس الذي يتكون مـن قـراءة نصوص "كاملة" يتعلم منها المرء أن "الماء في البئر" . و لكن هذا بالتحديد هو ما يحدث طيلة الوقت في التعليم و في السياسة ، و ذلك لأنه لم يتم إدراك أن الطبيعة الحواريـة للتعليم تبدأ من البحث في الموضوعات .

و لدى الانتهاء من فك الرموز في الحلقات ، تبدأ المرحلة الأخيرة من البحث عنـدما يقوم الباحثون بدراسة منظمة ذات تخصصات متعددة لما توصلوا إليه من نتائج . يبدأ الباحثون في الاستماع إلى الأشرطة التي سجلت خلال جلسات فـك الرمـوز و في دراسة الملاحظات التي أعدها علماء النفس و علماء الاجتماع ، و يأخذون في إعداد قائمة بالموضوعات الصريحة أو الواردة ضمنيا في التأكيدات التي تمت خلال الجلسات . و يجب أن يجري تصنيف هذه الموضوعات وفق العلوم الاجتماعيـة المختلفـة . و التصنيف لا يعني أنه عند إعداد البرنامج سينظر إلى الموضوعات على أ ا تنتمـي إلى فئات منعزلة ، بل يعني فقط أن كل موضوع سينظر إليه بطريقة خاصة من قبل عالـم الاجتماع الذي ينتمي إليه . فعلى سبيل المثال موضوع التنمية يلائم بشكل خاص مجال الاقتصاد ، ولكن ليس فقط هذا ا ال ، إذ يمكن أن تركز عليه أيضا السوسيولوجيا و الأنثروبولوجيا و علم النفس الاجتماعي (ا الات التي تعنى بالتغييرات الثقافيـة و بتغيير المواقف و القيم – قضايا ذات صلة بالقدر ذاته بفلسفة التنميـة) . و سـتركز

عليه أيضا العلوم السياسية (و هي مجال يعنى بالقرارات المتعلقة بالتنمية) ، و كـذلك التربية ، و إلى ما غير ذلك . و بهذه الطريقة ، لن يتم الاقتراب من الموضوعات الـتي تميز "الكل" بشكل جامد . فسيكون من المؤسف ، في الواقع ، لو أن الموضـوعات ، بعد دراستها بكل ما في تفسيرها من غنى مع جوانب الواقع الأخرى ، يجري التعامـل معها بعدئذ بطريقة تؤدي إلى التضحية بغناها (و من ثم بقوتها) من أجـل تخصـصات محصورة .

و لدى الانتهاء من تحديد الموضوعات ، سيقدم كـل اختـصاصي للفريـق المتعـدد الاختصاصات مشروعا "لتجزئة" موضوعه . و سيبحث الاختـصاصي في "تجزئتـه" للموضوع عن النواة الجوهرية التي تضم وحدات التعليم و تقرر التسلسل و السياق ، مما يعطي نظرة عامة عن الموضوع . و مع مناقـشة كـل مـشروع محـدد يتقـدم الأختصاصيون الآخرون بالاقتراحات ، التي يمكن أن يتضمنها المـشروع أو تـرد في المقال القصير الذي سيكتب عن المشروع . و ستكون هذه المقالات ، التي يمكـن أن تلحق بها قائمة مراجع مقترحة ، هي وسائل مساعدة قيمة في تدريب الطلاب المعلمين الذين سيعملون في "الحلقات الثقافية" .

و خلال هذا الجهد "لتجزئة" الموضوعات ذات الدلالة سيقر الفريق بالحاجة إلى إضافة بعض الموضوعات الجوهرية التي لم يتم اقتراحها مباشرة من الناس خلال البحث السابق ، و قد ثبتت ضرورة تقديم هذه الموضوعات ، كما أنها تنسجم مع الطابع الحـواري للتعليم . و إذا كانت البرمجة التعليمية حوارية فللطلاب المعلمين الحق في المساهمة من خلال اقتراح موضوعات لم يسبق أن اقترحت . لقد أطلقت على هذا النـوع مـن الموضوعات إسم "الموضوعات المفصلية" بسبب مهمتها . فهي إما ستسهل الارتباط بين

موضوعين في وحدة البرنامج ، وتملأ فراغا بينهما ؛ أو أ ا ستبين العلاقة بين محتويـات البرنامج العام و النظرة إلى العالم التي يحملها الشعب . و من ثم يمكن لواحد من هـذه الموضوعات أن يقع في بداية وحدات الموضوعات .

إن المفهوم الأنثربولوجي للثقافة هو أحد هذه الموضوعات المفصلية ؛ فهو يوضح دور الناس في العالم و مع العالم ككائنات "تحور" بدلا من أن "تكيف" . (1)

و عند الانتهاء من "تجزئة" الموضوعات (2) تأتي مرحلة إعداد رموزها أو تـصنيفها : إختيار أفضل فنوات التواصل بالنسبة لكل موضوع و تقديمه . و يمكن لعملية إعـداد الرموز أن تكون بسيطة أو مركبة . الأولى تستخدم القناة المرئية (الصور و الرسـوم التخطيطية) ، أو القناة الملموسة أو القناة الحسابية . و القناة الأخيرة تستخدم عـدة فنوات . و يعتمد اختيار فناة الصور أو الرسوم التخطيطية ليس فقط على المواد الـتي يجب "تشفيرها" ، بل أيضا على قدرة الأشخاص الذين يريد المرء التواصل معهم على القراءة و الكتابة .

و عقب إعداد رموز الموضوعات ، يجري إعداد المواد الإرشادية (الصور ، الأفـلام ، البوسترات ، نصوص القراءة ، إلى ما غير ذلك) . و من الممكن أن يقتـرح الفريـق بعض الموضوعات

(1)راجع فيما يتعلق بأهمية التحليل الأنثروبولـوجي للثقافـة Educacao como Pratica da Liberdade

(2)يجب مراعاة أن البرنامج بمجمله هو"كل" يتألف من وحدات متداخلة ، تشكل كل واحدة منها "كلا" بحد ذاته. و تشكل الموضوعات بحد ذا ا "كلية" ، و لكنها أيـضا عناصر تشكل في تفاعلها وحدات الموضوعات للبرنامج بأسره .و تحليل الموضـوعات

يؤدي إلى تجزئة مجمل الموضوعات للبحث عن نوا ا الأساسية التي هي العناصر الجزئية . و تحاول عملية إعداد الرموز إعادة جمع الموضوع المفكك في تقديم أوضاع وجودية . و في فك الرموز يقوم الأفراد بتجزئة الرموز كي يفهموا موضـوعها أو مواضـيعها الواردة ضمنا . و لا تنتهي عملية فك الرموز هناك، بل تتم في عملية إعادة "كليـة" الكل المفكك الذي جرى فهمه هكذا بشكل أفضل (و كذلك علاقاته مـع أوضـاع مشفّرة أخرى ، و التي تمثل كلها أوضاعا وجودية) .

أو جوانب موضوعات على اختصاصيين من الخارج كمواضـيع لإجـراء أحاديـث مسجلة معهم .

لنأخذ موضوع التنمية كمثال ، يقوم الفريق بالاتصال باثنين أو أكثر من الاقتـصاديين من مدارس فكرية مختلفة و يحدثهم عن البرنامج، و يدعوهم لتقـديم حـديث عـن الموضوع بلغة مفهومة لمن سيحضرون . إذا وافق الإختصاصيون ، يجـري تـسجيل حديث معهم يستغرق خمس عشرة أو عشرين دقيقة . و يمكن أيضا أخذ صورة لكل إختصاصي خلال الحديث .

و عند تقديم الحديث المسجل إلى الحلقة الثقافية ، يجري عـرض مقدمـة عـن كـل متحدث، تعرف به و ما كتب و فعل و ما الذي يعمله الآن . و في الوقت ذاته تعرض صورته على شاشة . فإذا كان المتحدث ، على سبيل المثال ، بروفيسورا جامعيا يمكن أن تشمل المقدمة نقاشا حول رأي المشاركين في الجامعات و ماذا يتوقعـون منـها .و تكون ا موعة قد قيل لها أن الحديث المسجل ستعقبه مناقشة لمحتوياته (الأمـر الـذي سيكون بمثابة رمز سمعي) . و يقوم الفريق لاحقا بتقديم تقرير إلى الإختصاصي عن ردة فعل المشاركين خلال المناقشة . و يؤدي هذا الأسلوب إلى ربط المثقفين – الذين هم في

الغالب ذوو نوايا طيبة ، و لكنهم كثيرا ما يكونون "مغتربين" عن واقـع الـشعب – بذلك الواقع . و يوفر أيضا الفرصة للشعب لسماع آراء المثقفين و انتقادها .

و يمكن أيضا تقديم بعض المواضيع أو نوا ا بشكل مسرحي قـصير ، يحتـوي علـى المواضيع فقط – دون "حلول" ! و يعمل الشكل المسرحي كرمز ، كوضـع بطـرح مشكلة للمنافشة .

و ثمة مصدر إرشادي آخر – بشرط أن يقدم بطريقة تعليمية تطرح المشاكل و لـيس أسلوبا تعليميا "بنكيا" – و هو قراءة و منافشة مقالات في مجـلات و صـحف ، و فصولا من كتاب (مبتدئين بمجرد فقرات) . و كما هو الأمر مع الأحاديث المسجلة ، يجري تقديم المؤلف قبل أن تبدأ ا موعة، و تجري منافشة المحتويات لاحقا .

ووفقا للأسلوب نفسه ، لا يمكن الاستغناء عن تحليل محتويات افتتاحيـات الـصحف عقب أحداث بعينها : "لماذا تحتوي الصحف المختلفة على مثـل هـذه التفـسيرات المختلفة للحقيقة الواحدة ؟" و يساعد هذا العمل على تطوير الحس بالنقـد ، حـتى يتمكن الناس من أن تكون لديهم ردود فعل تجاه الصحف أو نشرات الأخبار الإذاعية ، ليس كأهداف سلبية "للبيانات" الموجهة إليهم ، بل كوعي يسعى إلى أن يكون حرا .

و مع إعداد جميع المواد الإرشادية ، التي يجب أن يضاف إليها كتيبات تقديم صغيرة ، يكون فريق المربين قد أصبح جاهزا ليعيد تقديم موضوعاته إلى الناس بشكل منظم و موسع . ذا تعود الموضوعات التي أتت من الناس إليهم – ليس كمحتويات يجري إيداعها ، بل كمشاكل للحل .

و المهمة الأولى لمعلمي التعليم الأساسي هي تقديم البرنامج العام للحملة التعليمية . و

سيجد الناس أنفسهم في هذا البرنامج، و بالتالي لن يبدو غريبا بالنسبة لهم ، بما أنه بدأ أصلا منهم .

وسيقوم المربون أيضا بشرح - استنادا إلى الطابع الحواري للتعليم - وجود الموضوعات المفصلية في البرنامج ، و أهميتها .

و إذا كان المربون يفتقرون إلى أموال كافية للقيام بالبحث الأولي في الموضوعات كما وصفناها آنفا ، بوسعهم – بالحد الأدنى من معرفة الوضع – اختيار بعض الموضوعات الأساسية لتكون "رموزا تجري دراستها و البحث فيها" . و بالتالي يستطيعون البدء بموضوعات تمهيدية و في الوقت ذاته يشرعون في المزيد من البحث في الموضوعات .

أحد هذه الموضوعات الأساسية (و الذي أعتبره مركزيا و لا يمكن الاستغناء عنه) هو المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة . بغض النظر إن كان الأشخاص من الفلاحين أو العمال الحضريين ، يتعلمون القراءة أو منخرطين في برنامج ما بعد تعلم القراءة و الكتابة ، فإن نقطة البدء في سعيهم لمعرفة المزيد (بمعنى التوسط في ذلك) هي مناقشة المفهوم . و مع أخذهم في مناقشة عالم الثقافة ، يعبرون عن مستوى وعيهم بالواقع الذي يحتوي ضمنيا على موضوعات مختلفة .و تتعرض مناقشتهم لجوانب أخرى من الواقع ، التي يجري إدراكها بأسلوب انتقادي متزايد . و تشمل هذه الجوانب ، بدورها ، موضوعات عديدة أخرى .

و يمكنني أن أؤكد ، و قد أصبحت التجربة الآن خلفي ، أن مفهوم الثقافة ، إذا ما نوقش بشيء من الخيال في جميع أبعاده أو غالبيتها ، يمكن أن يوفر جوانب مختلفة لبرنامج تعليمي . بالإضافة إلى ذلك ، بوسع المربين ، عقب عدة أيام من الحوار مع

المشاركين في حلقة ثقافية ، أن يسألوا المشاركين مباشرة :" ما هي الموضوعات الأخرى التي يمكن لنا منافشتها بالإضافة إلى هذه ؟" و لدى إجابة كل شخص يجري تسجيل جوابه و افتراحه فوراً كقضية على المجموعة .

قد يقول أحد أعضاء المجموعة ، على سبيل المثال ، "أود منافشة موضوع القومية" فيقول المربي و هو يسجل الافتراح "حسنا" ، ثم يضيف "ما هو معنى القومية ؟ و لماذا المنافشة حول القومية مهمة لنا ؟" إن تجربتي تبين أنه عندما يطرح افتراح كمشكلة أو قضية على المجموعة تبرز موضوعات جديدة . و إذا اجتمعت ، على سبيل المثال ، ثلاثون حلقة ثقافية في منطقة ما في الليلة ذاتها و اتبع المنسقون (المربون) الأسلوب نفسه ، سيتوفر للموضوع المركزي مادة موضوعية غنية التنوع للدراسة.

إن الشيء المهم ، من وجهة نظر التعليم التحرري ، هو أن يشعر الناس بأنهم أسياد تفكيرهم، و ذلك بمنافشة التفكير و النظرات إلى العالم التي تبدو صراحة أو ضمنيا في افتراحاتهم و افتراحات رفاقهم . و لأن هذه النظرة إلى التعليم تبدأ من القناعة بأنه من غير الممكن لها تقديم برنامجها الخاص ، بل يجب البحث عن البرنامج بالحوار مع الشعب ، فإنه من المفيد تقديم بيداغوجيا المضطهدين التي يجب أن يشارك المضطهدون في إعدادها .

الفصل الرابع

إن هذا الفصل ، الذي يحلل نظريات العمل الثقافي التي تنمو في أرحام حوارية و أخرى معادية للحوار ، يشير كثيرا إلى نقاط جرى الحديث عنها في الفصول السابقة ، إما لتوسيع تلك النقاط أو لتوضيح تأكيدات جديدة .

سأبدأ بإعادة التأكيد أن الناس ، باعتبارهم كائنات ممارسة ـ يختلفون عن الحيوانات التي هي كائنات نشاط محض . فالحيوانات لا تفكر في العالم ، إنها منغمسة فيه . و بالمقابل فإن الناس يبرزون من العالم ، يجعلونه في الوقت ذاته موضوعيا ، و يستطيعون من خلال ذلك فهم العالم وتحويره بعملهم .

تعيش الحيوانات ، التي لا تعمل ، في إطار لا تستطيع تجاوزه . و من ثم تعيش كل فصيلة من فصائل الحيوانات في السياقات المناسبة لها ، و رغم أن هذه السياقات مفتوحة للناس ، إلا أنها لا تستطيع التواصل فيما بينها .

و لكن نشاط الناس يتكون من العمل و التفكير : إنه الممارسة ؛ إنه تحوير العالم . و هو يتطلب ، باعتباره ممارسة ، نظرية لتنويره و هدايته . و بالتالي فإن نشاط الناس هو نظرية و ممارسة، إنه تفكير و عمل . و لا يمكن ، كما أكدت في الفصل الثاني ، اختزاله إلى مجرد تصفيف كلام أو عمل من أجل العمل .

إن قول لينين الشهير "لا توجد حركة ثورية بدون نظرية ثورية" (1)يعني أن الثورة لا يمكن تحقيقها بتصفيف الكلام أو العمل من أجل العمل ، بل بالممارسة ، أي بالتفكير و

العمل الموجهين إلى الهياكل التي يجب تغييرها . و لا يمكن للجهد الثوري الذي يهدف إلى تغيير هذه الهياكل بشكل جذري أن يحدد زعماءه كمفكرين له ، و المضطهدين كمجرد فاعلين .

و إذا كان الالتزام الحقيقي بالشعب ، الذي يشمل تغيير الواقع الذي يضطهدهم ، يتطلب نظرية عمل يسعى إلى التغيير ، فإن هذه النظرية لا يمكن أن تعجز عن تحديد دور جوهري للشعب في عملية التغيير . و لا يستطيع القادة معاملة المضطهدين على أنهم مجرد نشطاء يحرمون من فرصة التفكير، و يسمح لهم فقط بوهم العمل ، بينما ، يستمر في الواقع التلاعب بهم و غشهم ، و في هذه الحالة من قبل من يفترض أنهم أعداء التلاعب و الغش .

إن القادة يتحملون مسؤولية التنسيق ، و في بعض الأحيان التوجيه . و لكن القادة الذين

(1)فلاديمير لينين ، "What is to be Done " في Essential Works of Lenin ، المحرر هنري م. كريستمان (نيويورك ، 1966) ص 69 .

ينكرون الممارسة على المضطهدين ، يقومون بالتالي بإبطال ممارستهم و إلغائها . و يقومون لدى فرضهم كلمتهم على الآخرين بتزوير تلك الكلمة و يثيرون تناقضا بين أساليبهم و أهدافهم . فلو كانوا حقا ملتزمين بالتحرير ،لما تمكن عملهم و تفكيرهم من الانطلاق دون عمل و تفكير الآخرين .

يجب أن تكون الممارسة الثورية نقيضا لممارسة النخب المسيطرة ، لأنهما بطبيعتهما متناقضتان . فالممارسة الثورية لا يمكن أن تتحمل وجود انفصام سخيف تكون فيه

ممارسة الشعب هي مجرد اتباع قرارات القادة – انفصام يعكس أساليب النخب المسيطرة الخاصة بالإيعاز و"التوصيات" . فالممارسة الثورية هي وحدة ، و لا يمكن للقادة أن يتعاملوا مع المضطهدين على أنهم ملكا لهم .

لا يمكن للتلاعب و الغش و إطلاق الشعارات و "إيداع" [المعرفة] و التنظيم على نمط الكتائب العسكرية و الإيعاز أن يكونوا أجزاء مكونة من الممارسة الثورية ، و ذلك لأنها بالتحديد أجزاء مكونة لممارسة السيطرة . فمن أجل السيطرة لا يملك من يمارس السيطرة خيارا سوى حرمان الشعب من الممارسة الحقيقية ، حرمانه من حقه في قول كلمته و في بلورة أفكاره . و هو لا يستطيع العمل بشكل حواري . فعمل ذلك سيعني بالنسبة له إما أنه تخلى عن سلطته للسيطرة و انضم إلى قضية المضطهدين ، أو أنه خسر تلك السلطة بسبب سوء تقدير .

بالمقابل ، فإن القادة الثوريين الذين لا يتصرفون بشكل حواري في علاقاتهم مع الشعب، إما أن يكونوا قد احتفظوا بالسمات المميزة للمسيطرين و ليسوا ثوريين حقيقيين ، أو أنهم مضللون كلية في فهمهم لدورهم ، و أسرى انعزاليتهم ، و من ثم ليسوا ثوريين . و من الممكن حتى أن يصلوا إلى السلطة . و لكن مصداقية أية ثورة تنجم عن أي عمل معاد للحوار أمر مشكوك فيها كلية .

من الضروري للغاية أن يشارك المضطهدون في العملية الثورية بوعي انتقادي متزايد لدورهم كـ "فاعلين" للتغيير . و إذا جرى إشراكهم في العملية ككائنات غامضة ملتبسة ، جزءا يتكون من أنفسهم و الجزء الآخر من المضطهدين القابعين في داخلهم - و إذا وصلوا إلى السلطة و هم ما زالوا يجسدون ذلك الالتباس المفروض عليهم من قبل الوضع القمعي – فاعتقادي أنهم سيتخيلون فقط أنهم وصلوا إلى السلطة (1). و

حتى قد تسهل ازدواجيتهم الوجودية نشوء جو انعزالي يؤدي إلى إقامة بيروقراطيات تقوض الثورة . و إذا لم يع المضطهدون هذا الالتباس و الغموض خلال مسيرة العملية الثورية ، قد يشاركون في تلك العملية بروحية انتقامية، أكثر منها ثورية . و قد يتطلعون إلى

(1)يتطلب هذا الخطر أيضا من القادة الثوريين مقاومة تقليد إجراءات المضطهدين ، الذين "يتغلغلون" في المضطهدين و "يقبعون" في داخلهم . و لا يمكن للثوريين ، في ممارستهم مع المضطهدين ، أن "يقبعوا" في داخلهم . بل على العكس ، عندما يحاولون (مع المضطهدين) "طرد" المضطهدين ، يقومون بذلك من أجل أن يعيشوا مع المضطهدين- ليس للعيش في داخلهم .

الثورة كوسيلة إلى السيطرة ، بدلا من طريق للتحرر (1) .

إذا كان القادة الثوريون الذين يجسدون الإنسانية الحقة يجدون صعوبة و مشاكل ، ستصبح تلك الصعوبات و المشاكل أكبر بكثير بالنسبة لمجموعة من القادة الذين يحاولون (حتى مع توفر أحسن النوايا) القيام بثورة نيابة عن الشعب . إن محاولة ذلك تتساوى مع القيام بثورة من غير الشعب ، وذلك؛ لأن الشعب ينجذب إلى العملية بالأساليب و الإجراءات ذاتها التي تستخدم لاضطهاده .

إن الحوار مع الشعب أمر ضروري بشكل جذري لكل ثورة حقيقية ، فهذا هو ما يجعلها ثورة تتميز عن انقلاب عسكري . فالمرء لا يتوقع حوارا من انقلاب عسكري -إنما غشاً فقط (من أجل تحقيق "شرعية") أو قوة (من أجل القمع) . و لا بد للثورة الحقيقية ، إن عاجلا أم آجلا ، أن تدشن حوارا شجاعا مع الشعب .فشرعيتها ذاتها

تكمن في ذلك الحوار (2) .لا يمكنها الخوف من الشعب و من تعبيره عـن رأيـه و مشاركته الفعالة في السلطة . يجب عليها أن تكون مسؤولة أمامـه ، تتحـدث معـه بصراحة عن منجزاتها و أخطائها ، و سوء تقديرها و المصاعب التي تواجهها .

و كلما ابتدأ الحوار مبكرا ، كلما كانت الحركة أكثر ثورية . و ينسجم هذا الحـوار الضروري بشكل جذري بالنسبة للثورة مع حاجة جذرية أخـرى : حاجـة النـاس ككائنات ، لا يمكن أن تكون إنسانية حقا ، بمعزل عن التواصل ، لأنها مـن حيـث الأساس كائنات متواصلة . فإعاقة التواصل هو بمثابة اختـزال النـاس إلى مـصاف "الأشياء" – و هذه هي مهمة المضطهدين و ليس الثوريين .

دعوني أؤكد أن دفاعي عن الممارسة لا يعني وجود انفصام يمكـن بموجبـه تقـسيم الممارسة إلى مرحلة تفكير سابقة ، و مرحلة عمل لاحقة. العمل و الـتفكير يتمـان متزامنين . و لكن قد يكشف تحليل انتقادي أن شكلا معينا من العمل غير مناسب أو مستحيل في المرحلة الحالية . و بالتالي لا يمكن اتهام أولئك الذين يدركون من خـلال التفكير استحالة أو عدم ملاءمة شكل أو آخر من العمل (و الذي لا بد بالتـالي مـن تأجيله أو الاستعاضة عنه) بالتقاعس . فالتفكير الانتقادي هو عمل أيضا .

لقد سبق و قلت أن محاولة المعلم الطالب ، في التعليم ، فهم شيء قابـل للمعرفـة لا تنتهي في ذلك الشيء ، و ذلك لأن عمله يمتد إلى طلاب معلمين آخـرين بأسـلوب حيث يتوسط الشيء مدار المعرفة مع قدرتهم على الفهم.و الأمر ذاته ينطبـق علـى العمل الثوري ، أي أن المضطهدين و القادة هم

(1)على الرغم من أن المضطهدين ، الذين يخضعون على الدوام إلى نظام استغلال ، قد

يضفون (و هو أمر مفهوم) بعدا انتقاميا على النضال الثوري ، فإن الثـورة يجـب ألاّ تستنفذ قواها في هذا البعد .

(2)قال فيديل كاسترو للشعب الكوبي حينما أكد موت تشي جيفارا "في الوقت الذي قد نحصل فيه على بعض الفائدة من الشك ، فإن الأكاذيب و الخوف من الحقيقـة و التواطؤ مع الأوهام المزيفة ، و التواطؤ مع الأكاذيب =

بالتساوي "فاعلي" العمل الثوري ، و يقوم الواقع بالتوسط في تغيير عمل ا موعتين . و لا يمكن للمرء ، في نظرية العمل هذه ، أن يتحدث عن "لاعب" أو ببساطة "لاعبين" ، و لكن يمكنه الحديث عن "لاعبين في تواصل متبادل" .

قد يبدو أن هذا التأكيد يعني تقسيم القوى الثورية و انفصامها و تجزئتها ، و لكنه ، في الواقع يعني العكس تماما : وحد ا . و نرى ، بمعزل عن هذه الوحـدة ، انفـصاما : القادة في جانب ، و الشعب في الجانب الآخر ، في صورة طبـق الأصـل لعلاقـات الاضطهاد . إن نكران الوحدة في العملية الثورية ، و تفادي الحوار مع الشعب بحجـة تنظيمه و تقوية السلطة الثورية ، أو بحجة ضمان الجبهة الموحدة ، هو في الحقيقة خوف من الحرية . إنه خوف من الشعب و افتقار للإيمان به . فإذا تعذرت الثقة بالشعب ، لم يعد هناك داع للتحرر . و في هذه الحالة ، لا تكون الثورة قد تحققت من أجل الشعب بل من الشعب لأجل القادة : نكران كامل لنفسه .

الثورة لا تصنع بالقادة من أجل الشعب ، و لا بالشعب من أجل القادة ، بل ما معا ، بتضامن لا يهتز . و يولد هذا التضامن فقط عندما يهتم به القادة من خلال مواجهتهم المتواضعة والمفعمة بالحب و الشجاعة مع الشعب . و لا تتوفر شجاعة كافية لـدى

العديد من الناس لمثل هذه المواجهة – و لكن حينما يتحاشى الناس المواجهة يصبحون غير مرنين و يعاملون الآخرين كأدوات. و بدلا من رعاية الحياة يقتلو ا ، و بدلا من البحث عن الحياة يفرون منها . و هذه هي سمات المضطهدين المميزة .

قد يفكر البعض أن تأكيد الحوار – مواجهة الناس في العالم من أجل تغييره – هو عمل مثالي ساذج و ذاتي (1). في الواقع ، لا يوجد ما هو أكثر واقعية و "مادية" من الناس في العالم و مع العالم إلاّ وجود الناس مع أناس آخرين – و بعض الناس ضـد أنـاس آخرين ، مثل طبقة مضطهدة و طبقة مضطهدة .

إن الثورة الحقيقية تحاول تغيير الواقع الذي يولد هذه الأوضاع التي تجرد من الإنسانية . و لا يمكن لأولئك الذين يخدم ذلك الواقع مصالحهم أن يضطلعوا ذا التغيير ، بـل يجب أن يحققه من يتعرضون للاستبداد و القمع مع زعمائهم . إلاّ أن هذه الحقيقة يجب أن تصبح حقيقة مهمة بشكل جذري ، أي أن الزعماء يجب أن يجسدوها من خـلال الوحدة مع الشعب . و في هذه الوحدة يتحقق نمو الفريقين معا ، و من ثم فإن القـادة بدلا من أن يقوموا بتنصيب أنفسهم ، يجري تنصيبهم أو المصادفة عليهم في ممارسـتهم مع ممارسة الشعب .

و لكن العديد من الناس ، المرتبطين بنظرة ميكانيكية للواقع ، لا يدركون أن وضـع الناس

=لم تكن على الإطلاق أسلحة الثـورة . مـن صـحيفة Gramma بتـاريخ 17 أكتوبر/تشرين الأول 1967

(1)دعوني أؤكد مرة أخرى أن هذه المواجهة الحوارية لا يمكن أن تتم بين متعارضين .

الملموس يكيف وعيهم بالعالم ،وأن هذا الوعي يكيف، بـدوره ، مـوقفهم و طـرق تعاملهم مع الواقع . فهم يفكرون أن بالإمكان تحوير الواقـع ميكانيكيـا (1) ، دون طرح وعي الناس الخاطئ بالعالم كمشكلة ، أو بتطوير وعي ، من خلال العمل الثوري ، يكون أقل خطأ . لا يوجد أي واقع تاريخي لا يمت إلى الإنسان . و لا يوجد تـاريخ من غير الناس ، و لا يوجد تاريخ من أجل الناس ، هنالك فقط تاريخ الناس ، يصنعه الناس (و كما أشار ماركس) يصنعهم هو بدوره . و عندما تحرم الأغلبية من حقهـا بالمشاركة في التاريخ "كفاعلين" تصبح خاضعة للسيطرة و مغتربة . و هكذا ، فـإن تحويل وضعها "كمفعول به" إلى وضع "فاعل" – الذي هو هدف أية ثورة حقيقيـة – يتطلب من الناس أن يعملوا و يفكروا أيضا في الواقع الذي يجب تغييره .

التأكيد ، في الواقع ، بأن الناس قد أصبحوا "فاعلين"، بمجرد التفكير فقط في الواقـع القمعي و اكتشافهم لمكانتهم "كمفعول به" هو أمر مثالي . و مع أن هذا الإدراك بحد ذاته لا يعني أن الناس قد أصبحوا "فاعلين" ، إلاّ أنه يعني ، كما قال أحـد البـاحثين المشاركين معي ، إنهم "فاعلون في حالة انتظـار"(Subjects in Expectancy) – إنتظار يحملهم على السعي إلى تمتين مكانتهم الجديدة .

من الناحية الأخرى ، فإن من الخطأ الافتراض أن الإيمان بأن العمل الخالص (وهو ليس عملا حقيقيا) هو الطريق إلى الثورة . فالناس يكونون انتقاديين حقيقـيين إذا عاشـوا الممارسة كاملة ، أي إذا اشتمل عملهم على تفكير انتقادي ينظم تفكيرهـم بـشكل متزايد و بالتالي يقودهم إلى الانتقال من معرفة ساذجة محضة للواقع إلى مستوى أعلى، مستوى يمكنهم من إدراك أسباب الواقع . و إذا قام الزعماء الثوريون بحرمان النـاس من هذا الحق ، فإنهم يحدثون خللاً بقدرتهم على التفكير – أو على الأقـل الـتفكير

بشكل صحيح.فالقادة الثوريون لا يستطيعون التفكير من غير الشعب،أو نيابة عن الشعب ، بل يفكرون فقط مع الشعب .

من الناحية الأخرى ، تستطيع النخب المُسيطرة – لا و بل تفعل – أن تفكر من غير الشعب، على الرغم من أنها لا تسمح لنفسها بترف التقصير في التفكير في الشعب كي تعرفه بشكل أفضل و بالتالي تسيطر عليه بكفاءة أكبر . و من ثم فإن أي حوار أو تواصل يبدو بين النخب و الجماهير هو في الحقيقة إيداع "بيانات" ترمي محتوياتها إلى ممارسة نفوذ تدجين .

لماذا لا تصبح النخب المسيطرة منهكة متحللة بما أنها لا تفكر مع الشعب ؟ لأن الشعب يشكل نقيضها ، وهو سبب وجودها بالتحديد . فلو فكرت النخب مع الشعب ، سيتم نسخ التناقضات ،

"(1)الحقبات التي تكون فيها الطبقات المسيطرة ثابتة و مستقرة ، تلك الحقبات التي تضطر فيها الحركة العمالية إلى الدفاع عن نفسها ضد خصم قوي يهددها أحيانا و هو ، على كل حال ، متربع على السلطة بثقل ، تنتج بالطبع أدبيات اشتراكية تؤكد على العنصر "المادي" للواقع ، و العقبات التي يجب التغلب عليها و الكفاءة القاصرة للوعي و العمل الإنساني"- جولدمان ، المصدر الذي ذكر في السابق ، ص 80-81.

و لن تتمكن من السيطرة بعد ذلك . و من وجهة نظر من يسيطرون في أية حقبة يفترض التفكير السليم ألاّ يقوم الشعب بالتفكير .

أثار شخص يدعى السيد جيدي ، أصبح فيما بعد رئيس الجمعية الملكية [البريطانية] ، اعتراضا من الممكن أن يتكرر في أي بلد : "رغم كل ما يغري نظريا في مشروع توفير

التعليم للطبقات العاملة من الفقراء ، فإنه سيكون مجحفا و ضارا بمعنويا م و سعاد م ؛ سيعلمهم احتقار أبناء جلد م بدلا من جعلهم خدما جيدين في الزراعة و مجـالات العمل الأخرى التي تتطلب جهدا . و بدلا من تعليمهم الطاعة و الخضوع سـيجعل منهم شرسين و متمردين ، كما اتضح في مقاطعات الصناعات الإنتاجية . سـيمكنهم من قراءة كتيبات هدامة و كتبا شريرة و مطبوعات ضـد المـسيحية . سـيجعلهم أشخاصا وقحين مع من هم أعلى منهم ، و بعد سنوات قليلة ستضطر الهيئة التشريعية إلى توجيه يد السلطة القوية ضدهم ." (1)

إن ما كان يريده السيد جيدي ، في الواقع ، (و ما تريده النخب اليوم ، رغم أ ـا لا اجم التعليم العام ذه الصراحة و الاستخفاف) هو ألاّ يفكر الناس . و بما أن السيد جيدي في كل الحقبات ، كطبقة مضطهدة ، لا يمكنه التفكير مع الشعب ، فإنـه لـن يسمح للشعب بالتفكير بنفسه .

و لكن الأمر لا ينطبق على القادة الثوريين ، الذين إن لم يفكروا مع الشعب يصبحون منهوكين . فالشعب هو الرحم الذي يجري تكو م فيه ، و ليس مجرد شيئ يفكرون به . و رغم أن القادة الثوريين قد يضطرون أيضا إلى التفكير بالشعب كي يفهمونه بشكل أفضل ، إلاّ أن هذا التفكير يختلف عن تفكير النخب ، و ذلك لأنه من خلال التفكير بالشعب دف تحريره (بدلا من السيطرة عليه) يعطي الزعماء من أنفـسهم للـتفكير بالشعب . أحدهما هو تفكير السيد ، و الآخر هو تفكير الرفيق .

تتطلب السيطرة بطبيعتها وجود قطب مسيطر فقط ، و آخر خاضـع للـسيطرة في تناقض متعارض . و يعني التحرر الثوري الذي يحاول حل هذا التناقض ليس وجـود هذين القطبين فقط ، بل أيضا مجموعة قيادية تبرز في أثناء هذه المحاولة . و ا موعـة

القيادية هذه إما أن تقرن نفسها بالوضع الاضطهادي للشعب ، و إلا فلن تكون ثورية .فالتفكير بالشعب ، ببساطة، كما يفعل الذين يسيطرون ، دون إعطاء المرء أي شيء من نفسه خلال ذلك التفكير ، و الفشل في التفكير مع الشعب ، هو الطريق الأكيـد لأن يكف القادة عن كو م ثوريين .

تعيش النخب خلال عملية الاضطهاد على "الأحياء المـوتى" للمـضطهدين و تجـد مصداقيتها في العلاقة العمودية بينها و بين المضطهدين.و في العملية الثورية يوجد هناك طريق واحد للقادة الذين أخذوا بالظهور كي يحققوا مصداقيتهم: يجب أن "يموتوا"كي يولدوا من جديد من خلال المضطهدين

(1)نيوبوهر ، المصدر الذي ذكر في السابق ، ص 117-118

و يمكننا القول بشكل مشروع إنه خلال عملية الاضطهاد يقوم شـخص باضـطهاد شخص آخر ؛ ولا يمكننا القول إنه خلال عملية الثورة يقوم شخص بتحرير شـخص آخر ، كما لا يمكننا القول إن شخصا ما قد حرر نفسه ، بل يمكن القول إن الناس في اتحادهم و تلاحمهم يحررون بعضهم البعض . و هذا التأكيد ليس المقصود منه التقليـل من أهمية القادة الثوريين ، بل على العكس التأكيد على قيمتهم . فما الذي يمكـن أن يكون أكثر أهمية من أن يعيش المرء و يعمل مع المضطهدين ، مع الذين "لفظتهم الحياة" ، مع "المعذبين في الأرض" ؟ يتعين على القادة الثوريين في هذا التلاحم أن يجدوا ليس سبب وجودهم فحسب ، بل دافع البهجة و الفرح . فالقادة الثوريون ، بطبيعتـهم ، قادرون على فعل ما لا تستطيع النخب المُسيطرة – بطبيعتها – فعله حقيقة .

إن كل اتصال من قبل النخب بالمضطهدين ، كطبقة ، يتغلف بقناع من الكرم الزائف

الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول . و لكن القادة الثوريين لا يستطيعون أن يكونوا كرماء بشكل زائف ، كما أنهم لا يستطيعون التلاعب و الغش . . فبينما تنتعش النخب المضطهدة من خلال سحق الناس تحت أقدامها ، يتمكن القادة الثوريون من الانتعاش فقط في التلاحم مع الشعب . و هكذا ، لا يمكن لنشاط المضطهدين أن يكون إنسانيا ، بينما نشاط الثوريين و عملهم إنساني بالضرورة .

تلجأ عدم إنسانية المضطهدين و كذلك الإنسانية الثورية لاستخدام العلم . و لكن العلم والتكنولوجيا في خدمة الأولى تستخدم في اختزال الناس إلى مصاف "الأشياء" ؛ أما في خدمة الأخيرة فهي تستخدم لدعم "الأنسنة" ،إذ يجب أن يصبح المضطهدون "فاعلي" العملية الأخيرة ، حتى لا يستمر النظر إليهم على أنهم مجرد أشياء تستحق الاهتمام العلمي .

لا يمكن للإنسانية الثورية العلمية أن تعامل ، باسم الثورة ، المضطهدين على أنهم "أهداف" أو أشياء يجب تحليلها وتقديم (اعتمادا على نتائج ذلك التحليل) وصفات سلوك لها . فالقيام بمثل هذا العمل يعني الوقوع في إحدى خرافات أيديولوجية المضطهدين : جعل الجهل أمرا مطلقا . و تعني هذه الخرافة وجود شخص ما يقرر تجهيل شخص آخر . و الشخص الذي يصدر القرار ينصب نفسه و الطبقة التي ينتمي إليها كمن يعرف أو ولدوا ليعرفوا ؛ و التالي يحدد أن الآخرين كيانات غريبة. وتصبح كلمات طبقته هي الكلمات "الصحيحة الصادقة" التي يفرضها أو يحاول فرضها على الآخرين: المضطهدون الذين سلبت كلماتهم منهم . و ينشأ عند أولئك الذين يسلبون كلمات الآخرين شك عميق في قدرات الآخرين و يعتبرونهم عجزة لا قدرة لديهم . و دائما ينطقون كلمتهم دون الاستماع إلى كلمة من حرموهم من

الكلام ، و يتعودون أكثر فأكثر على السلطة و يكتسبون طعم التوجيه و إصدار الأوامر و القيادة . و لا يستطيعون العيش من غير أن يكون هناك من يصدر الأوامر لهم . و في هذا الجو يكون الحوار مستحيلا .

من الناحية الأخرى ، لا يمكن للقادة الثوريين الإنسانيين أن يؤمنوا بخرافة جهل الشعب . فليس لهم الحق في الشك و لو للحظة واحدة بأن ذلك مجرد خرافة.و لا يمكن لهم أن يؤمنوا أنهم هم ، و هم فقط يعرفون كل شيء ؛ لأن ذلك يعني الشك في الشعب . و رغم أنهم قد يعتبرون أنفسهم ، بشكل مشروع – نتيجة لوعيهم الثوري – يملكون مستوى معرفة ثورية تختلف عن مستوى المعرفة العملية التي يملكها الشعب ، فإنهم لا يستطيعون فرض أنفسهم و معرفتهم على الشعب . كما لا يمكنهم مخاطبة الشعب بالشعارات ، بل يجب عليهم الدخول في حوار معه ، حتى تتحول معرفة الشعب العملية بالواقع ، التي تغذيها معرفة القادة الانتقادية ، تدريجيا إلى معرفة بأسباب الواقع .

إن من السذاجة أن يتوقع المرء من النخب المضطهدة أن تشجب الخرافة التي تجعل جهل الشعب أمرا مطلقا ؛ و لكن عدم قيام القادة الثوريين بذلك سيكون تناقضا أساسيا ، و سيكون تناقضا أكبر لو أنهم تصرفوا أيضا وفقا لتلك الخرافة . فمهمة القادة الثوريين ليست فقط طرح الخرافة كمشكلة ، بل طرح جميع الخرافات الأخرى التي تستخدمها النخب المضطهدة من أجل الاضطهاد أيضا .و لكن إذا أصر القادة الثوريون ،بدلا من ذلك ، على تقليد أساليب سيطرة المضطهدين ، فسيرد الناس بطريقة من اثنتين : في ظروف تاريخية معينة قد "يندجنون" بفعل المحتويات الجديدة التي سيودعها القادة فيهم . و في ظروف أخرى قد يداخلهم الخوف من جراء "كلمة" قد

تحدد المضطهد القابع في نفوسهم (1) و في كلتا الحالتين لا يصبحون ثـوريين . ففـي الحالة الأولى ، تكون الثورة عبارة عن وهم ، و في الحالة الثانية مستحيلة .

يفترض بعض الأشخاص حسنو النية ، و لكن مضللون ، أنه مع كون العملية الحوارية قد طالت (2) (بالمناسبة ، هذا غير صحيح) ، يجب عليهم القيام بالثورة دون تواصل ، عبر "البيانات" ،

(1)في بعض الأحيان حتى هذه "الكلمة" لا يجري التفوه بها . فوجود شخص (ليس من الضروري أن ينتمي إلى مجموعة ثورية) يمكنه تحديد المضطهد "القابع" في نفوس النـاس يكفي لأن يتخذ الناس مواقف هدامة .

لقد قال لي طالب في إحدى المرات كيف قام قس متعـصب في إحـدى المجتمعـات الفلاحية في أمريكا اللاتينية بالتشهير بوجود "شيوعيين" اثـنين في ذلـك المجتمـع ، "يهددان" ما أسماه "الإيمان الكاثوليكي" . في تلك الليلة تجمع الناس كلـهم لحـرق معلمي المدرسة الابتدائية البسيطين اللذين كانا يعلمان الأطفال المحليين . من المحتمل أن القس رأى في بيت المعلمين كتابا على غلافه صورة رجل ذي لحية ...

(2)أود أن أؤكد مرة أخرى عدم وجود انفصام بين الحوار و العمل الثوري . فلـيس هناك مرحلة للحوار و أخرى للعمل الثوري . بل على العكس ، الحوار هـو جـوهر العمل الثوري . و في نظرية هذا العمل ، يقوم "اللاعبون" فيما بينهم بتوجيه عملـهم إلى "مفعول " (الواقع الذي يتوسط بينهم) بهدف "أنسنة" الناس (الأمر الذي سيتحقق من خلال تحوير الواقع). و في نظرية العمل الاضطهادي ، الذي هو معاد للحـوار في جوهره ، يجري تبسيط المخطط المذكور آنفا .فعمـل "اللاعـبين" لديـه هـدفان أو

"مفعولان " متزامنان : الواقع و المضطهدون ، و كذلك =

و عندما يتم انتصار الثورة سيقومون حينئذ بتطوير جهد تعليمي شامل ، ويزيدون في تبرير هذا الإجراء بالقول إنه من غير الممكن القيام بالتعليم – التعليم التحرري – قبل تولي السلطة .

و من الجدير تحليل بعض النقاط الجوهرية في التأكيدات السابقة . إن هؤلاء الناس (أو غالبيتهم) يؤمنون بضرورة الحوار مع الشعب ، و لكنهم لا يؤمنون أن هـذا الحـوار ممكن قبل تولي السلطة . فبإنكارهم لإمكانية قيام القادة بالتصرف بإسلوب تعليمـي انتقادي قبل تولي السلطة ، ينكرون الصفة التعليمية للثورة كعمل ثقافي يـستعد لأن يصبح ثورة ثقافية . و يخلطون العمل الثقافي بالتعليم الجديد الذي سيتم تدشينه عنـد تولي السلطة .

لقد سبق و أكدت أنه لأمر ساذج ، في الواقع ، أن يتوقع المرء من النخب المـضطهدة تطبيق تعليم تحرري . و لكن لأن للثورة طبيعة تعليمية ، لا يمكن إنكارها ، بمعنى أ ـا إن لم تحرر فهي ليست ثورة ، فإن الاستيلاء على السلطة يشكل لحظة واحدة فقـط، مهما كانت حاسمة ،في العملية الثورية . و كعملية ، فإن "ما قبل الثورة" يقع في ا تمع الاضطهادي ، و يبدو فقط للوعي الثوري .

تولد الثورة ككيان اجتماعي في إطار ا تمع القمعي . و لا يمكن لهـا أن تفـشل في الانسجام مع إمكانيات الكيان الاجتماعي الذي ولدت فيه ما دامت عملا ثقافيا . و كل كيان يتطور (أو يتحول) داخل ذاته من خلال تفاعـل تناقـضاته .و رغـم أن التناقضات الخارجية ضرورية إلاّ أ ا فعالة فقط إذا تطابقت مع تلك الإمكانيات (1).

و تولد حداثة الثورة داخل إطار المجتمع القديم المضطهد، و يشكل تولي السلطة فقط لحظة حاسمة من العملية الثورية المستمرة . و لا يوجد بالنسبة للنظرة الديناميكية ، و ليس الساكنة ، للثورة أي "قبل" أو "بعد" مطلق ، بحيث يشكل الاستيلاء على السلطة الخط الفاصل بينهما .

إن الثورة ، التي تولد في ظروف موضوعية ، تسعى إلى الحل محل وضع الاضطهاد بإقامة مجتمع من الناس في حالة عملية تحرر دائم . و بالتالي فإن الصفة التعليمية و الحوارية للثورة ، التي تجعل منها "ثورة ثقافية" أيضا ، يجب أن توجد في جميع مراحلها . و هذه الصفة التعليمية هي من أكثر الأدوات فعالية في الحيلولة دون أن تصبح الثورة "مؤسساتية" ومنضدة في بيروقراطية ثورة مضادة ، لأن الثورة المضادة يقوم بها ثوريون يتحولون إلى رجعيين .

لو لم يكن من الممكن الحوار مع الشعب قبل تولي السلطة لعدم خبرته في الحوار ، لن يكون ممكنا للشعب أن يتولى السلطة ، لأنه لا يملك الخبرة كذلك في استخدام السلطة . إن العملية الثورية هي عملية ديناميكية ، و في هذه الديناميكية المستمرة ، في ممارسة الشعب مع القادة الثوريين ، سيتعلم الشعب و القادة الحوار و استخدام السلطة . (هذا أمر واضح وضوح التأكيد بأن الإنسان

=الحفاظ على الاضطهاد (من خلال الحفاظ على الواقع القمعي) كهدف لهم .

(1)راجع ماو تسي تونج ، المصدر الذي سبق ذكره .

يتعلم السباحة في الماء و ليس في المكتبة).

إن الحوار مع الشعب ليس تنازلا أو هبة ، كما أنه ليس تكتيكا يستخدم من أجل

السيطرة . الحوار ، باعتباره مواجهة بين الناس لـ "تسمية" العالم ، هو شرط أساسي من شروط "أنسنة" الناس بشكل حقيقي . و كما يقول كاجو بتروفيتش : "العمل الحر هو ذلك العمل الذي يستطيع المرء من خلاله تغيير عالمه و نفسه ... و الشرط الإيجابي للحرية هو معرفة حدود الضرورة ، إدراك إمكانيات الخلق الإنساني ... و النضال من أجل مجتمع حر هو ليس نضالا من أجل مجتمع حر إلاّ إذا تم من خلاله تحقيق درجـة أكبر من الحرية الفردية ". (1)

إذا صحت هذه النظرة ، فإن العملية الثورية ذات طابع تعليمي بالدرجـة الأولى . و هكذا فإن الطريق إلى الثورة تعني الانفتاح على الشعب و ليس الانغلاق عليه كـسد منيع . إ ا تعني التلاحم مع الشعب ، و ليس عدم الثقة به . و كما أشار لينين ، كلما ازدادت حاجة الثورة إلى نظرية ، كلما تعين على قاد ا أن يكونوا مع الشعب حـتى يتصدوا لسلطة الاضطهاد .

و استنادا إلى هذه الآراء العامة لنقم بتحليل مطوّل لنظريات العمل المعادي للحوار و للعمل الحواري .الغزو

السمة الأولى للعمل المعادي للحوار هي الحاجة إلى الغزو.فالشخص المعادي للحـوار يرمي ، في علاقاته مع الأشخاص الآخرين ، إلى غزوهم – بـشكل متزايـد و بكـل الوسائل ، من الأشد عنفا إلى الأكثر ذيبا و رقة ، من أشدها قمعية إلى أكثرها عناية و اهتماما (أي أبوية) .

إن كل عملية غزو تعني وجود غاز و شخص أو شيء يتم غزوه . الغـازي يفـرض أهدافه على المغلوبين ، و يجعلهم ملكاً له . و يفرض حدوده الخاصة على المغلـوبين ،

الذين يستلهمون هذا الشكل و يصبحون كائنات "غامضة مبهمة" ، "تأوي" شخصا آخر . و عملية الغزو ، التي تحيل الناس إلى مصاف الأشياء ، هي ، من البداية، محبة للموت .

و كما أن العمل المعادي للحوار يلازم وضع الاضطهاد الحقيقي الملموس ،فإن العمل الحواري لا غنى عنه لإحلال الثورية محل ذلك الوضع . إن الإنسان ليس معاديا للحوار أو محاورا

بشكل تجريدي،و لكن في إطار العالم.إنه ليس معاديا للحوار في البداية،ثم يصبح مضطهدا ، بل يصبح كليهما في الوقت نفسه .ففي وضع اضطهاد موضوعي يكون العداء للحوار ضروريا للمضطهد

راجع كاجو بيتروفيتش : " Man and Freedom" in Socialist Humanism, edited by Eric Fromm (New York، 1965) ، ص 274-276 . و أيضا للمؤلف نفسه كتاب Marx in the Mid-Twentieth Century (نيويورك ، 1967)

كوسيلة لمزيد من الاضطهاد – ليس فقط اقتصاديا ، بل ثقافيا أيضا : المغلوبون يجري تجريدهم من كلمتهم و القدرة على التعبير عن أنفسهم ، و من ثقافتهم . و بالإضافة إلى ذلك ، عندما ينشأ وضع قمعي يصبح لا غنى عن العداء للحوار من أجل الحفاظ على ذلك الوضع .

و لأن العمل التحرري حواري بطبيعته ، لا يمكن للحوار أن يأتي في أعقاب ذلك العمل ، بل يجب أن يكون ملازما له . و بما أن التحرر يجب أن يكون حالة دائمة ،

فإن الحوار يصبح جانبا مستمرا من العمل التحرري (1).

إن الرغبة في الغزو (أو بالأحرى ضرورة الغزو) موجودة في كل الأوقات في العمل العادي للحوار . و من أجل تحقيق هذا الهدف يحاول المضطهدون تدمير خصلة "التبصر" في العالم لدى الناس. و بما أن المضطهدين لا يستطيعون تدمير ذلك كلية يتوجب عليهم إضفاء خرافة على العالم . و يقوم المضطهدون – كي يقدموا للمضطهدين و المقهورين عالما من الخداع معدا لزيادة اغترابهم وسلبيتهم – بتطوير سلسلة من الأساليب التي تستثني أي تقديم للعالم كمشكلة ، بل تقدمه ككيان ثابت ، كشيء مقرر – شيء يتعين على الناس التكيف معه لأنهم مجرد متفرجين .

إن من الضروري ، بالنسبة للمضطهدين التعامل مع الناس من خلال القهر لإبقائهم سلبيين . و لكن هذا التقدير التقريبي لا يشمل ضرورة كونهم مع الشعب ، أو يتطلب تواصلا حقيقيا . إنه يتم من خلال قيام المضطهدين "بإبداع" خرافات لا غنى عنها للحفاظ على الوضع القائم : على سبيل المثال ، خرافة أن النظام القمعي هو "مجتمع حر" ، و خرافة أن جميع الناس أحرار في العمل حيث يشاؤون ، و إنهم إن لم يرتاحوا لرؤسائهم يحق لهم ترك العمل و البحث عن مكان آخر ؛ خرافة أن هذا النظام يحترم حقوق الإنسان و بالتالي فهو يستحق الاحترام ؛ خرافة أن أي شخص مجتهد يمكنه أن يصبح من رجال الأعمال.و الأسوأ من ذلك خرافة أن البائع المتجول في الشوارع هو رجل أعمال مثله مثل صاحب مصنع كبير ، خرافة الحق في التعليم العام للجميع في الوقت الذي تبلغ نسبة من يصل من الأطفال البرازيليين في المدارس الأولية إلى التعليم الجامعي هي نسبة ضئيلة للغاية ، خرافة كون الجميع متساوين عندما يطرح السؤال : "هل تعرف مع من تتكلم ؟" ، خرافة بطولة طبقة المضطهدين كحماة "الحضارة الغربية

المسيحية" في وجه "البربرية المادية" ، خرافة كرم النخب و فعلها للخير،بينما ما تفعله كطبقة،في الواقع،هو تكريس "الأعمال الطيبة" الانتقائية (التي يجري نـسجها لاحقـا كخرافة تتحدث عن"مساعدات نزيهة"، التي انتقدها بشدة على الصعيد العالمي (2)

(1)عند تولي ثورة شعبية السلطة فإن حقيقة وقوع مسؤولية أخلاقية على عاتق السلطة الجديدة لقمع أية محاولة لإعادة النظام القمعي القديم، لا يعني أن الثورة تناقض طابعها الحواري . فالحوار بين المضطهدين السابقين والمضطهدين ، كطبقات متناحرة ، لم يكن ممكنا قبل الثورة ، و يستمر مستحيلا بعدها .

"(2)بالإضافة إلى ذلك يتعين على البلدان المتقدمة اقتصاديا أن تولي اهتماما خاصا بأن لا تحاول من خلال =

البابا يوحنا الثالث و العشرون ، خرافة أن النخب المُسيطرة ، "مدركـة لواجبـها" ، تدعو إلى تقدم الشعب ، حتى يقوم الشعب ، عرفانا بالجميل ، بقبول ما تقوله النخب و يلتزم ا ، خرافة أن التمرد هو خطيئة في حق الله ، خرافة أن الملكية الخاصة شـيء جوهري للتطور الإنساني الفردي (ما دام المضطهدون هـم المخلوقـات الإنـسانية الوحيدة) ، خرافة اجتهاد المضطهدين ، و كسل و عدم أمانة المضطهدين ، و كـذلك أكذوبة انحطاط المضطهدين و تفوق المضطهدين. (1)

إن جميع هذه الخرافات (و غيرها مما قد يضيفه القراء) التي يعتبر استلهامها ضـروريا لقهر المضطهدين ، تقدم إليهم عن طريق دعاية حسنة التنظيم و شعارات من خـلال وسائل "اتصال" جماهيرية – و كأن اغترابا من هذا القبيل يمثل تواصلا حقيقيا (2).

باختصار ، لا يوجد هناك واقع قمعي ليس هو، في الوقت ذاته و بالضرورة ، معاديـا

للحوار، كما أنه ليس هنالك عداء للحوار لا يكرس المضطهدون فيه أنفسهم بلا كلل لغزو المضطهدين بشكل دائم . ففي روما القديمة ، كانت النخب المُسيطرة تتحـدث عن الحاجة إلى توفير "الخبز و السيرك" للشعب من أجل "تليينه" و ضمان هدوئه . و النخب المسيطرة اليوم ، مثلها مثل تلك في أية حقبة أخرى ، تستمر (بموجب صـيغة "الخطيئة الأصلية") في الحاجة إلى غزو الآخرين – بالخبز و الـسيرك أو بـدو نهما . و يختلف محتوى و أسلوب الغزو تاريخيا ، و لكن الذي لم يتغير (طالما النخب المـسيطرة موجودة) هو الشهوة المميتة للاضطهاد .

فرق تسد

هذا بعد جوهري آخر من أبعاد نظرية العمل القمعي ، قديم قدم الاضطهاد نفـسه . فبما أن الأقلية التي تمارس الاضطهاد تقهر الأغلبية و تسيطر عليها ، لا بد لها مـن أن تفرقها و الإبقاء عليها مشتتة حتى تستطيع البقاء في السلطة . و لا يمكن للأقليـة أن تسمح لنفسها بترف التسامح مع وحدة الشعب ، [إذ أن الوحـدة] ستـشكل دون شك تهديدا خطيرا لهيمنتها . و بالتالي ، يقوم المضطهدون بأية وسيلة (بمـا في ذلـك العنف) ، بمنع أي عمل يؤدي حتى و لو بشكل بدائي إلى تنبيه المضطهدين

=إعطائها مساعدات إلى البلدان الأفقر تحويل الوضع الـسياسي الـسائد [في تلـك البلدان] لصالحها وأن تسعى إلى السيطرة عليها . فإذا صدف و حدثت مثـل هـذه المحاولات ، ستكون بوضوح شكلا آخر من أشكال الاستعمار المقنع اسميـا فقـط ، وسيعكس مجالا انقضى زمنه و تخلت عنه بلدان كثيرة . إن إعاقة العلاقات الدوليـة هكذا سيعرض للخطر التقدم المنتظم كافة الشعوب ." راجع : Pope John XXIII, "Christianity and Social Progress", from the Encyclical Letter Mater et Magistra, articles 171 and 172 .

(1)يشير ميمي إلى الصورة التي يشكلها المُستعمر للمستعمر بالقول : "من خلال اتهامه يثبت المُستعمر أن المُستعمر كسول . ويقرر أن الكسل مكون في طبيعة المُستعمر نفسها" راجع : ميمي ، المصدر الذي سبق ذكره ، ص 81.

(2)أنا لا أنتقد وسائل الإعلام نفسها ، بل الطريقة التي يجري استخدامها فيها .

إلى ضرورة الوحدة . فمفاهيم مثل الوحدة و التنظيم و النضال يجري وصفها على الفور بأنها خطرة . و في الواقع،إنها مفاهيم خطرة – بالنسبة للمضطهدين – لأن تطبيقها ضروري للنشاطات التحررية .

إن من مصلحة المضطهدين إضعاف المضطهدين أكثر فأكثر ، و عزلهم و خلق انقسامات بينهم و تعميقها . و ذلك يجري بطرق مختلفة ، بدءا من الأساليب القمعية للبيروقراطية الحكومية ، وانتهاء بأشكال العمل الثقافي التي يستخدمونها للتلاعب بالشعب و غشه و خلق الانطباع لديه بأنهم يقدمون له المساعدة .

و إحدى السمات المميزة للعمل الثقافي القمعي ، الذي لا يتم إدراكه على الإطلاق تقريبا من قبل المحترفين المخلصين السذج الذين يشاركون فيه، هو التأكيد على النظرة المُركزة أو البؤرية

(Focalized) للمشاكل بدلا من رؤيتها كأبعاد لـ "الكل" . ففي مشاريع "تنمية المجتمعات" فإن الإفراط في تجزئة إقليم أو منطقة إلى "مجتمعات محلية" دون دراسة هذه المجتمعات ككل في حد ذاتها وكأجزاء من كُلٍ آخر (المنطقة و الإقليم و إلى ما غير ذلك) – التي هي بدورها جزءا من كُلٍ أكبر (الأمة ، و كجزء من الكل القاري) – سيؤدي إلى زيادة الاغتراب و تعميقه . و مع ازدياد اغتراب الشعب يصبح من

الأسهل تقسيمه و الإبقاء عليه منقسما.و تقوم أشكال العمل "البؤرية" هـذه ، مـن خلال تشديد طريقة حياة المضطهدين البؤرية (لا سيما في المناطق الريفية) ، بإعاقـة المضطهدين من إدراك الواقع بشكل انتقادي،و تبقيهم في عزلة عن مـشاكل النـاس المضطهدين في مناطق أخرى . (1)

و يحدث التأثير ذاته الذي يسبب الشقاق و الفرقة فيما يتعلق بمـا يـسمى "دورات تدريب القادة" ، التي هي (رغم أنها تنظم دون توفر مثل هذه النية لدى العديـد مـن منظميها) في التحليل النهائي تؤدي إلى الاغتراب . و تستند هذه الدورات إلى الفرضية الساذجة أن بإمكان المرء دعم المجتمع من خلال تدريب قادته – كأن الأجزاء تـدعم الكل و ليس الكل يدعم الأجزاء من خلال دعمه ذاته . إن أعضاء المجتمعات الـذين يظهرون قدرات قيادية كافية تؤهلهم لأن يتم اختيارهم لهذه الـدورات ، يعكـسون بالضرورة تطلعات الأفراد في مجتمعاتهم و يعبرون عنهم .إنهم ، في الواقع ، في انسجام مع طريقة المعيشة و التفكير التي تميز رفاقهم ، حتى و إن أبدوا قدرات خاصة تـضفي عليهم صفة "القادة" . و حال انتهائهم من الدورة و عودتهم إلى مجتمعاتهم بإمكانيات لم يملكوها في السابق، يقومون إما باستخدامها للتحكم بوعي رفاقهم الخاضع للسيطرة و المطمور، أو أنهم يصبحون غرباء

(1)لا ينطبق هذا النقد على الأعمال التي تتم في إطار أفق جدلي و تـستند إلى فهـم للمجتمع المحلي ككل في حد ذاته و كجزء من كُلٍ أكبر . إنه موجه إلى أولئك الذين لا يدركون أن تطوير المجتمع المحلي لا يمكن أن يتم إلاّ في السياق الشامل الذي يشكل هو جزء منه ، في تفاعل مع أجزاء أخرى . و هذا المتطلب يعني وعـي الوحـدة في تنوعها ، و إدراك التنظيم الذي يوجه القوى الموزعة ، و يعني وعيا واضحا بـضرورة

تحوير الواقع . هذا هو ما يخيف المضطهدين (وهو أمر مفهوم) .

في مجتمعا م ، و بالتالي تصبح مكانتهم القيادية السابقة مهددة . و ربما يلجأون، كي لا يفقدوا مكانتهم القيادية ، إلى الاستمرار في التلاعب و الغش في مجتمعهم ، و لكـن بإسلوب أكثر كفاءة .

و عندما يقوم العمل الثقافي ، باعتباره عملية كلية و تؤدي إلى الكلية ، بالتعامل مـع مجتمع بأسره ، و ليس فقط مع قادته ، تحدث عملية عكسية . فإما أن ينمو و يكـبر القادة السابقون مع الآخرين جميعا ، أو يتم استبدالهم بقادة جدد يبرزون نتيجة للوعي الاجتماعي الجديد للمجتمع .

و لا يحبذ المضطهدون دعم ا تمع و تطويره ككل ، بل دعم قادة مختارين . فالنـهج الأخير يعيق ، من خلال الإبقاء على حالة الاغتراب ،ظهور وعي و تدخل انتقادي في واقع كلي . و بدون هذا التدخل الانتقادي ، يكون من الصعب على الدوام تحقيـق وحدة المضطهدين كطبقة .

إن التناحر الطبقي هو مفهوم آخر يزعج المضطهدين ، بما أ م لا يرغبـون في اعتبـار أنفسهم طبقة مضطهدة . و بما أ م لا يقدرون إنكار ، مهما حاولوا ، وجود طبقـات اجتماعية ، يبشرون بالحاجة إلى التفاهم و الانسجام بين أولئك الذين يشترون العمل و أولئك المضطرين إلى بيع عملهم.(1) إلاّ أن الخصومة التي لا يمكـن إخفاؤهـا بـين الطبقتين تجعل هذا "الانسجام" أمرا مستحيلا. (2) إن النخب تدعو إلى "الانسجام" بين الطبقات و كأن الطبقات تكتل عرضي لأفراد يتفرجون باستغراب على واجهة محل تجاري بعد ظهر أحد أيام الأحد . إن الانسجام الوحيد الممكن و تمكن

(1) يشير الأسقف فرنيك سبليت ببلاغة إلى هذه النقطة : "إذا لم يصبح العمال مالكين على نحو ما لعملهم، لن تكون هناك أية جدوى لكافة الإصلاحات الهيكلية . [هذا صحيح] حتى و لو حصل العمال على رواتب أعلى في نظام اقتصادي ، و لكنهم غير راضين بهذه الزيادة . إنهم يريدون أن يكونوا مالكين لعملهم و ليس

بائعين له ...إن العمال في الوقت الحاضر أخذوا يدركون بشكل متزايد أن العمل يمثل جزءا من الإنسان . والإنسان لا يمكن أن يشترى ، كما أنه لا يستطيع بيع نفسه . فأي شراء أو بيع للعمل هو نوع من العبودية. و تطور المجتمع الإنساني ، من هذه الناحية يجري كما هو واضح في إطار نظام يقال إنه أقل استجابة من نظامنا

لموضوع الكرامة الإنسانية ، أي الماركسية." راجع : "15 Obispos hablan en prol del Tercer

Mundo", CIDOC Informa, (Mexico,1967), Doc.67/35, ص 1- 11

(1) فيما يتعلق بالطبقات الاجتماعية و الصراع بينها (الذي غالبا ما يتهم كارل ماركس باختراعه) راجع

رسالة ماركس إلى ج .فايدماير ، المؤرخة 1 مارس/آذار 1852 : "...لا يعود أي فضل لي في اكتشاف

وجود طبقات في المجتمع الحديث ، أو الصراع بينها . فقبلي بكثير قام المؤرخون البورجوازيون بوصف التطور

التاريخي لهذا الصراع الطبقي ، كما وصف الاقتصاديون البورجوازيون تـشريح الطبقات الاقتصادي . إن

الشيء الجديد الذي قمت به هو إثبات: (1) أن وجود الطبقات مـرتبط فقـط بمراحل=

رؤيته هو ذلك السائد بين المضطهدين أنفسهم . فعلى الرغم من أ م قد يختلفون ، و حتى يصطدمون في بعض المناسبات حول مصالح ا موعة ، إلاّ أ م يتحدون على الفور إزاء أي ـديد لطبقتهم . وكذلك بالمثل ، يمكن أن يسود الانسجام في صفوف طبقة المضطهدين فقط عندما يكون أعضاؤها منهمكين في النضال من أجـل التحـرر.و في حالات استثنائية فقط يصبح من غير الممكن،بل وضرورياً للطبقتين أن تتحدا وتعمـلا معا في انسجام وحسب.و لكن عندما ينتهي الظرف الطارئ الذي حملهما على الوحدة تعودان إلى التناقض الذي حدد وجودهما و الذي لم يختف على الإطلاق في الواقع .

إن جميع أعمال الطبقات المُسيطرة تعكس حاجتها إلى أن تفرق كي يسهل الحفاظ على حالة الاضطهاد : تدخلها في النقابات ، و تفضيلها بعض "ممثلي" الطبقات الخاضـعة للسيطرة (الذين يمثلون في الواقع المضطهدين ، و ليس رفاقهم) ، مساند ا و دعو ـا لأشخاص يبدون قدرات قيادية من الممكن أن يشكلوا خطرا لو لم يتم "تليينهم" ـذه الطريقة ؛ قيامها بتوزيع الفوائد على البعض وفرض عقوبات على آخرين ، و تلـك كلها طرق للتفرقة من أجل الحفاظ على النظام الذي يحابي النخب.إ ا أشكال عمـل تستغل ، بشكل مباشر أو غير مباشر،إحدى نقاط ضعف المضطهدين : شعورهم بعدم الأمان أساسا . فالمضطهدون يشعرون بعـدم الأمـان في ازدواجيتـهم ككائنـات "تأوي"المضطهدين ، من ناحية يقاومو م ، و من ناحية أخرى ، ينجذبون نحـوهم في

مرحلة معينة من علاقاتهم . في مثل هذه الظروف ، يحصل المضطهدون بسهولة على نتائج إيجابية من عملهم الذي يؤدي إلى التفرقة .

بالإضافة إلى ذلك ، يعرف المضطهدون ثمن عدم قبول "دعوة" تقدم بهدف منع وحدتهم كطبقة : فقدان وظائفهم و وضع أسمائهم في "القائمة السوداء" ، مما يعني أن إغلاق الأبواب أمام وظائف أخرى هو أقل ما يمكن أن يحدث . و هكذا فإن عدم شعورهم بالأمان مرتبط باستعباد عملهم (مما يعني حقا استعباد أشخاصهم ، كما أكد الأسقف سبليت) .

إن الناس تشعر بالاكتمال و إنجاز ما يصبون إليه بالقدر الذي تخلق فيه عالمها (الذي هو عالم الإنسان) ، و تخلقه بعملها الذي يحقق التغيير . من ثم فإن إنجاز الناس و اكتمالهم كناس يكمن في اكتمال العالم . فإذا كان وجود الناس في عالم العمل يعني أن يكونوا تابعين كلية و غير آمنين ويتعرضون للتهديد بشكل دائم – إذا كان عملهم ليس ملكهم – عندها لا يمكن لهم أن يكونوا مكتملين يشعرون بالرضى . فالعمل غير الحر يكف عن كونه عملا مرضيا و يصبح أسلوباً فعالاً للتجريد من الإنسانية .

=تاريخية معينة من تطور الإنتاج ، (2) أن الصراع الطبقي يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية البروليتاريا ، (3) أن هذه الديكتاتورية نفسها تشكل فقط [مرحلة] الانتقال إلى إلغاء جميع الطبقات و إلى المجتمع اللاطبقي." راجع : Karl Marx and Fredrick Engels, Selected Works, (New York,1968)، ص 679.

كل تحرك من المضطهدين نحو الوحدة يشير في اتجاه أعمال أخرى .إنه يعني أن المضطهدين ، إن عاجلا أم آجلا ، سيستوعبون وضع تجريدهم من شخصيتهم و

يكتشفون أنه ما داموا منقسمين على أنفسهم سيظلون على الدوام فريسة سهلة للتلاعب و الغش و السيطرة . فالوحدة و التنظيم سيمكنا م من تغيير ضعفهم إلى قوة ، تغيير يستطيعون من خلاله إعادة خلق العالم و جعله أكثر إنسانية . (1) إلا أن العالم الأكثر إنسانية الذي يتطلعون إليه ، عن وجه حق ، هو نقيض "عالم الإنسان" الخاص بالمضطهدين – عالم هو ملكية خاصة مقتصرة على المضطهدين الذين ينادون بانسجام مستحيل التحقيق بينهم (هم الذين يجردون من الإنسانية) ، و بين المضطهدين (الذين جردوا من إنسانيتهم). و بما أن المضطهدين و المضطهدين نقيضان فإن ما يخدم مصالح مجموعة يضر بمصالح ا موعة الأخرى .

بالتالي فإن التفرقة من أجل الحفاظ على الوضع القائم هي بالضرورة هدف جوهري لنظرية العمل المعادي للحوار . بالإضافة إلى ذلك ، يحاول المُسيطرون تقديم أنفسهم على أ م من ينقذ الناس الذين يجردو م من إنسانيتهم و يفرقو م . إلاّ أن هذه "الرسالة" لا يمكن لها أن تخفي نيتهم الحقيقية : إنقاذ أنفسهم . إ م يريدون إنقاذ ثروا م و سلطتهم و طريقة حيا م : الأشياء التي تمكنهم من إخضاع الآخرين و قهرهم . و لكن خطأهم هو أن الناس لا يستطيعون إنقاذ ذوا م (بغض النظر عن كيف يفهم المرء معنى "إنقاذ") في كلتي الحالتين: كأشخاص أو كطبقة مضطهدة . الإنقاذ و الخلاص يمكن أن يتحققا فقط مع الآخرين . و لكن بما أن النخب تقوم بالاضطهاد فإنه لا يمكن لها أن تكون مع المضطهدين ، لأن الوقوف ضدهم هو جوهر الاضطهاد .

قد يكشف التحليل النفسي للعمل القمعي عن أن "الكرم الزائف" للمضطهدين - تحدثنا عنه في الفصل الأول- هو أحد أبعاد شعور المضطهدين بالذنب . فيحاولون ذا

الكرم الزائف ليس فقط الحفاظ على نظام غير عادل مميت ، بل أيضا "شراء" السلام لأنفسهم . ولكن ، كما هو الحال ، لا يمكن شراء السلام . فالسلام تــتم تجربتــه في الأعمال التضامنية و المفعمة بالحب ، التي لا يمكن أن تتجسد في القمع . و من ثم فإن عنصر "رسالة الخلاص" لنظرية العمل المعادي للحوار هو تعزيز الــسمة الأولى لهــذا العمل : ضرورة الغزو .

و بما أن تقسيم الناس و التفرقة بينهم أمر ضروري من أجل الحفاظ علــى الوضــع القائم

(1)لهذا السبب لا يستغني المضطهدون عن الإبقاء على الفلاحين في عزلة عن العمــال في المدن ، كما أنه لا غنى عن المحافظة على عزلة ا موعتين عن الطلاب . فاســتعداد الطلاب للتمرد (على الرغم من أ م لا يشكلون طبقة من الناحية الاجتماعية) يجعلهم خطرين إذا ما انضموا إلى الشعب . و هكذا فإن من الضروري إقناع الطبقات الدنيا بأن الطلاب غير مسؤولين و مشاغبين ، و أن استعدادهم زائف ، لأ م كطلاب يجب عليهم أن ينكبوا على الدراسة ، تماما مثلما يتعين على العمال الصناعيين و الفلاحــين أن يعملوا من أجل "تقدم الأمة" .

بالتالي الحفاظ على سلطة المُسيطرين ، فإن من الأمور الأساسية بالنسبة للمــضطهدين الحيلولة دون إدراك المضطهدين لاستراتيجيتهم . و من ثم فإنه يتعين على ا موعــة الأولى إقناع ا موعة الأخيرة الدفاع عنها ضد الأعمال الــشيطانية "للمهمــشين و المشاغبين و أعداء الله" (لأن هذه هي الصفات التي تلصق بالأشخاص الذين عاشوا و يعيشون في سعي شجاع لتحقيق "أنسنة" الناس) . و من أجل تفرقة الناس و تشويشها يطلق المدمرون على أنفسهم صفة البنائين ، و يتهمون البنائين الحقيقيين بأ م هدامون

.و لكن التاريخ يتولى بنفسه دائما تصحيح هـذه الـصفات . و اليـوم ، رغـم أن الاصطلاحات الرسمية مستمرة في وصف تيرادنتس (1) بالمتآمر و الحركة التحررية التي قادها بالمؤامرة، فإن البطل القومي (2) ليس هو ذلك الـشخص الـذي قـال عـن تيرادنتس إنه "قاطع طرق" و أمر بشنقه و تقطيع جثته و إلقائها قطعا في شوارع القرى ا اورة ليكون عبرة . إن تيرادنتس هو البطل . لقد مزق التاريخ ذلك "اللقب" الذي منحته إياه النخب و ا عترف بعمله قدر ما هو جدير به . إن الأبطال هم الأشـخاص الذين سعوا في زما م إلى الوحدة من أجل التحرير ، و ليس أولئك الذين يستخدمون سلطتهم في التفرقة كي يسودوا .

التلاعب و الغش

الاحتيال أو التلاعب هو بعد آخر من أبعاد نظرية العمل المعادي للحوار ، و مثله مثل استراتيجية التفرقة فإنه أداة من أدوات الغزو : الهدف الذي تدور حوله جميع أبعـاد تلك النظرية. فالنخب المُسيطرة تحاول ، من خلال التلاعب و الغش ، حمل الجماهير على الامتثال لأهدافها . و كلما كان عدم النضوج السياسي للناس كبيرا (في الريف و المدن) كلما سهلَ التلاعب م و غشهم من قبل أولئك الذين لا يريدون خـسارة سلطتهم .

يجري التلاعب بالناس و غشهم عبر سلسلة من الخرافات و الأساطير الـتي سـبق و جرى الحديث عنها في هذا الفصل ، و أيضا من خلال خرافة أخرى : نموذجها الذي تقدمه البورجوازية إلى الناس على أن من الممكن الارتقاء إليه . و لكن يجب على الناس أن تصدق كلام البورجوازية حتى تنطلي الخرافة .

يتم التلاعب و الغش في ظروف تاريخية محددة من خلال تحالف بين الطبقات المضطهدة والطبقات المضطهدة – تحالفات قد تعطي انطباعا بأنه حوار بين الطبقات ،فيما لو نظر إليها بشكل سطحي .و لكن هذه التحالفات ليست في الواقع حوارا ، لأن أهـدافها الحقيقية تقررها المصالح التي لا

(1)كان تيرادنتس زعيم الثورة البرازيلية التي سعت إلى الاستقلال عـن البرتغـال في 1789 في مدينة أورو برتو بولاية ميناس جيرايس ، وقد عرفت هذه الحركة تاريخيـا باسم المؤامرة أو بالبرتغالية بـ Inconfidencia Mineira . المترجم

(2)هو الفيكونت دي بارباسينا ، الحاكم الملكي البرتغالي للمقاطعة – المترجم

ليس فيها للنخب المسيطرة . و في التحليل النهائي ، يستخدم المسيطرون التحالفات لتحقيق أهدافهم الخاصة (1) . وتأييد الناس لما يسمى بـ "البورجوازية الوطنيـة" ، دفاعا عما يسمى بـ "الرأسمالية الوطنية" هو مثال على ذلك . فهذه التحالفات تزيـد على الدوام ، إن عاجلا أم آجلا ، من قهر الشعب . و يجري اقتراحها فقـط عنـدما يأخذ الشعب (حتى بشكل ساذج) في الظهور من العملية التاريخية ، ويهدد ، بظهوره ، هذا النخب المسيطرة . فوجود الشعب في العملية التاريخية ، ليس كمجرد متفرج ، بل ببوادر عدوانية أولية ، يكفي لإثارة مخاوف النخب المسيطرة إلى حد مضاعفة تكتيكات التلاعب و الغش .

و في هذه المرحلة التاريخية ،يصبح التلاعب و الغش أداة جوهرية في الحفـاظ علـى السيطرة . فقبل ظهور الشعب لا يوجد تلاعب و غش (بالمعنى الدقيق) ، بل يوجـد قمع تام ، إذ لا حاجة للتلاعب بالمضطهدين و غشهم عندما يكونون غارقين تقريبا في

الواقع . فبموجب نظرية العمل المعادي للحوار ، التلاعب و الغش هما رد المضطهدين على الظروف الملموسة الجديدة للعملية التاريخية . و تستطيع النخب المسيطرة ، من خلال التلاعب و الغش ، دفع الشعب إلى نوع من "التنظيم" غير السليم ، و من ثم تفادي البديل الخطير : تنظيم الناس حديثي الظهور و الآخذين في الظهور بشكل سليم (2) .و لدى هؤلاء الناس احتمالان لا غير عند دخولهم في العملية التاريخية : إما أن ينتظموا بشكل صحيح من أجل تحررهم ، أو أن تتلاعب م النخب و تغشهم . و من الواضح أن المسيطرين لن يحفزوا التنظيم السليم ؛ إنه مهمة القادة الثوريين .

و لكن يصدف أن قطاعات واسعة من المضطهدين هي من البروليتاريا في المدن ، لا سيما في المناطق الأكثر تصنيعا من البلاد . فعلى الرغم من أن هذه القطاعات يعتريها التململ بين الحين والآخر ، إلاّ أ ا تفتقر إلى الوعي الثوري و تعتبر نفسها محظوظة . و عادة ما يجد التلاعب و الغش ، بما فيه من سلسلة وعود و خديعة ، أرضية خصبة بينهم .

يكمن العلاج الشافي من التلاعب و الغش في التنظيم الثوري الواعي الانتقادي ، الذي سيطرح على الشعب ، كقضايا ، مكانته في العملية التاريخية و الواقع القومي و التلاعب و الغش . وكما يقول فرنشيسكو ويفرت: "إن جميع سياسات اليسار قائمة على الجماهير و تعتمد على وعيها،

(1)التحالفات صالحة للجماهير فقط (وفي هذه الحالة لم تعد تحالفات) ، ما دامت أهداف العمل الجاري أو الذي سيجري خاضعة لقرارهم .

(2)في "التنظيم" الذي ينتج عن أعمال تلاعب و غش ، يجري تكييف الناس – الذين

هم مجرد أهداف موجهة – لأهداف من يمارسون التلاعب و الغش . أما في التنظـيم السليم ، فإن الأفراد أنفسهم نشيطون في عملية التنظيم ، ولا يجري فرض أهـداف التنظيم من قبل آخرين . في الحالة الأولى ، التنظيم هو وسيلة "لتحويل الجمـاهير إلى تجمع لا يفكر ، سهل القيادة" ، و في الحالة الثانية وسيلة للتحرير .

فإذا تشوش هذا الوعي ، سيفقد اليسار جذوره و سيقترب [موعد] سقوطه الأكيد ، رغم أن اليسار (كما في الحالة البرازيلية) قد يجري تضليله بالتفكير، و بـأن بإمكانـه تحقيق الثورة من خلال عودة سريعة إلى السلطة."(1)

يتم إغراء اليسار على الدوام تقريبا ، في حالة تلاعب و غش ، "بالعودة الـسريعة إلى السلطة"، فينسى ضرورة الانضمام إلى المضطهدين لتشكيل تنظـيم ، و ينجـرف في "حوار" مستحيل مع النخب المسيطرة . و ينتهي الأمر بأن تتلاعب به تلك النخب و تغشه ، و ليس من النادر أن يتورط في لعبة نخبوية تسمى "الواقعية" .

إن التلاعب و الغش كالغزو، و لخدمة أهدافهما يحاولان تخدير الشعب كي لا يفكر . فإذا أضاف الشعب إلى وجوده في العملية التاريخية تفكيرا انتقاديا حـول العمليـة ،عندئذسيتحقق خطر ظهوره في ثورة . و بغض النظر عما يطلقه المرء على هذا التفكير السليم ، أهو"وعي ثوري" أم "وعي طبقي"، فإنه شرط لا غنى عنه للثورة . و النخب المسيطرة تدرك هذه الحقيقة إدراكا جيدا إلى حد أ ا تستخدم بشكل غريزي الأساليب كافة ، بما في ذلك العنف الجسدي ، لمنع الشعب من التفكير . إن لديها حاسة بديهية بقدرة الحوار على تطوير القدرة على الانتقاد . ففي الوقت الذي يعتبر فيه بعض القادة الثوريين الحوار مع الشعب نشاطا "بورجوازيا و رجعيا" ، تعتبر البورجوازية الحوار بين المضطهدين و القادة الثوريين خطرا حقيقيا للغاية يجب تفاديه .

إن أحد أساليب التلاعب و الغش هو تطعيم الأفراد بالشهية البورجوازيــة للنجــاح الشخصي. في بعض الأحيان تقوم النخب مباشرة بعمل ذلك ، و في أحيان أخــرى بشكل غير مباشر عبر قادة شعبويين . و كما يقول ويفرت ، يلعب هؤلاء القادة دور الوسيط بين النخب الأوليغاركية والشعب . و من ثم فإن ظهور الشعبوية كأســلوب عمل سياسي يتطابق صدفة مع ظهور المضطهدين. فالزعيم الشعبوي الذي يظهر من هذه العملية هو كائن غامض ،كائن "برمائي" يعيش في "عنصرين"، ينتقل جيئــة و ذهابا بين الشعب و الأوليغاركيات المسيطرة ، و يحمل سمات المجموعتين .

و بما أن الزعيم الشعبوي يقوم ببساطة بالتلاعب و الغش ، بدلا من الكفاح من أجل تحقيق تنظيم شعبي حقيقي ، فإن هذا النوع من الزعماء يخدم الثورة قليلا ، فيمــا إذا خدمها على الإطلاق . و عندما يتخلى فقط عن شخصيته الغامضة و عمله المزدوج و ينحاز بشكل حاسم إلى الشعب) و من ثم الكف عن كونه شعبويا) يكون قد تخلى عن التلاعب و الغش و كرس نفسه لمهمة التنظيم الثورية. و عند هذه النقطة يكف عــن كونه وسيطا بين الشعب و النخب ، و يصبح نقيضا للأخيرة ، عندئذ تجمع النخــب قواها على الفور لكبح جماحه.لنلاحظ الكلمات الدراماتيكية ، و في النهاية التي

(1)راجــع : Francisco Weffert, "Politica de massas"، Politica e Revolucao social no Brasil ، (ريو دي جانيرو ، 1967) ص 187 .

لا لبس فيها ، التي خاطب فيها جيتوليو فارجاس (1) العمال في احتفالات الأول من-ايار خلال الدورة الأخيرة لرئاسته للدولة : "أريد أن أقول لكم أن عمــل التجديــد الجبار الذي بدأت إدارتي في تنفيذه لا يمكن أن ينجز بنجاح بدون تأييــد العمــال و تعاونهم اليومي الحاسم ". (2)

و تحدث فارجاس بعد ذلك عن الأيام التسعين الأولى له في منصبه ، و التي قال إ ـ ا كانت "تقديرا للمصاعب و العقبات هنا و هناك التي تثار لمعارضة أعمال الحكومة." و تحدث بشكل مباشر إلى الشعب عن مدى شعوره العميق بـ ـ "العجـ ـز و الفقـ ـر و تكاليف المعيشة الباهظة و الرواتب المتدنية ... و يأس سـ ـيئي الحـ ـظ و متطلبـ ـات الأغلبية التي تعيش على أمل أن تشهد أياما أفضل ."

ثم اتخذ نداؤه إلى العمال نبرة أكثر موضوعية :

" أتيت لأقول إن الإدارة في هذه اللحظة ليست لديها بعـ ـد القـ ـوانين أو الأدوات الملموسة للعمل فورا دفاعا عن اقتصاد الشعب . و بالتالي فإن من الضروري أن ينظم الشعب نفسه – ليس فقط من أجل الدفاع عن مصالحه ، بل أيضا من أجـ ـل تـ ـوفير قاعدة التأييد التي تحتاجها الحكومة لتحقيق أهدافها ... إنـ ـني في حاجـ ـة إلى وحدتكم . إنني بحاجة إليكم لأن تنظموا أنفسكم في نقابات. إنني في حاجة إلـ ـيكم لأن تشكلوا كتلة قوية متلاحمة تقف إلى جانب الحكومة بحيث تتوفر لها كل القوة التي تحتاجها لحل مشاكلكم.إنني في حاجة إلى وحدتكم لكي تتمكنوا من محاربة المخربين ، و حتى لا تقعوا فريسة لمصالح المضاربين و الأوغاد الجشعين مما يضر بمصالح الـ ـشعب ...لقد حانت الساعة لمناشدة العمال : اتحدوا في نقاباتكم كقوة حرة منظمة ...ففي الوقت الحالي ليس من إدارة تستطيع الحياة أو التمتع بقوة كافية لتحقيـ ـق أهـ ـدافها الاجتماعية إن لم تتمتع بتأييد منظمات العاملين ." (3)

باختصار ناشد فارجاس الشعب بحماس في خطابه بأن ينظم نفسه و يتحد دفاعا عـ ـن حقوقه. و حدثه ، كرئيس للدولة ، عن العقبات و المعوقات ، و المصاعب التي لا تعد و لا تحصى و هي المتعلقة بممارسة الحكم معه . و منذ تلك اللحظة راحـ ـت إدارتـ ـه

تواجه مصاعب متزايدة حتى وقعت اللحظة الحاسمة المأساوية في أغسطس/آب 1954.و لو لم يبد فارجاس في الدورة الأخيرة [لرئاسته] هذا التشجيع الصريح لتنظيم الشعب ، الذي ارتبط لاحقا بسلسلة من الإجراءات دفاعا عن المصالح

(1)جتوليو فارجاس قاد ثورة أطاحت بالرئيس واشنطن لويس في 1930 في البرازيل . و بقي في السلطة كديكتاتور حتى 1945 . و في 1950 عاد إلى السلطة كرئيس منتخب . و في أغسطس/آب 1954 ، عندما كانت المعارضة على وشك الإطاحة به ، انتحر – المترجم

(2)خطاب ألقي في أستاد فاسكو دي جاما في الأول من مايو/أيار 1950 راجع : O Governo Trabalhista no Brasil (ريو) ص 322-324

(3)المصدر ذاته (التأكيد منا) .

القومية ، لما تمكنت النخب الرجعية ، على الأرجح ، من اتخاذ الإجراءات المتطرفة التي اتخذتها .

إن أي زعيم شعبوي يتحرك (و لو بحذر) في اتجاه الشعب بطريق آخر عن كونه وسيطا للأوليغاركيات ، فإنها ستقوم بكبح جماحه ، و إذا كان لديها قوة كافية فستقوم بإيقافه . و لكن ما دام الزعيم يحصر نفسه في الأبوية و نشاطات الرفاه الاجتماعي فمن النادر أن تقع خلافات عميقة بينه وبين المجموعات الأوليغاركية ، على الرغم من إمكانية حدوث خلافات بينه و بين مجموعات أوليغاركية يجري المساس بمصالحها.و هذا لأن برامج الرفاه الاجتماعي، باعتبارها أدوات تلاعب وغش تخدم في النهاية هدف الغزو . إنها تعمل كمخدر ، تحرف المضطهدين عن الأسباب الحقيقية لمشاكلهم و عن

الحلول الملموسة لتلك المشاكل . و هي تشرذم المضطهدين و تقسمهم إلى مجموعـات من الأفراد تأمل في الحصول لنفسها على بعض الفوائد الإضافية . إلاّ أن هذا الوضع يحتوي على عنصر إيجابي : الأشخاص الذين يحصلون على شيء من المساعدة يريدون دائما المزيد ؛ و أولئك الذين لا يتلقون مساعدة يشعرون بالحسد و يريدون مساعدات وهم يرون نموذج من يحصلون عليه. وبما أن النخب المسيطرة لا تستطيع "مـساعدة" الجميع،فإن الأمر ينتهي بزيادة تململ المضطهدين.

فيتعين على القادة الثوريين الاستفادة من تناقضات التلاعـب بطرحهـا كمـشكلة للمضطهدين و الهدف من ذلك تنظيمهم .

الغزو الثقافي

هنالك سمة مميزة أخيرة لنظرية العمل المعادي للحوار : الغزو الثقافي ، الـذي يخـدم أهداف الغزو، مثله مثل تكتيكات التفرقة و التلاعب . يقوم الغـزاة بموجـب هـذه الظاهرة بالتغلغل في السياق الثقافي لمجموعة أخرى ، من غير احترام لإمكانيات تلـك المجموعة ، و يفرضون نظرتهم إلى العالم على من يغزون و يكبتون إبداعهم من خـلال لجم تعبير [الضحايا] عن أنفسهم .

إن الغزو الثقافي ، ألطيفا كان أم قاسيا ، هو على الدوام عمل عنيف ضد أشخاص تتعرض ثقافتهم للغزو ، و يفقدون أصالتهم أو يواجهون خطر فقدانها . ففي الغزو الثقافي (كما هو الحال في جميع أنماط العمل المعادي للحوار) يكون الغزاة هم "مؤلفي" العمليـة و "اللاعبين" فيها ، والذين يغزونهم هم الأهداف أو "المفعول بهم". إن الغزاة هم الذين "يقَولبون" ، و الذين يغزونهم هم من تجري "قَولَبتهم". الغزاة يختارون ، والذين يغزونهم

يتبعون ذلك الاختيار . الغزاة يعملون ، والذين يغزو م يتوهمون فقط بأ م يعملـون من خلال عمل الغزاة .

و السيطرة كلها تشتمل على غزو في بعض الأحيان بشكل عملي و مكشوف ، و في أحيان أخرى مقنع ، حيث يتقمص الغزاة دور الصديق المساعد . و في التحليل النهائي ، إن الغزو هو شكل من أشكال السيطرة الاقتصادية و الثقافية . و يمكن أن يمـارس مجتمع متقدم غزو مجتمع تابع ، أو يمكن أن يرد ضمنيا في سيطرة طبقة على أخرى في مجتمع واحد .

يؤدي الغزو الثقافي إلى عدم الأصالة الثقافية بالنسبة لمن يتم غـزوهم . فيأخـذون في الاستجابة إلى قيم و معايير و أهداف الغزاة . و يرغب الغزاة ، من خـلال شـهو م للسيطرة و صياغة الآخرين في منحاهم و أسلوب حيا م ، معرفة كيف يدرك الواقـع اولئك الذين غزوهم – و لكن فقط من أجل أن يقوموا بالسيطرة عليهم بفاعلية أكبر (1). ذلك إنه لأمر أساسي في الغزو الثقافي أن يصل من جرى غزوهم إلى رؤية الواقع بمنظار الغزاة بدلا من خلال منظارهم ، و ذلك لأنه كلما ازداد تقليدهم للغزاة ، كلما أصبحت مكانة الغزاة أكثر استقرارا .

و من أجل أن ينجح الغزو الثقافي لا بد لمن تم غزوهم أن يقتنعوا بتدني مكانتهم مـن حيث الجوهر . و بما أن لكل شيء نقيضه ، و ما دام من تم غزوهم يعتبرون أنفـسهم أحط مكانة ، فإ م يعترفون بالتالي ، برفعة مكانة الغزاة ؛ و من ثم تصبح قيم الأخيرين [الغزاة] النموذج بالنسبة لمن تم غزوهم . و كلما ازداد تعميق الغزو و أصبح مـن تم غزوهم أكثر اغترابا عن روحية ثقافتهم و عن ذا م ، كلما ازدادت رغبتـهم في أن يكونوا مثل الغزاة : يسيرون مثلهم ، يلبسون مثلهم و يتكلمون مثلهم .

إن الـ "أنا" الاجتماعية للشخص الذي تم غزوه " مثل كل "أنا" اجتماعية " يجـري تشكيلها في العلاقات الاجتماعية و الثقافية للبنية الاجتماعيـة ،و بالتـالي تعكـس ازدواجية الثقافة التي تم غزوها . و تفسر هذه الازدواجية (التي سبق و وصفناها) لماذا يقوم الأشخاص الذين تم غزوهم و السيطرة عليهم ، في بعض الأوقات من تجربتـهم الوجودية ، "بالالتزام" تقريبا بـ "أنت" المضطهدين . فـ "أنا" المضطهدين يجـب أن تنسلخ عن شبه الالتزام بـ "أنت" المضطهدين ، و الابتعاد عنها حتى ترى المضطهدين بموضوعية أكبر ، عندئذ يستطيع المضطهد أن يعرف نفسه بشكل انتقادي بأنـه في تناقض مع المضطهدين . و عندما يفعل ذلك "يعتبر" البنية التي يجري اضطهاده فيهـا بأ ا واقع يجرد من الإنسانية . و يمكن تحقيق هذا التغيير النوعي في إدراك العالم فقـط من خلال الممارسة .

الغزو الثقافي هو ، من ناحية ، أداة سيطرة ، و من ناحية أخرى نتاج للسيطرة . و من ثم فإن العمل الثقافي ذا طابع السيطرة (مثل الأشكال الأخرى للعمل المعادي للحوار) هو بمعنى آخر، وببساطة، نتاج لواقع قمعي ، بالإضافة إلى كونه متعمدا و مخططا .

على سبيل المثال ، إن بنية اجتماعية جائرة تؤثر بالضرورة على مؤسـسات تربيـة و تعليم الأطفال في إطار تلك البنية . و تحتذي هذه المؤسسات في عملها بأسلوب البنية و تنقل خرافا ا ، فالبيوت و المدارس (من رياض الأطفال حتى الجامعات) لا توجـد بشكل مجرد ، بل في زمان و مكان.

(1)يزداد استخدام الغزاة للعلوم الاجتماعية و التكنولوجيا ، و إلى حد ما العلـوم الطبيعيـة أيضا لتطوير عملهم و ذيبه من أجل تحقيق هذا الهدف . فلا غنى للغزاة عن معرفـة ماضي و حاضر من يتم غزوهم حتى يتبينوا الخيارات أمام مستقبل من تم غزوهم ، و

من ثم محاولة توجيه تطور المستقبل وفق الخطوط التي تخدم مصالحهم .

و تعمل إلى حد كبير في إطار هياكل السيطرة كوكالات لإعداد غزاة المستقبل .

و تعكس ، في العادة ، العلاقة بين الوالدين و الأطفال في البيت الظـروف الثقافيـة الموضوعية للبنية الاجتماعية المحيطة . فإذا كانت الظروف التي تتغلغل في البيت هـي استبدادية و جامدة و مشبعة بالسيطرة ، سيزيد البيت من جو الاضطهاد (1) . و مع ازدياد هذه العلاقات المتسلطة بين الوالدين و الأطفال ، يقـوم الأولاد في طفولتـهم باستلهام سلطة الوالدين بشكل متزايد .

يحلل فروم ، من خلال تقديمه لموضوع حب الموت و حب الحياة (بوضوحه المعهود) الظروف الموضوعية التي تولّد كل حاله ، إن كان في البيت (علاقة الأطفال بالوالدين في جـو عدم مبالاة و جور ، أو في جو حب و حرية) أو في سياق اجتمـاعي-ثقـافي . إذا لم يتمكن الأطفال الذين يتربون في جو خال من الحب و جائر و جرى إحباط قدرا م ، خلال شبا م من اتباع طريق التمرد الصحيح ، فـإ م إمـا أن ينـساقوا في طريـق اللامبالاة التامة ، فيغتربون عن الواقع على يد السلطات والخرافات التي تـستخدمها "لتشكيلهم" ، أو أ م ينغمسون في أنواع من العمل المدمر .

و تجري إطالة جو البيت في المدرسة ، حيث سرعان ما يكتشف الطلاب أنه (كما في البيـت) عليهم إذا شاؤوا أن يحققوا شيئا من الرضى، أن يتكيفوا مـع الإرشـادات الـتي تم وضعها فوقيا ، وإحدى هذه الإرشادات هي عدم التفكير .

عندما يستلهم هؤلاء الشباب سلطة الوالدين من خلال بنية العلاقات الجامـدة الـتي تؤكدها المدرسة يميلون – بعد أن يصبحوا من المهنيين – (بسبب الخوف من الحريـة

الذي تزرعه هذه العلاقات) إلى تكرار الأنماط الجامدة التي أسيء تربيتهم بموجبها . و لعل هذه الظاهرة تفسر ، بالإضافة إلى وضعهم الطبقي ، سبب تمسك أعداد كبيرة من المهنيين بالعمل المعادي للحوار(1). إ م

مقتنعون قناعة راسخة تقريبا - بغض النظر عن الاختصاص الذي يجعلهم يحتكون بالناس - أن رسالتهم هي "منح" الناس ما لديهم من معرفة و تكنيـك ؛ فهـم يـرون أنفـسهم "مدافعين" عن الناس . و تشمل برامج عملهم (التي من الممكن أن يوصي ا أي منظر جيد للعمل القمعي) أهدافهم وقناعتهم و اهتماما م الخاصة . إ ـم لا يـصغون إلى الشعب ، بل يخططون ، بدلا من ذلك ، لتعليمه كيفية "التخلص من الكسل الـذي يولّد التخلف" . و يبدو لهؤلاء المهنيين أن من السخف التفكير بضرورة احترام "النظرة للعالم"التي يحملها الشعب . فالمهنيون هم من يملك "نظرة إلى العالم" . ويعتبرون أن من السخف أيضا التأكيد على أنه من الضروري أن يستشير المرء الشعب عنـدما يـنظم محتوى برنامج العمل التعليمي.و يشعرون أن جهل الشعب هو جهل مطبق إلى حد أنه لا يصلح لأي

(1)لعلها تفسر أيضا لتصرف الاشخاص المعادي للحوار ، الذين رغم قناعتـهم بـالالتزام الثوري ، يستمرون في عدم الثقة بالشعب و يخافون من التلاحم معه . فمثل هـؤلاء الأشخاص يحتفظون عن غير وعي بالمضطهد في أنفسهم ؛ ولأ م "يأوون" السيد [في داخلهم] يخافون من الحرية .

شيء سوى تلقي تعليمات ذوي المهن .

و لكن عندما يأخذ الذين تم غزوهم – عند مرحلة معينة من تجربتهم الوجوديـة - في

رفض هذا الغزو (الذي ربما كانوا قد تكيفوا معه في السابق) بطريقة أو بأخرى يقـول ذوو المهن ، في محاولة لتبرير فشلهم ، أن أعضاء المجموعة التي تم غزوها "أدنى مكانة" لأنهم "جاحدون للجميل" ، "عديمو الحيلة " ، "مرضى" أو "ذوو دماء مختلطة" .

و يكتشف المهنيون ذوو النوايا الحسنة (الذين يستخدمون "الغزو" ليس كأيديولوجية متعمدة، بل كتعبير عن تربيتهم) تدريجيا أن من الضروري أن يعزوا بعـض نـواحي فشلهم التعليمي، ليس لضعة مكانة "بسطاء الناس من الشعب" ، بل إلى عنف عمليـة غزوهم . و يواجه الذين يتوصلون إلى هذا الاكتشاف خيارا صعبا : يشعرون بالحاجة إلى نبذ الغزو ، و لكن أنماط السيطرة مستحكمة في داخلهم إلى حد أن نبذ الغزو قـد يشكل تهديدا خطيرا لهويتهم . فنبذ الغزو سيعني إنهاء ازدواجية وضعهم كمسيطرين و مسيطر عليهم . و سيعني أيضا التخلي عن جميع الخرافات التي تغذي الغزو ، و البدء في تجسيد العمل الحواري . لهذا السبب بالذات سيعني ذلك التوقف عن كونهم "فوق" أو "في الداخل" (كالغرباء) من أجل أن يصبحوا "مع" (كرفاق) . و هكذا فإن الخوف من الحرية يستحوذ على هؤلاء الأشخاص . و خلال هذه العملية المؤلمة يميلون بالطبع إلى تبرير خوفهم بسلسلة من أعمال المراوغة .

إن الخوف من الحرية ما زال أكبر لدى المهنيين الذين لم يكتشفوا بأنفسهم بعد الطبيعة العدوانية الغازية لعملهم ، و يقال لهم أن عملهم يجرد من الإنسانية . و غالبا ما يسأل المشاركون في دورات التدريب المنسق بحدة ، و بشكل خاص إبان فك رموز أوضاع محددة :"على كل حال إلى أين تفكر أنك تقودنا ؟" و لكن المنسق لا يحاول توجيههم إلى أية وجهة . كل ما في الأمر أن المشاركين عند مواجهتهم لوضع ملموس على شكل مشكلة ، يبدأون في إدراك أنه لو تعمقوا في تحليلهم للوضع سيضطرون إما إلى تخلصهم

مما يحملون من خرافات أو أن يؤكدوها . و يمثل ، في تلك اللحظة ، تخلصهم مما لديهم من خرافات و نبذهم لها عملية عنف ضد الذات . و من الناحية الأخرى ، فإن تأكيد تلك الخرافات يعني الكشف عن أنفسهم و تعريتها . و بالتالي ، فإن الطريقة الوحيدة (التي تعمل كأداة دفاعية) هي أن يعكسوا في المنسق ممارسـا م المألوفـة التقليديـة :التوجيه والغزو و الاجتياح. (1)

يحدث التراجع ذاته ، و إن كان بدرجة أقل ، بين أشخاص مـن الـشعب أقعدهم وضع الاضطهاد الملموس و جرى تدجينهم من خلال أعمال "الإحـسان" . يحدثنا أحد المعلمين في "الحلقة

(1)راجع بحـث المؤلـف المعنـون : " in "Extensao ou Comunicacao? Introduccion a la Accion Cultural (سانتياغو ، 1969) .

الكاملة" (1) التي نفذت برنامجا تعليميا فيما في مدينة نيويورك تحت إشراف المنـسق روبرت فوكس ، عن الحادثة التالية : تم تقديم وضع ذي رموز إلى مجموعـة في أحـد أحياء نيويورك الفقيرة ، تظهر فيه كومة كبيرة من القمامة عند زاوية أحد الشوارع – الشارع نفسه الذي كانت تجتمع ا موعة عنده. قال أحد المشاركين على الفـور : "إنني أرى شارعا في إفريقيا أو في أمريكا اللاتينية." فسأل المعلـم "ولمـاذا لـيس في نيويورك؟" [و جاء الجواب] "لأنه في الولايات المتحدة لا يمكن أن يحدث مثل هذا." بلا شك، فإن هذا الرجل و رفاقه الذين وافقوه كانوا يهربون من واقع كريه بالنـسبة لهم، إلى حد أن الإقرار به يهددهم . فقيام شخص "مغترب"، تطبع بثقافـة الإنجـاز الشخصي و النجاح ، بالإقرار بأن وضعه موضوعيا ليس مواتيا يبدو إعاقة لإمكانيات نجاحه .

في الحادثة التي تكلمنا عنها ، و في حالة المهنيين ، تبدو قوة الثقافة المقررة التي تنمي الخرافات التي يستلهمها الناس في النهاية .واضحة في كلتي الحالتين ، تعيق ثقافة الطبقة المسيطرة تأكيد كون الناس "كائنات قرارات" . فلا المهنيون و لا المشاركون في المناقشة في الحي الفقير في نيويورك، يتكلمون و يعملون لأنفسهم "كفاعلين" نشيطين في العملية التاريخية . فليس منهم من هو منظر للسيطرة أو من دعاتها . بل على العكس ، إنهم نتاج للسيطرة يصبحون بدورهم ، أسبابا لها . هذا هو أحد أخطر المشاكل التي يتعين على الثورة مواجهتها عندما تصل إلى السلطة . و تتطلب هذه المرحلة من القادة أقصى ما يمكن من الحكمة السياسية و القرار و الشجاعة والذين يتعين عليهم لهذا السبب بالذات التحلي بحكمة كافية ، حتى لا يقعوا في مواقف انعزالية و لا عقلانية .

إن المهنيين من أي اختصاص ، خريجي جامعات أم لا ، هم أشخاص "تقرروا فوقيا"(2) من قبل ثقافة سيطرة كونتهم ككائنات ذات ازدواجية . (لو انحدروا من طبقات أدنى لكان سوء التربية هذا هو ذاته ، إن لم يكن أسوأ.) و مع ذلك فهؤلاء المهنيون ضروريون لإعادة تنظيم المجتمع الجديد . و بما أن العديد من الشباب – حتى أولئك "الذين يخافون من الحرية" و يعزفون عن المشاركة في العمل الذي يؤدي إلى "الأنسنة" – مضللون أكثر من أي شيء آخر ، فلا يمكن فقط استردادهم من قبل الثورة ، بل يجب أن يتم ذلك .

يتطلب استردادهم أن يقوم القادة الثوريون ، منحدرين مما كان سابقا عملا ثقافيا حواريا ، بتدشين "الثورة الثقافية" . عند هذا الحد تقوم السلطة الثورية بتجاوز دورها كعقبة ضرورية لمواجهة أولئك الذين يرغبون في إنكار الناس ، و تكتسب موقعا جديدا

و جرأة أكثر بدعوة واضحة لكل من يرغب في المساهمة في إعادة بناء المجتمع . و بهذا المعنى ، تكون "الثورة الثقافية" استمرارا ضروريا

(1)فيما يتعلق بنشاط هذه المؤسسة راجع Mary Cole, Summer in the City (نيويورك ، 1968)

(2)راجع لويس التوسر ، Pour Marx (باريس ، 1967) ، الذي يخصص في كتابه فصلا كاملا لموضوع "ديالكتيك التقرير الفوقي"(Surdetermination).

للعمل الثقافي الحواري الذي يجب أن ينفذ قبل وصول الثورة إلى السلطة .

تأخذ "الثورة الثقافية" مجمل المجتمع الذي سيعاد بناؤه ، بما في ذلك النشاط الإنساني ، كهدف لعمل إعادة التشكيل . فالمجتمع لا يمكن إعادة بنائه بأسلوب ميكـانيكي ، و الثقافة التي تجري إعادة خلقها ثقافيا من خلال الثورة ، هي الأداة الجوهرية في إعـادة البناء هذه . و "الثورة الثقافية" هي أقصى جهد للنظام الثوري لتحقيق الوعي – يجب أن تصل إلى كل فرد بغض النظر عن مهمته .

بالتالي ، لا يمكن لهذا الجهد الخاص بتحقيق الوعي أن يرضى بالتدريب الفني و العلمي لمن يراد لهم أن يصبحوا اختصاصيين . فالمجتمع الجديد يصبح متميزا نوعيـا بأكثر من طريقة جزئية عن المجتمع القديم (1) . و لا يمكن للمجتمع الثوري أن يسند للتكنولوجيا الأهداف ذاتها التي أسندها إليها المجتمع السابق . و بالتـالي ، يجـب أن يكون تدريب الأشخاص في المجتمعين مختلفا أيضا . فالتدريب التكنيكي و العلمـي لا يحتاج أن يكون منافيا للتعليم الإنساني ، ما دام العلم و التكنولوجيا في المجتمع الثوري في خدمة التحرر الدائم و "الأنسنة" .

يقتضي تدريب الأشخاص لأية مهنة (بما أن جميع المهن تقع في زمان و مكان) من وجهة النظر هذه إلى فهما : (أ) للثقافة كبنية فوقية ، يمكن لها أن تحتفظ "ببقايا" حية من الماضي (2) في البنية التحتية التي تمر بتحول ثوري و (ب) للمهنة ذاتها كأداة لتحوير الثقافة . و مع قيام الثورة الثقافية بتعميق الوعي في الممارسة الخلاقة للمجتمع الجديد ، سيبدأ الناس في إدراك سبب استمرار وجود بقايا الخرافات العائدة إلى المجتمع القديم في [المجتمع] الجديد . و عندئذ سيتمكن الناس من تحرير أنفسهم بشكل أسرع من هذه الأشباح التي تشكل باستمرار ، بإعاقتها لبناء المجتمع الجديد ، مشكلة جدية لكل ثورة . و يستمر المجتمع القمعي ، من خلال هذه البقايا الثقافية ، في الغزو – هذه المرة في غزو المجتمع الثوري نفسه .

هذا الغزو مريع بشكل خاص لأنه لا يتم على يد النخبة المسيطرة التي أعيد تنظيمها على هذا النحو ، بل على يد أشخاص شاركوا في الثورة . فهم ، كأشخاص "يأوون" المضطهدين" ، يقاومون، مثل الجزء الآخر من أنفسهم ، الخطوات الأساسية الأخرى التي يجب على الثورة اتخاذها . و ككائنات ذات ازدواجية يقبلون أيضا (بسبب البقايا أيضا) بسلطة تصبح بيروقراطية و تقوم باضطهادهم بعنف . و يمكن تفسير هذه السلطة البيروقراطية القمعية بما أطلق عليه ألتوسر (3) "إعادة "تنشيط عناصر قديمة" في المجتمع الجديد في كل وقت تسمح فيه الظروف الخاصة .

إني أفسر العملية الثورية ، لكل الأسباب المذكورة آنفا ، على أنها عملية جهد ثقافي حواري(1)لكن هذه العملية لا تحدث فجأة ، كما يفترض بسذاجة المفكرون الميكانيكيون .

(2)ألتوسر ، المصدر الذي سبق ذكره .

(3)لويس ألتوسر (1918-1990) : فيلسوف فرنسي ، جدد دراسة الماركسية و البحث فيها – المترجم

تجري إطالة أمده في "الثورة الثقافية" عند تولي السلطة . و في كلتا المرحلتين من الضروري بذل جهد جدي و معمق لتحقيق الوعي ، الذي سيتمكن الناس من خلاله و بالممارسة الحقيقية أن يتركوا خلفهم مكانة "الأهداف أو المفعول بهم" لتبوء مكانة "الفاعلين" التاريخيين .

في النهاية ، إن الثورة الثقافية تطور ممارسة الحوار الدائم بين القادة و الشعب ، و تعزز مشاركة الشعب في السلطة . و بهذه الطريقة تتمكن الثورة بسهولة أكبر - مع استمرار القادة والشعب في نشاطهم الانتقادي - من الدفاع عن نفسها ضد الاتجاهات البيروقراطية (التي تؤدي إلى أشكال اضطهاد جديدة) و ضد "الغزو" (الذي هو دائما ذاته) . فالغازي – في مجتمع بورجوازي أو ثوري – قد يكون عالما في الزراعة أو علم الاجتماع ، أو اقتصاديا أو مهندس صحة عامة ، أو قسا أو كاهنا ، أو مربيا أو عاملا اجتماعيا – أو ثوريا .

يشتمل الغزو الثقافي ، الذي يخدم أهداف الغزو و الحفاظ على الاضطهاد ، دائما على نظرة ضيقة إلى الواقع و إدراك ساكن للعالم ، و فرض نظرة أحدهم إلى العالم على الآخرين . و يعني أيضا "رفعة مكانة" الغزاة و "انحطاط مكانة" من تم غزوهم ، و كذلك فرض قيم المجموعة الأولى التي تمتلك المجموعة الأخيرة و تخشى أن تفقدها .

بالإضافة إلى ذلك، يعني الغزو الثقافي أن مركز القرار النهائي فيما يتعلق بعمل أولئك الذين تم غزوهم يكمن ليس عندهم بل مع الغزاة . و عندما توجد سلطة القرار خارج

الشخص الذي يجب أن يقرر و ليس في داخله ، يتوهم فقط [الذين تم غزوهم] بأ م يقررون . لهذا لا يمكن أن تتحقق أية تنمية اجتماعية و اقتصادية في مجتمع تم غـزوه و ذي ازدواجية و "انفعالي" . و لا بد لتحقيق التنمية من : (أ) وجود حركـة بحـث و إبداع يقع مركز قرارها في الباحث (ب) أن لا تحدث هذه الحركة في فضاء فقط ، بل أيضا في الزمن الوجودي للباحث الواعي .

و هكذا ، فإنه في الوقت الذي تكون كل تنمية فيه هي تحوير ، فليس كل تحوير تنمية . فالتحوير الذي يطرأ على بذرة تأخذ ظروفاً مواتية بالنمو و تترعرع ليس تنمية . و بالطريقة ذا ا أي تغيير يطرأ على الحيوان ليس تنمية . فتحوير البـذور و الحيوانـات تقرره الفصائل التي ينتمون إليها، و يحدث في زمن ليس ملكهم ، إذ أن الزمن ملـك الإنسان .

الناس هم الوحيدون من بين الكائنات غير المكتملة ، الذين يتطـورون . و يحـدث تحولهم (تطورهم) "ككائنات لذا ا" التاريخية و لها سير ا الذاتية التي تخطها بنفسها ، في وقتهم الوجودي الخاص ،و ليس خارجه على الإطلاق . و الناس ، الذين يخـضعون لظروف اضطهاد ملموسة يصبحون فيها "كائنات مغتربة لآخرين" مـن "الكائنـات لذا ا" الزائفة التي يعتمدون عليها ، ولا يقدرون على التطور تطورا حقيقيا . و لكو م قد حرموا من قدر م على اتخاذ القرار ، التي تستقر في المضطهدين ، فهـم يتبعـون "أوامر" و وصفات المضطهدين . و يبدأ المضطهدون في التطور عنـدمايتغلبون علـى التناقض الذين هم فيه ، و يصبحون "كائنات لذا م" .

إذا اعتبرنا أن ا تمع كائن، سيكون عندئذ ا تمع الذي هو "كائن لذاته" قادرا علـى التطور. أما ا تمعات ذات الازدواجية ، و "الانفعالية"و التي تم غزوها و تابعة تمع

متقدم، فإ ا لا تستطيع التطور لأ ا "مغتربة" . إن سلطة اتخاذ القـرار الـسياسي و الاقتصادي و الثقافي لديها تقع خارج ذا ا ، في ا تمع الـذي قـام بغزوهـا . و في التحليل النهائي ، يقرر ذلك ا تمع مصير [ا تمعات] الأولى: مجرد تحول ؛ لأن تحولها – وليس تطورها – هو ما يخدم مصلحة ا تمع المتقدم .

إن من الضروري عدم الخلط بين التحديث و التنمية . فالأول – رغم أنه قد يؤثر على بعض ا موعات في "ا تمع الذي يدور في فلك الغزاة" – أمر "مستورد" أو "مسبب خارجيا" في غالب الأحيان ؛ و ا تمع المتقدم هو الذي يجني الفوائد الحقيقية من ذلك . و ا تمع الذي تم تحديثه فقط دون تنمية سيستمر في الاعتماد على البلد الخـارجي – حتى و إن حصل على الحد الأدنى من سلطات اتخاذ القرار . هذا هو مصير أي مجتمع تابع ، ما بقي تابعا .

يتعين على المرء كي يقرر إن كان مجتمع ما يتطور أم لا ، أن يتجاوز المعايير التي تستند إلى مؤشرات دخل "الفرد" (تلك التي يجري التعبير عنها بشكل إحصائيات مضللة) ، و تلك التي تركز على دراسة إجمالي الدخل . إن المعيار الأول و الأساسي هـو هـل ا تمع "قائم لذاته" أم لا . فإن كان لا، ستكون المعايير الأخرى مؤشرا على التحديث و ليس التنمية .

إن التناقض الأساسي في ا تمعات ذات الازدواجية هي علاقات التبعية القائمة بينها و بين ا تمعات المتقدمة . و عندما تجري الاستعاضة عن هذا التناقض يـصبح التحـول الذي ينجم عن "المساعدة" ، التي عادت بالفائدة بالدرجة الأولى على ا تمع المتقدم ، تنمية حقيقية تعود بالفائدة على "الكائن لذاته".

لهذه الأسباب المذكورة آنفا ، لن تؤدي الحلول الإصلاحية الخالصة التي تحاولها هـذه المجتمعات (و إن أخافت و حتى أرعبت بعض هذه الإصلاحات الأعضاء الأكثر رجعية لمجموعات النخبة) إلى حل تناقضاتها الخارجية و الداخلية . فالمجتمعات المتقدمة تطـرح على الدوام تقريبا هذه الحلول الإصلاحية ردا على مطالب العملية التاريخية كوسـيلة جديدة للإبقاء على هيمنتها .و كأن المجتمع المتقدم يقول "لنقم بالإصلاحات قبـل أن يقوم الشعب بالثورة." و من أجل تحقيق هذا الهدف، ليس من خيار أمـام المجتمـع المتقدم سوى الغزو و التلاعب و الغش و الغزو الاقتـصادي و الثقـافي (وفي بعـض الأحيان العسكري) للمجتمع التابع – غزو يلعب فيه قادة النخب في المجتمعات الواقعة تحت السيطرة مجرد دور السماسرة لقادة المجتمعات المتقدمة .

وأود في ختام هذا التحليل الأولي لنظرية العمل المعادي للحوار أن أعيد تأكيد ضرورة عدم قيام القادة الثوريين باستخدام الإجراءات المعادية للحوار ذاتها التي يـستخدمها المضطهدون . بل على العكس ، يجب عليهم اتباع طريق الحوار و التواصل .

و قبل الانتقال إلى تحليل نظرية العمل القائم على الحوار ، فإنه من الضروري و بشكل مقتضب مناقشة كيف يتم تشكيل مجموعة القيادة الثورية ، و بعض العواقب التاريخية و الاجتماعية للعملية الثورية . تتألف هذه المجموعة القيادية في العادة من أشـخاص كانوا ، بطريقة أو بأخرى ، ينتمون إلى شريحة المسيطرين الاجتماعية . و عند نقطـة معينة من تجربتهم الوجودية ، و في ظل ظروف تاريخية معينة يتخلى هؤلاء الأشـخاص عن الطبقة التي ينتمون إليها و ينضمون إلى المضطهدين في عملية تضامن حقيقـي (أو هكذا يأمل المرء) . و بغض النظر إن كان هذا الالتزام ناجما عن تحليل علمي للواقع أم لا ، فإنه يمثل (عندما يكون حقيقيا) عملية حب و التزام حقيقـي (1) . و يتطلـب

الانضمام إلى المضطهدين التوجه إليهم و التواصل معهم . فالشعب لا بد أن يجد نفسه في القادة الجدد، كما أنهم يجدون أنفسهم في الشعب .

و يعكس القادة الجدد الذين أخذوا في الظهور، بالضرورة ، تناقض النخب المسيطرة الذي نقل إليهم عن طريق المضطهدين ، الذين ربما لم يدركوا بوضوح بعد، وضعهم المضطهد أو أنهم لم يعوا بشكل انتقادي علاقات العداء التي بينهم و بين المضطهدين . و قد يكونون في وضع سبق و أن وصفناه بـ "التبعية و الالتصاق" بالمضطهد . و لكن من الممكن ، من الناحية الأخرى ، أن يكونوا قد وصلوا ، بسبب بعض الظروف التاريخية الموضوعية ، إلى إدراك واضح نسبيا لوضعهم المضطهد .

في الحالة الأولى ، تجعل تبعية الناس و التصاقهم بالمضطهد – و إن كان التصاقا جزئيا – من المستحيل عليهم (ولنكرر نقطة فانون) (2) أن يحددوا مكان المضطهد خارج أنفسهم . و في الحالة الثانية ، يستطيعون تحديد مكان المضطهد و من ثم التعرف بشكل انتقادي على علاقة العداء تجاهه .

في الحالة الأولى "يقبع" المضطهد داخل الناس ، و الغموض الناجم عن ذلك يجعلهم يخافون من الحرية ، فيلجأون (بدافع من المضطهد) إلى تفسيرات سحرية أو نظرة زائفة عن الرب الذي يحيلون إليه بشكل قدري مسؤولية وضع الاضطهاد الذي هم فيه . (3) و من غير المحتمل للغاية أن

(1)أشرنا في الفصل السابق إلى أفكار جيفارا حول هذا الموضوع . و يقول جيرمان جوزمان عن كاميلو توريس "...لقد أعطى كل شيء . و في كل الأوقات حافظ على موقف التزام حيوي بالشعب – كقس و كمسيحي وكثوري." راجع : جيرمان

جوزمان ، El Cura Guerrillero – Camilo (بوجوتا ، 1967) ص 5

(2)فرانتز فانون (1925-1961): محلل نفساني و كاتب و فيلسوف من مارتينيك ، اهتم بشكل خاص بوعي السود و هويتهم ، و قضايا القومية و الاستعمار .ناصر الثورة الجزائرية ضد فرنسا – المترجم

(3)قال لي قس من تشيلي ذو مستوى فكري و أخلاقي عال ، زار رسيفي في 1966 "عندما ذهبت و زميل لزيارة عدة عائلات تعيش في بيوت الصفيح في فقر لا يوصف ، سألتهم كيف يتحملون العيش على هذا النحو ، فكان الجواب هو نفسه دائما : ماذا بوسعي عمله ؟ إ ا مشيئة الله ، و علي أن أقبل ا ."

يسعى هؤلاء الأشخاص الذين لا يثقون بأنفسهم ، المسحوقون و اليائسون ، إلى تحرير أنفسهم – عملية تمرد قد ينظرون إليها على أ ا خرق لمشيئة الله و عصيان لها ، و مواجهة لا مبرر لها مع القدر . (لذا كان التأكيد الدائم على ضرورة طرح الخرافات ، التي يغذيها المضطهدون للناس ، على هيئة مشاكل) و في الحالة الثانية ، عندما يصل الناس إلى صورة واضحة نسبيا للاضطهاد الذي يؤدي م إلى تحديد المضطهد خارج أنفسهم ، يقومون بالنضال للتغلب على التناقض الواقعين فيه . في هذه اللحظة يتغلبون على المسافة بين "الضرورة الطبقية" و "الوعي الطبقي" .(1)

في الحالة الأولى يصبح القادة الثوريون لسوء الحظ و بشكل غير طوعي ، نقيضا للشعب . وفي الحالة الثانية ، يحظى القادة الجدد على تأييد متعاطف و فوري تقريبا من الشعب ، يميل إلى الازدياد خلال عملية النشاط الثوري . و يتوجه القادة إلى الشعب بأسلوب حواري تلقائي ، و على الفور تقريبا يتم تبادل الأحاسيس بين

الشعب و القادة الثوريين : يتم إبرام التزام مشترك بينهم على الفـور ، و يعتـبرون أنفسهم – في زمالتهم هذه – النقيض المشترك للنخب المسيطرة . و تصبح ، منذ تلك اللحظة فصاعدا ، ممارسة الحوار التي أرسيت بين الشعب و القادة راسخة لا تتزعزع تقريبا . وسيستمر ذلك الحوار عندما يتم الوصول إلى السلطة ، و سيعرف الـشعب أنه وصل إلى السلطة .

لا تقلل هذه الشراكة ، بأي حال من الأحوال من روح النضال و الشجاعة و القدرة على المحبة ، أو الجرأة المطلوبة من القادة الثوريين . لقد قرن فيديل كاسترو و رفاقـه (الذين اعتبرهم الكثيرون في ذلك الوقت "مغامرين و غير مسؤولين") ، و هم مجموعة قيادية حوارية بارزة ، بالشعب الذي كان يعاني من العنـف الوحـشي لديكتاتوريـة باتيستا . لم يكن هذا الالتزام سهلا ، بل اقتضى شجاعة من القادة للإقدام على حـب الشعب بما فيه الكفاية بحيث يضحون بأنفسهم من أجله . وتطلب تصميما شـجاعا يدفعهم إلى البدء من جديد بعد كل كارثة تحل بهم ، يحدوهم أمل مفعـم بالثقـة في المستقبل (لكونهم متحدين مع الشعب) ، يكون ملكاً ليس للقادة وحدهم ، بل للقادة و الشعب – أو للشعب بما في ذلك القادة .

قام فيديل تدريجيا باستقطاب الشعب الكوبي ، الذي كان ، نتيجة لتجربته التاريخية ، قد بدأ في كسر التزامه بالمضطهدين . و أدى هذا "التراجع" عن المضطهد الى وصول الشعب إلى "موضعة" الأخير، و إلى رؤية نفسه كنقيض له . و هكذا ، لم يحدث على الإطلاق أن دخل فيديل في تناقض مع الشعب . (كان التخلي عن الثورة و الخيانـات العرضية التي سجلها جيفارا في كتابه "أحداث من الحرب الثورية" (Relato de la Guerra Revolucionaria) – الذي أشار فيه أيضا إلى العديد ممن التزموا – أمرا

متوقعا.)

و هكذا ، يكون توجه القادة الثوريين إلى الشعب – بسبب ظروف تاريخية معينة – إما "(1)الضرورة الطبقية" شيء ، و "الوعي الطبقي" شيء آخر .

أفقيا - حتى يستطيع القادة و الشعب أن يشكلوا جسما واحدا في تناقض مع المضطهد – أو على شكل مثلث ، يحتل فيه القادة موقع رأس المثلث ، في تناقض مع المضطهدين و المضطهدين أيضا . وكما سبق و رأينا ، يفرض هذا الوضع على الشعب عندما لا يكون الشعب قد حقق إدراكا انتقاديا للواقع الإضطهادي .

إلاّ أنه لا يمكن مجموعة قيادية ثورية أن تتصور على الإطلاق أنها تشكل تناقضا مع الشعب . فمثل هذا التصور أو الإدراك ، مؤلم في الواقع ، و قد تخدم المقاومة في مثل هذه الحالة كأداة دفاعية. و في نهاية المطاف ، ليس من السهل على الزعماء الذين برزوا من خلال الالتزام بالمضطهدين أن يدركوا أنهم في تناقض مع من التزموا بهم . من المهم إدراك هذا الإحجام عند تحليل بعض أشكال سلوك القادة الثوريين الذين يصبحون لا إراديا في تناقض (رغم أنه غير عدائي) مع الشعب .

يحتاج القادة الثوريون ، بلا شك ، من أجل القيام بالثورة إلى التزام الشعب و تلاحمه . فعندما يسعى قادة ، يشكلون تناقضا مع الشعب ، إلى هذا الالتزام و التلاحم و يلاقون شيئا من التعالي و عدم الثقة ، يعتبرون ذلك في الغالب على أنه مؤشر على وجود قصور في الشعب . ويفسرون لحظة تاريخية معينة من وعي الشعب على أنها مؤشر على وجود قصور لديه .و بما أن القادة في حاجة إلى التزام الشعب حتى يمكن تحقيق الثورة (و لكنهم في الوقت ذاته لا يثقون في الشعب الذي لا يثق بهم) يستهويهم

استخدام الإجراءات نفسها التي تستخدمها النخب المسيطرة للاضطهاد . و يقول القادة في تسويغهم لافتقارهم إلى الثقة بالشعب إن من المستحيل التحاور مع الشعب قبل تولي السلطة ، و بذلك يختارون نظرية العمل المعادي للحوار . و يحاولون بعد ذلك – مثلهم مثل النخب المسيطرة - غزو الشعب : يصبحون مخلّصين ؛ و يستخدمون التلاعب و الغش و يقومون بغزو ثقافي . و بتقدمهم في هذه الدروب ، دروب الاضطهاد ، لن يحققوا الثورة ، و إذا حققوها لن تكون ثورة حقيقية .

إن دور القيادة الثورية (تحت أية ظروف ، و بشكل خاص في الظروف التي تحدثنا عنها) هو التفكير بجد ، حتى و هي تعمل ، بالأسباب التي تدعو الشعب إلى اتخاذ موقف عدم الثقة ، و البحث عن طرق حقيقية للتلاحم معه ، طرق لمساعدة الشعب على مساعدة نفسه كي يدرك بشكل انتقادي الواقع الذي يضطهده .

إن الوعي الخاضع للسيطرة هو وعي ذو ازدواجية و غامض و مفعم بالخوف و عدم الثقة. (1) يشير جيفارا في مذكراته حول النضال في بوليفيا ، عدة مرات إلى الافتقار إلى مشاركة الفلاحين،

(1)راجع بشأن هذه النقطة إريك فروم : " The Application of Humanist Psychoanalysis to Marxist Theory," in Socialist Humanism (New York, 1966); and Reuben Osborn, Marxism and Psychoanalysis (London, 1965).

يقول : "لا توجد أية تعبئة للفلاحين ، باستثناء المهام المعلوماتية التي تثير استياءنا نوعا ما . إنهم [الفلاحون] ليسوا سريعين و ليس لديهم كفاءة كبيرة ، و يمكن تحييدهم ...افتقار تام لدمج الفلاحين ، على الرغم من أنهم أخذوا يتخلون عن خوفهم منا و

أخذنا نكسب إعجا م . إ ا مهمة بطيئة و تتطلب صبرا." (1)

يفسر استلهام وعي الفلاحين الخاضع لسيطرة المضطهدين خوف الفلاحين و عدم كفاء م.

و لا بد لسلوك المضطهدين و ردود افعالهم ، التي تؤدي بالمضطهدين إلى ممارسة الغزو الثقافي ، أن تثير لدى الثوري نظرية عمل مختلفة . فالأمر الذي يميز القادة الثوريين عن النخب المسيطرة ليس فقط أهدافهم، بل مناهج عملهم أيضا. فإذا تصرفوا بالطريقة ذا ا [التي تتصرف ا النخب] ستتطابق الأهداف . إن قيام النخب المسيطرة بطرح العلاقات بين الناس و العالم كمشاكل سيتناقض بالنسبة لها مع ذا ا مثل تناقض القادة الثوريين مع ذا م لو لم يطرحوا الأمر كمشاكل .

و دعونا الآن نحلل نظرية العمل الثقافي الحواري و نحاول فهم عناصره المكونة .

التعاون

يحتوي "الغزو" في نظرية العمل المعادي للحوار (كسمته المميزة الأساسية) على "فاعل" يقوم بغزو شخص آخر و يحوله إلى "شيء" . أما في نظرية العمل الحواري ، فيتلاقى "الفاعلون" في تعاون من أجل تحوير العالم . تقوم الـ "أنا" المسيطرة المعادية للحوار بتحويل الـ "أنت" التي تم غزوها والسيطرة عليها إلى مجرد "شيء" (2) . و لكن الـ "أنا" الحوارية تعرف أن السبب الذي استدعى وجودها هو بالتحديد الـ"أنت" (أي "اللاأنا") . و تعرف أيضا أن الـ "أنت" التي تقتضي وجودها تشكل بدورها ،"أنا" التي هي"أنت" بالنسبة لها .و هكذا يصبح الـ"أنا" و الـ"أنت" في جدلية هذه العلاقات ، اثنتين من الـ"أنت" ، اللتين تصبحان أيضا اثنتين من الـ "أنا" .

لا تحتوي نظرية العمل الحواري على "فاعل" يسيطر بحكم الغزو ، و "مفعـول بـه" خاضع للسيطرة . بل يوجد بدلا من ذلك "فاعلون" يلتفون لـ "تسمية" العـالم مـن أجل تحويره . و إذا عجز المضطهدون في لحظة تاريخيـة معينـة ، لأسـباب سـبق و وصفناها، عن القيام بمهمتهم كـ "فاعلين" ، سيساعدهم طرح اضطهادهم بحد ذاتـه كمشكلة (الأمر الذي يتطلب دائما نوعا من العمل) على تحقيق هذه المهمة .

مما يعني المذكور آنفا أنه لا يوجد في المهمة الحوارية دور لقيادة ثورية.بل يعني فقط أن القادة،

(1)تشي جيفارا ، The Secret Papers of a Revolutionary: The Diary of Che Guevara (The Ramparts Edition, 1968)، ، ص 105-106 ، 120

(2)راجع مارتن بوبر I and Thou (نيويورك ، 1958)

رغم دورهم الهام و الأساسي و الذي لا غنى عنه، لا يملكون الشعب ، و لـيس لهـم الحق في توجيهه بشكل أعمى إلى خلاصه . فخلاص من هذا القبيل سـيكون مجـرد هدية من القادة للشعب – فصماً لعرى الحوار بينهم و اختزالا للشعب من محـدث مشارك في العمل التحرري إلى هدف أو "مفعول به" لهذا العمل .

إن التعاون ، بصفته سمة مميزة للعمل الحواري – الذي يجري فقط بين "الفاعلين" (الذين مع ذلك ، قد يكون لهم مستويات عمل ، و بالتالي ، مسؤوليات مختلفـة) يمكـن أن يتحقق فقط من خلال التواصل . و الحوار بوصفه تواصلا أساسيا ، يجب أن يكـون أساس أي تعاون . ففي نظرية العمل الحواري لا يوجد مكان لغزو الـشعب باسـم

القضية الثورية ، بل هنالك مكان فقط لكسب التزامه . و الحوار لا يفرض ، و لا يتلاعب و يغش ، و لا يدجن و لا يعمد إلى "إلقاء الشعارات" . و لكن هذا لا يعني أن نظرية العمل الحواري لا تؤدي إلى أي مكان ، كما أنه لا يعني أن الشخص المحاور لا يملك فكرة واضحة عما يريد ، أو الأهداف الملتزم بها .

التزام القادة الثوريين بالمضطهدين هو ، في الوقت ذاته ، التزام بالحرية . و لا يمكن للقادة ، بسبب هذا الالتزام ، محاولة غزو المضطهدين ، بل يجب أن يحصلوا على التزامهم بالتحرر و اتباعهم له . و الالتزام الذي يتم غزوه ليس التزاما ، بل هو قيام المقهور "باتباع" الغازي الذي يحدد الخيارات المفتوحة للأول . أما الالتزام الحقيقي فهو تطابق حر للخيارات . لا يمكن أن يحدث بمعزل عن التواصل بين الناس مع توسط الواقع .

و هكذا ، فإن التعاون يؤدي "بالفاعلين" المتحاورين إلى تركيز اهتمامهم على الواقع الذي يتوسط بينهم و الذي – عند طرحه كمشكلة – يتحداهم . و الرد على ذلك التحدي هو عمل الفاعلين المتحاورين المنصب على الواقع من أجل تغييره . دعوني أعود و أؤكد أن طرح الواقع كمشكلة لا يعني إلقاء الشعارات ، بل يعني تحليل نقدي لواقع يشكل مشكلة .

وخلافا لممارسات إضفاء الخرافات التي تلجأ إليها النخب المسيطرة ، تتطلب النظرية الحوارية أن يتم الكشف عن العالم . و لكن لا يستطيع أي شخص الكشف لشخص آخر عن العالم. فعلى الرغم من أن "فاعلا" قد يبادر إلى الكشف نيابة عن آخرين ، إلاّ أنه يتوجب على الآخرين أن يصبحوا "فاعلين" في هذه العملية . و يصبح التزام الشعب ممكنا من خلال الكشف عن العالم و عن أنفسهم في ممارسة حقيقية .

و يلتقي هذا الكشف مع بدء الشعب في الثقة بنفسه و في القادة الثوريين ، مع إدراكه لإخلاص القادة و مصداقيتهم . و تعكس ثقة الشعب في القادة ثقة القادة في الشعب .

و لكن يجب ألاّ تكون هذه الثقة ساذجة . يجب أن يؤمن القادة بالطاقـات الكامنـة للشعب الذي لا يستطيعون التعامل معه على أنه مجرد أهداف لعملهم . و يجـب أن يؤمنوا بأن الشعب قادر على المشاركة في العمل من أجل التحرر . و لكن يجب عليهم دائما ألاّ يثقوا في غموض الأشخاص المضطهدين ، و أن لا يثقوا في المضطهد "القابع" في نفوسهم . و بالتالي ، فإن جيفارا عندما يحث الثوريين على أن يكونوا دائما عديمي الثقة (1) ، لا يتجاهل الشرط الأساسي لنظرية العمل الحواري. إنما هو مجرد واقعي .

على الرغم من أن الثقة أمر أساسي للحوار ، إلاّ أ ا ليست شرطا مسبقا لذلك . فهي تنجم عن التلاقي الذي يكون فيه الأشخاص "فاعلين مشاركين" في شجب العالم كجزء من عملية تغييره . و لكن ما دام المضطهد "القابع" في "داخل" المضطهدين أقوى منهم ، فإن خوفهم الطبيعي من الحرية قد يقودهم إلى شجب القادة الثوريين بدلا من شجب العالم ! ليس بوسع القادة أن يكونوا سذجا ، بل يجب عليهم أن يكونوا يقظين لهـذه الاحتمالات . يؤكد كتاب جيفارا "أحداث من الحرب الثورية" على وجود مثل هذه الأخطار: ليس فقط التخلي عن القضية و الهروب منها ، بل و حتى خيانتها . فجيفارا ، مع اعترافه بضرورة معاقبة من يهربون من أجل الحفاظ علـى تلاحـم ا موعـة وانضباطها ، يقر أيضا بوجود بعض العوامل التي تفسر الهروب. وأحد هذه العوامل ، و لعله أهمها ، هو غموض من يهرب .

و جزء آخر من وثيقة جيفارا ،الذي يتحدث عن وجوده (ليس فقط كمقاتـل ، بـل أيضا كطبيب) في مجتمع فلاحين في [جبال] السيرا مايسترا ، وله علاقة بحديثنا عـن

التعاون ، يلفت الانتباه. يقول: "نتيجة للاتصال اليومي مع هؤلاء الناس و مشاكلهم أصبحنا على قناعة راسخة بالحاجة إلى تغيير تام في حياة شعبنا . و أصـبحت فكـرة الإصلاح الزراعي واضحة للغاية . و لم يعد التلاحم مع الشعب مجرد نظرية بل أصبح جزءا لا يتجزأ من نفوسنا" .

أخذ المقاتلون و الفلاحون في الانصهار في كتلة صلبة واحدة . لا يـستطيع أحـد أن يحدد متى أصبحت الأفكار ، في هذه العملية الطويلة ، حقيقة ، و متى أصـبحنا نحـن جزءا من الفلاحين . أما في ما يتعلق بي ، فإن الاحتكاك بمرضاي في السيرا [مايسترا] قد حول قرارا تلقائيا و شاعريا نوعا ما إلى قوة أكثر رصانة ، ذات قيمة مختلفة كلية . إن سكان السيرا [مايسترا] الفقراء ، المخلصين والذين يعانون لا يـستطيعون حـتى تصور المساهمة الكبرى التي قدموها لصهر أيديولوجيتنا الثورية وتدعيمها ." (2)

إنتبهوا إلى تأكيد جيفارا أن التلاحم كان حاسما في تحويل "قرار تلقائي و شاعري نوعا ما

"(1)لا تثق :في البداية لا تثق بخيالك ، و لا تثق أبدا بالفلاحين الودودين و المخبرين و الأدلاء أو الأشخاص المعينين للاتصال .لا تثق بشيء أو أحد حتى يتم تحريـر منطقـة كلية ." تشي جيفارا Episodes of the Revolutionary War (نيويورك ، 1968) ص 102

(2)المصدر ذاته ص 56-57 (التأكيد عائد لنا)

إلى قوة أكثر رصانة ، ذات قيمة مختلفة كليا" . هنالك ، إذا ، أصبحت ممارسة جيفارا الثورية ثنائية وأكيدة في حواره مع الفلاحين . و لكن ما لم يقله جيفـارا ، و لعلـه

بدافع التواضع ، هو أن تواضعه و مقدرته على الحب هما ما جعل تلاحمه مع الـشعب ممكنا ، و أصبح هذا التلاحم الحواري ، الذي لا شك فيه ، تعاونا . و انتبـهوا إلى أن جيفارا (الذي لم يصعد إلى السيرا مايسترا مع فيديل و رفاقه لأنه شاب محبط يبحـث عن مغامرة) يقر بأن "تلاحمه مع الشعب لم يعد مجرد شيئ نظري ، بل أصبح جـزءا لا يتجزأ [من نفسه]" . و يؤكد كيف أنه منذ لحظة التلاحم أصبح الفلاحون "صـناع" "الأيديولوجية الثورية" للمقاتلين الذين معه .

و يكشف أسلوب جيفارا الخاص في سرد تجاربـه و رفاقـه و وصـفه لاحتكـاكهم بالفلاحين "الفقراء المخلصين" بلغة تكاد أن تكون إنجيلية ، يكشف عن القدرة العميقة لدى هذا الرجل الرائع على الحب و التواصل . و من ثم تبرز قوة إيمانه بعمل شخص آخر يتحلى بالحب : كاميلو توريس ، "القس ، رجل حرب العصابات" .

لولا التلاحم الذي يولد تعاونا حقيقيا ، لكان الشعب الكوبي مجرد أهداف للنـشاط الثوري للرجال الذين صعدوا إلى السيرا مايسترا ، ، و لاستحال "التزامهم" بوصفهم أهدافا . أقصى ما كان سيتم هو احتمال حدوث "التزام" ، و لكن كعنصر من عناصر السيطرة و ليست الثورة .

في النظرية الحوارية ، لا يمكن أن يستغني النشاط الثوري ، في أية مرحلة من المراحل ، عن التلاحم مع الشعب . و يستدعي التلاحم بدوره تعاونا ، كالذي وصفه جيفارا ، ويؤدي بالقادة و الشعب إلى الانصهار سوية. و يمكن لهذا الانصهار أن يوجد فقط إذا كان العمل الثوري إنسانيا حقا، و حاسما و فيه تواصل و تواضع ، بحيث يكون تحرريا.

إن الثورة مفعمة بالحب و تخلق الحياة . و قد تضطر من أجل أن تخلق الحياة ، إلى منع

بعض الأشخاص من الالتفاف على الحياة . فبالإضـافة إلى دورة الحيـاة و المـوت الأساسية في الطبيعة ، هنالك أيضا "موت حي" غير طبيعي : الحياة التي تحرم من كمالها (1) .

ليست ثمة ضرورة للاستشهاد هنا بالإحصائيات لإظهار عدد البرازيليين (والأمريكيين اللاتينيين عموما) الذين هم "جثث حية" ، "أشباح" آدميين ، رجال و نساء و أطفـال يائسين هم ضحايا "حرب غير مرئية" (2) ، يلتهم الـسل و البلهارسـيا و إسـهال الأطفال ما تبقى من حيا م ... أمراض الفقر المتعددة (غالبية هذه الأمراض هـي في قاموس المضطهدين "أمراض استوائية") .

(1)راجع فيما يتعلق بدفاعات الإنسان ضد موته ، في أعقاب "موت الله" ، في الفكـر الراهن ، مايكل دوفرين ،) Pour L'Homme باريس ، 1968)

"(2)يبيع العديد من [الفلاحين] أنفسهم أو أفرادا من عائلا م فيتحولون إلى عبيـد هربا من [الجوع] . اكتشفت إحدى الصحف و تدعي 'بيلو هوريزنت' نحو خمـسين ألف ضحية من هذا القبيل (تم بيعهم مقابل مليون و =

علق الأب شينو بالتالي على ردود الفعل المحتملة على حالات متطرفة كالمذكورة آنفا :

"إن العديد من القساوسة الذين حضروا ا لمس [الكنسي] ، و كذلك الأشـخاص العاديون العارفون بالأمور ، يخشون من أن نقوم ببساطة في مواجهة احتياجات و معاناة العالم ، بتبني احتجاج عاطفي يحبذ إيجاد أعذار لمظاهر الفقر و الظلم و عوارضهما دون القيام بتحليل لأسباب الظلم و دون شجب النظام الذي يشمل هذا الظلم و يولّد هذا الفقر ." (1)

الوحدة من أجل التحرر في الوقت الذي يضطر فيه المسيطرون بالضرورة ، وفق نظرية العمل المعادي للحوار ، إلى شق صفوف المضطهدين حتى يسهل الإبقاء على وضع الاضطهاد ، يتعين على القادة في النظرية الحوارية تكريس أنفسهم إلى القيام بجهد لا يكل من أجل توحيد المضطهدين – و وحدة القادة مع المضطهدين – كي يحققوا التحرير .

إلاّ أن الصعوبة تكمن في أن هذه الفئة من العمل الحواري (مثلها مثل الفئات الأخرى) لا يمكن أن تحدث بمعزل عن الممارسة . إن ممارسة الاضطهاد سهلة (أو على الأقل ليست صعبة) بالنسبة للنخب المسيطرة ، و لكن ليس من السهل على القادة الثوريين القيام بممارسة تحررية . فبوسع المجموعة الأولى أن تعتمد على استخدام أدوات السلطة ، و لكن بالنسبة للمجموعة الثانية فإن السلطة موجهة ضدها . المجموعة الأولى تستطيع تنظيم نفسها بحرية ، رغم أنها قد تمر بانقسامات عرضية ومؤقتة ، تعود بعدها إلى الاتحاد بسرعة في وجه أي خطر يهدد مصالحها الجوهرية . و لكن المجموعة الثانية لا تستطيع العيش من غير الشعب ، و هذا الشرط بحد ذاته يشكل أول عقبة في جهودها من أجل التنظيم .

في الواقع إن سماح النخب المسيطرة للقادة الثوريين بالتنظيم أمر غير معقول . فالوحدة الداخلية للنخب المسيطرة – التي تعزز سلطتها و تنظمها – تستدعي تقسيم الشعب . وحدة القادة الثوريين توجد فقط في وحدة الشعب نفسه و من ثم وحدته معهم . أما وحدة النخب فهي مستمدة من العداء للشعب ، بينما وحدة المجموعة القيادية الثورية مستمدة من التلاحم مع الشعب (الموحد). و وضع الاضطهاد الملموس – الذي يؤدي إلى ازدواجية الـ "أنا" العائدة إلى المضطهد وتجعل منه

==خمسمائة ألف دولار) . و قام أحد الصحفيين لإثبات ذلك بشراء رجل و زوجته بمبلغ ثلاثين دولارا . و قال العبد "لقد رأيت العديد من الناس الطيبين يتضورون جوعا ، لهذا لم أمانع في أن أباع." و عندما تم إلقاء القبض على أحد تجار الرقيق في سان باولو في 1959 اعترف بأن له صلات مع مزارعين و مزارع قهوة و مشاريع بناء في سان باولو لتصريف بضاعته – باستثناء الفتيات المراهقات اللاتي يتم بيعهن إلى بيوت الدعارة . راجع :"جون جيراسي The Great Fear (نيويورك ، 1963)

(2)راجع م . د . شينو ، Temoignage Chretien, April 1964 كما ورد في كتاب أندريه موين =

غامضا غير مستقر عاطفيا و يخاف من الحرية – يسهل عملية التقسيم التي يقوم بها المسيطر بإعاقة العمل التوحيدي الذي لا غنى عنه للتحرير .

بالإضافة إلى ذلك فإن السيطرة بحد ذاتها عمل يؤدي موضوعيا إلى التجزئة و التقسيم . فهي تبقي الـ "أنا" العائدة للمضطهد في حالة "التصاق" بالواقع الذي يبدو قويا و طاغيا للغاية ، ثم تحمله على "الاغتراب" بتقديم قوى غامضة لتفسير تلك السلطة . يوجد جزء من الـ "أنا" يقع في الواقع الذي يلتصق به ، و جزء أخر يقع خارج ذاته ، في القوة الغامضة التي يعتبرها مسؤولة عن واقع لا يستطيع فعل شيء حياله . و هو مشتت بين ماض و حاضر متشابهين و مستقبل بلا أمل . إنه شخص لا يفهم نفسه على أنه في طور أن يكون . و بالتالي ، ليس من الممكن أن يكون له مستقبل يبنى بالوحدة مع الآخرين . و لكن عندما ينهي "التصاقه" و "يموضع" الواقع الذي يأخذ في الظهور منه ، يبدأ في دمج نفسه كفاعل ("الـ "أنا") في مواجهة مفعول به (الواقع) .و يصبح في هذه اللحظة ، بعد أن يطرح جانبا الوحدة الزائفة لذاته المجزأة ، شخصا

حقيقيا .

إن أيديولوجية الاضطهاد أمر ضروري لا غنى عنه من أجل شق صفوف المـضطهدين وتقسيمهم . و بالمقابل ، يتطلب تحقيق وحد م شكلا من أشـكال العمـل الثقـافي يتوصلون من خلاله إلى معرفة الـ "لماذا" و الـ "كيف" الخاصتين بالتصاقهم بالواقع – يتطلب التخلي عن الدعوة للأيديولوجية . و بالتالي فإن الجهد الذي يبذَل لتوحيد المضطهدين لا يتطلب مجرد "إطلاق شعارات" أيديولوجية ، [فـإطلاق مثـل هـذه الشعارات] يقوم أيضا ، من خلال تشويه العلاقة الحقيقية بـين الفاعـل و الواقـع الموضوعي ، بفصل الجوانب "المُدركة" و "الانفعالية" و "النشطة" للشخصية الإجماليـة غير القابلة للتجزئة.

إن هدف العمل الحواري التحرري هو ليس "إخراج" المضطهدين من واقـع خـرافي دف "ربطهم" بواقع آخر .بل على العكس ، هدف العمل الحـواري هـو تمكـين المضطهدين ، بحفاظهم على التصاقهم ، من اختيار تغيير عالم ظالم .

و بما أن وحدة المضطهدين تشتمل على تضامن فيما بينهم ، بغض النظر عن مركزهم المحدد، تتطلب هذه الوحدة بدون أدنى شك وعيا طبقيا . إلاّ أن الانغماس في الواقع ، الأمر الذي يميز الفلاحين في أمريكا اللاتينية ، يعني أن إدراكهـم لوضـعهم كطبقـة مضطهدة يجب أن يسبقه (أو على الأقل يرافقه) التوصل إلى إدراك أ م مـضطهدون كأفراد (1).

(Christianos y Marxistas del Concilio=بيونس أيريس ، 1965) ، ص 167

(1)يتطلب توصل المرء إلى وعي انتقادي لمكانته كشخص مضطهد إقرار انتقادي بـأن واقعه هو واقع قمعي . لهذا السبب بالتحديد ، يتطلب الأمر التوصل إلى "فهم لجوهر المجتمع" ، الذي هو ، بالنسبة للوكاش "عامل القوة الأول ، لأنه أيضا دون شـك و ببساطة الأداة الخالصة للانشقاق." راجـع : جـورج لوكـاش ، Histoire et Conscience de Classe (باريس ، 1960) ص 93

إن اقتراحا على فلاح أوروبي ،كمشكله أنه "شخص" قد يبدو له أمرا غريبا . و لكن هذا لا ينطبق على الفلاحين في أمريكا اللاتينية الذين ينتهي عالمهم في العادة عند حدود الإقطاعيات [التي يعملون فيها] ، و تقلد حركاتهم إلى حد ما حركات الحيوانـات و الأشجار و غالبا ما يعتبرون أنهم متساوون مع الحيوانات .

إن الأشخاص المرتبطين بالطبيعة ، و بهذه الطريقة بالمضطهدين لا بد أن يتوصـلوا إلى النظر إلى أنفسهم على أنهم أشخاص منعوا من "أن يكونـوا" . و يعـني اكتـشافهم لأنفسهم ، بالدرجة الأولى اكتشافهم بأنهم بيدرو و أنطونيو أو جوزيفا . ويعني هـذا الاكتشاف إدراكا مختلفا لمعنى المسميات : تعود كلمات "العالم" ، "الرجال" ، "الثقافة" ، "الشجرة" ، "العمل" ، و "الحيوان" و تكتسب أهميتها الحقيقية . و يرى الفلاحـون الآن أنفسهم بأنهم الذين يغيرون الواقع (في السابق كانوا كيانا غامضا) مـن خـلال عملهم الخلاق . و يكتشفون أنهم :أشخاص ، لا يـستطيعون بعـد الاسـتمرار في وضعهم "كأشياء" يملكها آخرون . و يستطيعون الانتقال من الوعي بأنفسهم كأفراد مضطهدين إلى الوعي بأنهم طبقة مضطهدة .

إن أية محاولة لتوحيد الفلاحين قائمة على أساليب "تنشيطية" تعتمد على "شعارات" و لا تعالج هذه الجوانب الجوهرية، ستنتج محاذاة للأشخاص بعضهم ببعض ، و إضـفاء

طابع ميكانيكي بحت على عملهم . وحدة المضطهدين تتم على المستوى الإنساني ، و ليس على مستوى الأشياء . تتم في واقع يجري فهمه بشكل صحيح فقط في جدلية بين البنية التحتية و الفوقية .

يتعين على المضطهدين كي يتحدوا ، أولاً أن يقطعوا الحبل السري للسحر و الخرافة الذي يربطهم إلى عالم الاضطهاد. فالوحدة التي تربطهم ببعضهم البعض يجب أن تكون ذات طبيعة مختلفة .

و لا بد للعملية الثورية أن تكون عملا ثقافيا من البداية حتى تحقق هذه الوحدة التي لا غنى عنها . وستعتمد الأساليب المستخدمة لتحقيق وحدة المضطهدين على تجربتـهم التاريخية و الوجودية في إطار بنية اجتماعية .

يعيش الفلاحون في واقع "مغلق"، حيث مركز قرار قمعي متماسـك واحـد . أمـا المضطهدون الحضريون فيعيشون في سياق متسع حيث مركز القيادة القمعي متعدد و معقد . الفلاحون يعيشون تحت سيطرة شخصية مهيمنة تجسد النظام القمعي ، بينما في المناطق الحضرية يخضع المضطهدون إلى "اضطهاد شخصية غير محددة" . و في كلـتي الحالتين تكون القوة القمعية "غير مرئية" إلى حد ما : في المناطق الريفية بسبب قربها من المضطهدين ، و في المدن بسبب تشتتها .

و مع ذلك فإن أشكال العمل الثقافي في مثل هذه الأوضاع الصعبة لها الهدف ذاته : أن توضح للمضطهدين الوضع الموضوعي الذي يربطهم بالمضطهدين ، مرئيا كان أم لا . فأشكال العمل التي تتفادى مجرد إلقاء الخطب و "الثرثرة" التي لا طائل منـها مـن ناحية ، و النشاط الميكانيكي ، من الناحية الأخرى ، هي فقط يمكنها أيضا أن تعارض

العمل الإنشقاقي للنخب المسيطرة و التقدم نحو وحدة المضطهدين .

التنظيم لا غنى عن التلاعب و الغش بالنسبة لنظرية العمل المعادي للحوار من أجل الغش و السيطرة. و في نظرية العمل الحواري يمثل تنظيم الشعب النقيض العدائي لهذا التلاعب . و التنظيم ليس مرتبطا فقط بشكل مباشر بالوحدة ، بل إنه تطور طبيعي لتلك الوحدة . و بالتالي ، فإن سعي القادة للوحدة هو بالضرورة محاولة لتنظيم الشعب ، و شاهد على حقيقة أن النضال من أجل التحرر هو مهمة مشتركة. هذه الشهادة (Witness) المستمرة المتواضعة و الشجاعة التي تنجم عن التعاون في جهد مشترك – تحرير الناس – تتحاشى السيطرة المعادية للحوار و قد يختلف شكل الشهادة، اعتمادا على الظروف التاريخية لأي مجتمع . إلاّ أن الشهادة نفسها عنصر لا غنى عنه للعمل الثوري .

و بالتالي فإنه من الضروري كي يتم تحديد الـ "ماذا" و الـ "كيف" لتلك الشهادة أن تتوفر معرفة انتقادية متزايدة للسياق التاريخي الراهن ، و النظرة التي يحملها الناس عن العالم ، و التناقض الرئيسي في المجتمع ، و الجانب الرئيسي لذلك التناقض . و بما أن هذه الأبعاد للشهادة هي تاريخية وحوارية ، و من ثم جدلية ، فالشهادة لا يمكن لها ببساطة أن تستوردها من سياقات أخرى دون أن تقوم قبل ذلك بتحليل [أبعادها] الخاصة . فعمل شيء غير ذلك يعني جعل النسبي مطلقا و خرافيا ، عندئذ يصبح "الإغتراب" أمرا لا يمكن تفاديه . أما في نظرية العمل الحوارية فإن الشهادة هي إحدى التعبيرات الأساسية عن الطابع الثقافي و التعليمي للثورة .

و تشمل العناصر الأساسية للشهادة التي لا تختلف تاريخيا : التماثل بين الأقوال و الأفعال . الجرأة التي تحث الشهود على مواجهة وجود خطر دائم . الراديكالية

(ليست الانعزالية) التي تؤدي بكل من الشهود و أولئك الذين يتلقون الشهادة إلى زيادة العمل . الشجاعة على الحب (التي هي أبعد من أن تكون تكيفا مع عالم ظالم ،بل هي تغيير ذلك العالم باسم التحرر المتزايد للناس) . والإيمان بالشعب ، بما أن الشهادة تقدم له – رغم أن الشهادة للشعب تؤثر أيضا على النخب المسيطرة للعلاقة الجدلية التي بين الشعب و تلك النخب (التي ترد على الشهادة بطريقتها المألوفة) .

و تشمل كافة الشهادات الحقيقية (أي الانتقادية) الجرأة على المجازفة ، بما في ذلك احتمال ألاّ يفوز القادة دائما بالتزام الشعب الفوري و اتباعه لهم . و الشهادة التي لم تؤت ثمارا في لحظة معينة و في ظروف محددة تصبح غير قادرة على أن تؤتي ثمارا غدا . و بما أن الشهادة ليست حركة تجريدية، بل عملا – مواجهة مع العالم و مع الناس – فهي ليست ساكنة . إنها عنصر ديناميكي تصبح جزءا من السياق الاجتماعي الذي تقع في إطاره ، و منذ تلك اللحظة لا تكف عن التأثير في ذلك السياق . (1)

يقوم التلاعب و الغش في العمل المعادي للحوار بتخدير الشعب ، و يسهل عملية السيطرة عليه . و في العمل الحواري يستبدل التلاعب و الغش بالتنظيم الحقيقي الصحيح . في العمل المعادي للحوار يخدم التلاعب و الغش أهداف الغزو ؛ بينما في العمل الحواري تخدم الشهادة الجريئة و المفعمة بالحب أهداف التنظيم .

يعني التنظيم بالنسبة للنخب المسيطرة تنظيم نفسها . و بالنسبة للقادة الثوريين يعني التنظيم تنظيم أنفسهم مع الشعب . في الحالة الأولى ، تقوم النخب المسيطرة بكلة سلطتها بشكل متزايد بحيث تتمكن من السيطرة بكفاءة أكثر ، و تجرد من الشخصية. و في الحالة الثانية يتطابق التنظيم فقط مع طبيعته و هدفه إذا كان يشكل بحد ذاته ممارسة للحرية .و بالتالي ، فإن الانضباط الضروري لأي تنظيم يجب ألاّ يتم

الخلط بينه و بين تنظيم الناس كفرق . إن من الصحيح أنه بلا قيـادة وانـضباط و تصميم و أهداف – بلا مهام تنجز و حساب يقدم – لا يمكن لمنظمـة أن تعـيش ، وبالتالي يجري تخفيف العمل الثوري . و لكن هذه الحقيقة لا يمكن لها على الإطلاق أن تبرر معاملة الشعب على أنه أشياء للاستخدام . فالشعب قد تم تجريده من شخصيته على يد الاضطهاد – و إذا قام القادة الثوريون بالتلاعب به و غشه ، بدلا من العمل معه لتنمية وعيه ، عندئذ يتم نفي هدف التنظيم بحد ذاته (أي التحرر) .

إن تنظيم الشعب هو العملية التي يدشن فيها القادة الثوريون ، الذين حرموا أيضا من قول كلمتهم (2) ،تجربة تعلم كيفية تسمية العالم ، و هذه تجربة تعلم حقيقي ، و من ثم فهي حوارية . ومن ثم فإن القادة لا يمكنهم قول كلمتهم لوحدهم ، بـل يجـب أن يقولوها مع الشعب . و القادة الذين لا يعملون بشكل حواري ، و يصرون على فرض قرارا م ، لا ينظمون الشعب – إ م يتلاعبون به . إ م لا يحررونه ، كمـا أ ـم لا يتحررون : إ م يضطهدون .

كون القادة الذين ينظمون الشعب لا يملكون الحق في فرض كلمتهم بشكل اعتبـاطي لا يعني أنه يتعين عليهم لذلك اتخاذ موقف ليبرالي يشجع الشعب ، الذي تعود علـى الاضطهاد ، على

(1)إن الشهادة الحقيقية ، التي تعتبر عملية ، و لا تؤتي ثمارا على الفـور ، لا يمكـن الحكم عليها بالفشل التام . فالأشخاص الذين ذبحوا تيرادنـتس اسـتطاعوا تقـسيم جسده، و لكنهم لم يستطيعوا محو شهادته .

(2)قال لي في مرة من المرات الدكتور أورلاندو أجيري أورتيس ، مدير كلية الطب في

إحدى الجامعات الكوبية ، "إن الثورة تحتاج إلى ثلاثة أشياء :الكلمـة و الـشعب و البارود . فانفجار البارود يوضح فهم الناس لوضعهم الملموس، سعيا من خلال العمل إلى تحرير أنفسهم ." كان ممتعا ملاحظة كيف أكد هذا الطبيب الثوري على "الكلمة" ، بالمعنى الذي أستخدمه في هذا البحث : كعمل و فكر ، كممارسة .

الانفلات . فنظرية العمل الحواري تعارض كلا من السلطوية و الانفـلات ، و هـي بذلك تؤكد على السلطة و الحرية ، إذ لا توجد حرية بلا سلطة ، و كذلك لا توجد سلطة بلا حرية . إن كل حرية تحتوي على إمكانية أن تتحول في ظروف معينـة (وفي مستويات وجودية مختلفة) إلى سلطة . لا يمكن عزل الحرية و السلطة عـن بعـضهما البعض ، بل يجب التفكير بهما و النظر إليهما في علاقتهما ببعضهما البعض (1).

إن السلطة الحقيقية لا يمكن أن تتأكد بوصفها كذلك بمجرد انتقال السلطة ، بل من خلال تكليف أو توكيل ، أو من خلال التحام متعاطف .إذا جرى ببـساطة انتقال السلطة من مجموعة إلى أخرى ، أو جرى فرضها على الأغلبية ، فإنها سـتنحط عندئذ إلى سلطوية . فالسلطة ستتفادى الاصطدام بالحرية فقط إذا كانت "حرية تصبح سلطة" . إن تضخيم إحداها سيؤدي إلى ضمور الأخرى . و كما أن السلطة لا يمكنها أن توجد من غير أن تنفي الحرية ، فإن الانفلات لا يمكن أن يوجد من غير أن ينفـي السلطة .

يتطلب التنظيم ، بموجب نظرية العمل الحواري ، سلطة ، و بالتالي لا يمكنه أن يكون متسلطا ، و يتطلب حرية ، و من ثم لا يمكنه أن يكون منفلتا . و التنظيم هو في الواقع عملية تعليمية عالية ، يمر فيها القادة و الشعب سـوية بتجربـة الـسلطة و الحريـة الحقيقيتين ، اللتين يحاول القادة (الشعب فيما بعد) إرساءهما في المجتمع بتغيير الواقـع

الذي يتوسط لهم .التوحيد الثقافي (Cultural Synthesis)

العمل الثقافي هو على الدوام شكل من أشكال العمل المثابر و المتعمد الذي يستهدف البنية الاجتماعية، إما لهدف المحافظة على تلك البنية أو تغييرها . و كل عمل ثقـافي ، بوصفه شكلا من أشكال العمل المتعمد المثابر ، له نظريته التي تقرر أهدافه ، و بالتالي تحدد أساليبه . و العمل الثقافي إما أن يخدم السيطرة (عن وعي أو بلا وعي) أو تحـرر الناس . و بما أن هذه الأنواع المتعارضة جدليا من العمل الثقافي تعمل في بنية اجتماعية و تنصب عليها ، فهي تخلق علاقات جدلية ، علاقات دوام وتغيير (and Change Relations of Permanence) .

و لا بد للبنية الاجتماعية أن تكون لتصبح ، بكلام آخر إن الصيرورة هي الطريقـة التي تعبر فيها البنية الاجتماعية عن "الأجـل" (Duration) بـالمعنى البرجـسوني للكلمة.(2)

ليس هدف العمل الثقافي الحواري اختفاء جدلية الدوام و التغيير (هدف مستحيل ، بما أن

(1) ستكون هذه العلاقة تناحرية إذا كان الوضع الموضوعي وضع اضطهاد أو وضـع انفلات .

(2)إن ما يجعل البنية بنية اجتماعية (وبالتالي تاريخية-ثقافية) هو لـيس "الـدوام" أو "التغيير" إذا أخذا بشكل مطلق ، و لكن العلاقات الجدلية بين الاثنين . و في التحليل النهائي إن ما يتبقى في البنية الاجتماعية هو ليس "الدوام" أو "التغيير ، بـل جدليـة الدوام و التغيير نفسها .

اختفاء الجدلية سيتطلب اختفاء البنية الاجتماعية ذا ا ، (بالتالي اختفاء الناس.) إنـه يرمي إلى التغلب على التناقضات التناحرية للبنية الاجتماعية ، و بالتالي تحقيق تحـرر الناس .

من ناحية أخرى ، يرمي العمل الثقافي المعادي للحوار إلى إضفاء أسطورية على مثـل هذه التناقضات ، و يأمل بذلك تفادي (أو إعاقة قدر الإمكان) التحـول الراديكـالي للواقع . فالعمل المعادي للحوار يرمي بشكل صريح أو ضمني إلى الحفاظ – في إطـار البنية الاجتماعية – على الأوضاع التي في صالح عملائها . ففي الوقت الذي لا يمكن أن يقبل فيه الأخير تغيير البنية بشكل راديكالي بما فيه الكفاية للتغلب على تناقـضاته التناحرية ، فإنه قد يقبل بإصلاحات لا تؤثر على سلطته باتخاذ القرارات في ما يتعلـق بالمضطهدين . و من ثم فإن نمط العمل يشمل غزو الشعب ، و شق وحدته و الاحتيال عليه و غشه و غزوه ثقافيا ، وهو بالضرورة و بـشكل جـوهري عمـل متعمـد (Induced) . إلاّ أن العمل الحواري يتميز باستبدال أي جانب متعمد . و عدم قدرة العمل الثقافي المعادي للحوار على استبدال طابعه ينجم عن هدفه : السيطرة . و تكمن قدرة العمل الثقافي الحواري على فعل ذلك في هدفه : التحرير .

يقوم "اللاعبون" ، في الغزو الثقافي ، بإعداد محتوى الموضوعات لعملهم مـن قـيمهم وأيديولوجيتهم ، و نقطة البدء لديهم هي عالمهم ، الذي يدخلون من خلاله إلى عـالم من يقومون بغزوهم . و في "التوحيد" الثقافي ، فإن "اللاعبين" القادمين من "عالم آخر" إلى عالم الشعب يأتون ليس كغزاة . إ م لا يأتون كي يعلّموا أو ينقلوا أو يعطوا شيئا ، بل ليتعلموا مع الشعب عن عالم الشعب .

في الغزو الثقافي يصبح "اللاعبون" (الذين لا يحتاجون حتى للذهاب شخصيا إلى الثقافة

التي يتم غزوها ،فعملهم يتم بشكل متزايد عبر أدوات تكنولوجية) يفرضون أنفسهم على الشعب الذي يحدد له دور المتفرج ، دور الأهداف أو "المفعول به" . أما في "التوحيد"الثقافي ، فاللاعبون يجري تكاملهم مع الشعب الذي يصوغ بشكل مشترك معهم العمل الذي يقومون به معا في ما يتعلق بالعالم.

في الغزو الثقافي يكون المتفرجون و الواقع الذي تجب المحافظة عليه أهدافا لعمل "اللاعبين" . أما في "التوحيد" الثقافي فلا يوجد متفرجون ، و هدف عمل "اللاعبين" هو الواقع الذي سيجري تحويره من أجل تحرر الناس .

هكذا ، فإن "التوحيد" الثقافي هو نمط من أنماط مواجهة الثقافة ذاتها ، باعتبارها تحافظ على الهياكل ذاتها التي أدت إلى تشكيلها . و العمل الثقافي ، باعتباره عملا تاريخيا ، هو أداة لاستبدال الثقافة المسيطرة المغتربة و التي تحمل على الاغتراب . و بهذا المعنى ، فأن كل ثورة حقيقية هي ثورة ثقافية .

إن البحث في موضوعات الشعب المنتجة ، أو الموضوعات التي لها دلالة التي تحدثنا عنها في الفصل الثالث تشكل نقطة البدء لعملية العمل كتوحيد ثقافي . و في الواقع ، ليس من الممكن حقا تقسيم هذه العملية إلى خطوتين منفصلتين : الأولى هي البحث في الموضوعات ، و من ثم العمل كتوحيد ثقافي . فانفصام من هذا القبيل سيعني مرحلة أولية يتم خلالها دراسة الشعب ، باعتباره أهدافا سلبية ، و تحليله و البحث فيه من قبل الباحثين – إجراء مماثل للعمل المعادي للحوار . وتقسيم من هذا القبيل سيؤدي إلى الاستنتاج الساذج بأن العمل للتوحيد يتأتى من العمل للغزو .

لا يمكن أن تحدث هذه التجزئة في النظرية الحوارية . فالفاعلون في دراسة و تقصي

الموضوعات هم ليسوا فقط الباحثون المحترفون ، بل أيضا أشخاص من الشعب الذين يجري البحث في الكون ذي الموضوعات الخاص م . يخلق البحث – اللحظـة الأولى من العمل كتوحيد ثقافي – جوا من الإبداع و الخلق يميل إلى التطور في مراحل العمل اللاحقة . لا يوجد مثل هذا الجو في الغزو الثقافي ، الذي يقوم من خلال الاغتـراب بقتل الحماس الخلاق لدى أولئك الذين يتم غزوهم ، فيتركهم عاجزين و خائفين من ا ازفة بإجراء تجارب لا يمكن دو ا وجود إبداع و خلق حقيقيين .

نادرا ما يتجاوز من يتم غزوهم ، بغض النظر عن مستواهم ، النماذج الـتي يحـددها الغزاة لهم. أما في التوحيد الثقافي فلا يوجد غزاة ، و بالتالي لا توجد نماذج مفروضة . بل يوجد ، بدلا من ذلك ، "لاعبون" يحللون الواقع بشكل انتقادي (و لا يفـصلون أبدا هذا التحليل عن العمل) ويتدخلون كفاعلين في العملية التاريخية .

و بدلا من أن يتبع القادة و الشعب خططا مقررة سلفا ، يقومون مـتلاحمين بإرسـاء توجيهات عملهم . و في هذا "التوحيد" تتم إعادة ولادة القادة و الشعب بطريقة مـا بمعرفة جديدة وعمل جديد . و تؤدي معرفة الثقافة المغتربة إلى عمل تحولي يسفر عن ثقافة يجري تحريرها من الاغتراب . و تتم إعادة صنع معرفة القادة بشكل أكثر حنكة من خلال المعرفة التجريبية للشعب ، بينما يجري ذيب معرفة الشعب بما لدى القادة من معرفة .

من الممكن في التوحيد الثقافي – و فقط في التوحيد الثقافي – حل التناقض بين نظـرة القادة إلى العالم و نظرة الشعب إليه ، مما يغني النظرتين . فالتوحيد الثقـافي لا ينفـي الخلافات بين النظرتين . إنه قائم في الواقع على هذه الخلافات . و لكنه ينفـي غـزو طرف لآخر ، و لكنه يؤكد الدعم الذي لا يمكن إنكاره الذي يقدمه الطرفان لبعضهما

البعض .

يجب على القادة الثوريين تفادي تنظيم أنفسهم بمعزل عن الشعب ، فلا بد من حل أية تناقضات قد تحدث بشكل عرضي مع الشعب بسبب بعض الظروف التاريخية ، لا أن تعمق بغزو ثقافي ناجم عن علاقة مفروضة . و الطريق الوحيد [لذلك] هو التوحيـد الثقافي .

إن القادة الثوريين سيرتكبون العديد من الأخطاء و يسيؤون التقدير إذا لم يأخـذوا في الحسبان شيئا حقيقيا للغاية مثل نظرة الشعب إلى العالم : نظرة تحوي بشكل صريح و ضمني اهتماماته و شكوكه و آماله و طريقة نظرته إلى القادة ، ونظرته إلى نفسه و إلى المضطهدين ، ومعتقداته الدينية (التي غالبا ما تكون توحيديـة) ، و قدريتـه و ردود افعاله التمردية . و لا يمكن النظر إلى أي من هذه العناصر بشكل مستقل ، لأ ـا في تفاعلها تشكل جميعها "كلا" واحدا. إن المضطهد مهتم بمعرفة هـذا "الكـل" فقـط كمساعد لعملية غزوه من أجل السيطرة أو الحفاظ عليها . أما بالنسبة للقادة الثوريين فإن معرفة هذا "الكل" أمر لا غنى عنه في عملهم كتوحيد ثقافي .

لا يعني التوحيد الثقافي (لأنه توحيد بالتحديد) أن أهداف العمل الثـوري يجـب أن تنحصر في إطار التطلعات التي تعبر عنها نظرة الشعب إلى العالم . فلو حـدث ذلـك (بحجة احترام تلك النظرة) سيكون القادة الثوريون مرتبطين بشكل سلبي بتلك النظرة . فليس من المقبول غزو القادة لنظرة الشعب إلى العالم ، أو مجرد تكيف القـادة مـع تطلعات الشعب (التي هي في الغالب ساذجة) .

بشكل محدد و ملموس : إذا حدث في لحظة تاريخية معينة أن لا تتعدى تطلعات الشعب

المطالبة بزيادة الرواتب ، عندئذ قد يرتكب القادة أحد خطأين : بوسعهم قصر عملهم على حفز وتحريك هذا المطلب الواحد (1) ، أو أن يرفضوا هذا التطلع الشعبي و يستبدلونه بشيء آخر أكثر تأثيرا – و لكنه شيء لم يصل بعد إلى مقدمة اهتمامات الشعب . في الحالة الأولى سيتبع القادة خط التكيف مع مطالب الشعب . و في الحالة الثانية سيقعون في [خطأ] الغزو الثقافي لعدم احترامهم لتطلعات الشعب .

يقع الحل في التوحيد : يتعين على القادة ، من ناحية ، أن يقرنوا أنفسهم بمطالب الشعب بزيادة الرواتب ، بينما من الناحية الأخرى يتوجب عليهم طرح ذلك المطلب كمشكلة . و بعملهم هذا ، يكون القادة قد طرحوا وضعا تاريخيا حقيقيا ملموسا يشكل مطلب الرواتب بعدا واحدا منه . و بالتالي سيتضح أن مطلب الرواتب وحده لا يستطيع تشكيل حل نهائي . فجوهر هذا الحل يمكن العثور عليه في البيان الصادر عن أساقفة العالم الثالث الذي سبق الاستشهاد به ، و القائل "إذا لم يصبح العمال بشكل ما مالكين لعملهم ، ستكون جميع الإصلاحات البنيوية غير ذات فاعلية ... يجب أن يكونوا مالكين و ليس بائعين لعملهم ...لأن أي شراء أو بيع للعمل هو نوع من أنواع العبودية."

للتوصل إلى وعي انتقادي للحقائق المتعلقة بضرورة أن يكون المرء "مالكا لعمله"،و أن العمل

(1)هاجم لينين بشدة ميل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي للتأكيد على المطالب الاقتصادية للبروليتاريا كأداة من أدوات النضال الثوري ، و وصف هذا الإجراء بأنه "تلقائية اقتصادية" . راجع : فلاديمير لينين :

On Politics and Revolution, Selected في"What Is to be Done" Writings (نيويورك 1968)

"يشكل جزءا من شخصية الإنسان" و أن "الإنسان لا يمكن أن يبـاع ، أو أن يبيـع نفسه" يعني اتخاذ خطوة أبعد من مجرد خداع الحلول المخففة . إنه يعني الاشـتراك في تحوير حقيقي للواقع من أجل إضفاء إنسانية على الناس من خلال إضفاء إنسانية على الواقع .

يخدم الغزو الثقافي ، في نظرية العمل المعادي للحوار ، أهداف التلاعب و الغش ، التي تخدم ، بدورها، أهداف الغزو ، و يخدم الغزو أهداف السيطرة . أما التوحيد الثقـافي فيخدم أهداف التنظيم ، و يخدم التنظيم أهداف التحرر .

إن هذا الكتاب يعالج حقيقة واضحة للغاية : فكمـا يحتـاج المـضطهدون ، كـي يضطهدوا، إلى نظرية عمل اضطهادي ، يحتاج المضطهدون أيضا إلى نظرية عمل كـي يصبحوا أحرارا .

المضطهدون يعدون نظرية عملهم بدون الشعب لأنهم يقفون ضد الشعب .كمـا أن الشعب ، لن يستطيع – ما دام مقموعا و مدمرا و مـضطهدا و يـستبطن صـورة المضطهدين – إعداد نظرية عمله التحرري بنفسه . فهذه النظرية يمكن بناؤها فقط في التلاقي بين الشعب و القادة الثوريين في تلاحمهم و في ممارستهم .

التنوير
دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع
المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية